

هذا العدد

يأتي إصدار هذا العدد الخاص بالأدب والحياة الثقافية في منطقة شمال القفقاس، لاسيما في غير دينيا-بلقاريا تنفيذاً لاتفاق ثقافي بين اتحادي الكتاب في البلدين الصديقين ، وفي سياق نهج اتبعتة مجلة الآداب الأجنبية للتعريف بأداب بعض الشعوب والبلدان، لإعطاء صورة عن النشاط الثقافي المعاصر فيها. ومما صدر في هذا المجال أعداد خاصة بالأدب في: اليابان- الصين- استراليا- الدول الاسكندنافية- إيران- ألمانيا- وأفريقيا السوداء وغير ذلك من البلدان.

وشعوب شمال القفقاس تربطنا بمعظمها ، نحن العرب ، علاقات ثقافية عريقة، وجمعنا الإسلام مع معظم شعوبها، الأمر الذي يشكل أرضية مشتركة من القيم، ويعيد بعض الحياة إلى تاريخ مشترك ضارب في عمق الزمن.

ومنذ حرب القرم وانتصار الروس فيها على السلطنة العثمانية تم سلخ تلك البلدان والشعوب عن بينتها الثقافية وجوارها الحميم ، وفرضت عليها لغة أخرى وكتابة بحروف غير العربية التي كانت تستخدمها؛ وتم في العهدين الروسي والسوفييتي ، اللذين خضعت خلالهما تلك الشعوب لواقع اغتراب كبير وانقطاع أكبر شمل فيما شمل التراث والجوار الجغرافي والصلات مع العالم الإسلامي ، ولحق ذلك صلات القبائل أو "الشعوب" ذاتها ببعض أفخاذا وأبنائها الذين تفرقت بهم السبل تحت تأثير الحرب والقهر .

فقد هاجر من تلك المنطقة من هاجر منها حاملاً معه عقيدته وثقافته

وتاريخه وجراحه وحينئذ يعقُّ يوماً بعد يوم في شرايين الدم وذاكرة الأجيال؛ وبقي من بقي فيها يعضُّ بالنواجذ على ما تبقى القيم من الأرض والقيم والحرف والتاريخ والكرامة.

لقد هدمت قرى وشردت جموع ودمرت مساجد ومدارس، وقضى رجال ونساء وأطفال كثير في شعاب القفقاس وفي السهول الممتدة على مساحات شاسعة في ذلك الجزء الساحر من الشرق، ولكن بقي شيء من الإنسان أقام في تلك الأرض حصوناً باقيات تعيد لذلك الإنسان صلة بأقدم ما عرف من حضارة، وتجعله يتعلّق بأصل سومري ولغة سومرية وحضارة سومرية تعود إلى أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل ميلاد المسيح.

وفي جنة الله على الأرض تلك التي تمتد من البحر الأسود إلى بحر قزوين "بحر الخزر"، تتربع قمم القفقاس الشاهقة المغطاة بالثلوج وتتدلى منها أجنحة من الخضرة تصنع قباباً وودياناً تشرق في أحضانها عيون من البحيرات مشكلة حالة تواصل حميمية بين السماء والأرض، وتمتد تلك الخضرة الساحرة على مساحات من الأرض التي تعشش فيها الأساطير. وما زلت أذكر منها أسطورة تقول: إن الخالق سبحانه وتعالى قسم الأرض على البشر وأبقى منها مساحة لنفسه هي جنته التي تعانق البحر الأسود من "سوتشي" إلى "سوخومي" وتتسلق سفوح القفقاس ماضية نحو الشمال على بساط أخضر تقطعه بعض القمم البيضاء لينتشر في "بيتاغورسك" ومنطقتيها الرائعة، وأن الخالق أحب ذلك الشعب الذي نسي أن يخصص له أرضاً فأعطاه جنته الأخاذة تلك.

وتقول الأسطورة الأخرى: "إن جبل "البروز" وهو شيخ الجبال في القفقاس مثل شيخ القبائل القديمة فيها أحب معشوقة التي كانت تختال تحت الشمس المساطعة بجلتها الخضراء فتسبي الألباب، وكان هذا الشيخ المعمم بالثلج، المسور بالقوة والعزم ينظر من بعيد إلى محبوبته البهية بشوق ويمنعه الكبير عن الاقتراب منها.

وبجانب معشوقة كان "بيش تاو" ينظر في عينيها كل يوم ويكاد يلامسها عن قرب، وسرت الإشاعات التي لا تتبع من فراغ بأن بيش تاو يحب معشوقة وتبادلته هي الحب، ووصل الخبر إلى شيخ القفقاس المنقل بعتمته البيضاء ووقاره وسمعته.

فارتجف غيظاً وغضباً فاهتزت لذلك الغضب الأرجاء كلها وأحدث رعدة في أوصال الأرض، فتشقت ودياناً و وهاداً وفجوات، وأوما إلى "بيش تاو" فقسم جسمه إلى خمس قطع، بعد أن استطاع المحب أن يضربه بسيفه فيقسم عتمته إلى قسمين ولكنها لم تصب منه مقتللاً، واستل "البروز" سيفه وطعن به المحبوبة الغادرة معشوقة في الصدر، وتراخي الجسد الجميل الذي كان ينتصب حباً تحت الشمس، ومع الزمن تجمدت قطع جسم "بيش تاو" على شكل جبل ذي قمم خمس/بيش تاو وبالتركية خمس قمم/ وأصبح "البروز" مقسوم القمة إلى شقين، أما معشوقة فتجذرت من صدرها وقلبها الينابيع التي تنفي الناس بمياهها المعدنية المتقوعة.

أساطير جميلة تفسر بتخييل شعبي ما استعصى على التفكير الشعبي تفسيره من ألغاز الطبيعة والحياة، وتلك الأساطير تتوزع في بلاد جميلة هي الأخرى، أهلها رفاق الخيل التي في أعناقها الخير، لهم عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم الممتلئ كفاحاً وعزة، ولكن أرض الأساطير تلك لم تعد لهم وحدهم، فقد شاركهم فيها آخرون وغلبهم عليها آخرون، وهم ينزرون في ما تبقى لهم منها.

وفي نالتشك عاصمة "غيردينيا - بلقاريا"، التي يعود إلى كتابها ومبدعها معظم ما في هذا العدد من إنتاج، يطالعك الاهتمام بالزهور والبساتين وبنوع من شجر الفصيلة الصنوبرية ذي المظلات الملونة بزرقة مخضرة حيث يسجل أينما اغترب خصوصية لتلك المنطقة.

صورة البيئة والإنسان سوف ننقري ملامحها في هذه المختارات من الشعر والقصة والدراسة التي تسجل شيئاً من اهتمام شعوب القفقاس

ومعاناتها ورؤاها، وسنجد في ما يقدمه هذا العدد صورة للشيخ شامل رمز جهاد تلك الشعوب في قرن مضى تنتصب قائمة فارعة فوق ذرى القفقاس لتذكرك بتاريخ يغص بالأسى والتضحيات ، ولتربط في ذاكرتك خيوط الأحداث التي تعبر بك إلى العصر الحاضر حيث يتجدد وجه الحياة ووجه التاريخ ووجه النضال ، سواء في " سوخومي " أو في " غروزني " حيث الدم والنار والدمار يذكرك ببيروت ، أو في مناطق يتم فيها نضال من نوع آخر، نضال رصين يأخذ سبلاً أخرى منها المحافظة على الهوية الثقافية والحضارية والانتماء القومي ؛ ولكنها جميعاً جهود ترمي إلى استعادة السيادة والكرامة والوحدة وأرض الثقافة والعقيدة ، التي مازالت تخيم عليها ظلال قائمة وتسفحها رياح تحمل صقيع القطب الشمالي وسمومه .

وفي وجه كل تلك الرياح وأنواع المحن والمعاناة ، يرفع شاعر من شعراء القفقاس جبينه وصوته بالنشيد :

" يا شعبي لست أنت من يشبه بالفولاد ،
إتما الفولاد هو الذي يشبه بك .
<http://Archivebeta.Sakine.com>

إذا صدئ الفولاد يمكن إعادة البريق إليه ،

أماً إذا اسود وجه الإنسان فلا يمكن تنظيفه أبداً .

أيتها الريح لم كل هذا الضجيج الذي يراكم الأفكار السوداء على صفحة الروح ؟ !

سؤال يبقى من دون جواب ، ولكن ذلك لا يفتت العزم وتطلع الروح :
" تلبدني ما شئت أيتها الغيوم السوداء فوقني ، فمن سمائي يطل هلال مضيء " / الشاعر : وزراي أفليك / .

في " نالتشك " يحتفلون بالشاعر والباحث والمناضل " نجم شوري ويلفظون اسمه

هناك " نغمو شوري " وهو يجسد لديهم روحاً وصلات وإبداعاً ،

ولكنه ، من وجهة نظري جسراً يمتد فوق هوة تربط العصر المولم الذي مضى ويشير إلى آخر الجسور التي بقيت في الذاكرة مما يربط الناس بجسر يعبر الهوة إلى الماضي ؛ ولكن نهر الصلة الهدار بأصالته هو ذلك الذي يمتد بين كل مدن القفقاس والناس الطيبين الذين بذرتهم الحروب حتى حرب القرم في أرض الله الواسعة ؛ ومنهم فصيل من المخلصين للأرض التي حمتهم والأمة التي أظلتهم ، يتطلع إلى صلات أفضل مع أشقائه ، ومستقبل أعظم وأكثر ازدهاراً لشعوب القفقاس ، الوطن الذي كان ، بينما يقدم جهده ودمه بإخلاص للوطن الذي صار ، ذلك الذي يجعله يعيش البعد الحضاري والعقدي بكل عمق التفاعل والتواصل والاطمئنان .

وأحب أن أترك بين يدي القارئ الكريم، وأنا أترك له ما يقدمه هذا العدد من مادة أدبية ومعرفية عن تلك البلاد وتلك الشعوب صورتين موجزتين :

صورة الجسر المؤدي إلى * سوخومي * الأبخازية التي خاضت حرب استقلال دامية ضد جورجيا في السنوات الماضية ؛ إذ على مدخل ذلك الجسر الذي تحتضنه صخور الجبل الشاهقة من الجانبين ، ترتفع باقة من الزهور ، منغوسة في خصر صخرة مخضرة مخضلة ، تلوح بقامتها للآتين وتشير إلى روح شهيد قضى في هذه الرحاب ، ويتضوع عطر أدائها من كل أشجار الغابة المنتشرة في المدى : ذلك الذي سقط من أجل الحرية والاستقلال ، والذي يشق درب الآتين إليهما باستمرار غدا خالداً فينا ، وصار شيئاً عضواً منا !!!

وصورة ذلك الشركسي بزّيه التقليدي ، القلبق ، والخنجر يتدلى بتألق عند الخصر ؛ وهو يرقص ويتباهى بين يدي حمامة مزركشة تَكْرُجُ أمامه برصانة واصطبار على رؤوس أصابع قدميها ؛ يقدمان لوناً من ألوان الفن الشعبي ، الذي له في نفوس أبناء شعوب تلك المنطقة وقع خاص ومدلول خاص لا يمكن أن يخطئهما أحد من تلك الأقوام أو ممن عرفوا عنها شيئاً .

ومن قمة الرقص ينقلانك من " نالتشك " ، المتباهية بحكمتها العريقة وأصالتها ، إلى موقع آخر من الاختيار الشجاع ، إلى " غروزني " ، حيث الخنجر إياه يرقص في الفضاء وقد تحول إلى قذيفة تبحث عن عناق مع الهدف ، وصولاً إلى الاستقلال والحرية .

إن الصورتين الساطعتين تحت إشراف " الزور " تقدمان إشارات على طريق نضال وآمال وثقافة وراث لشعوب تسعى إلى الفجر مقدمة من جديد فيض الدم والألم والمعاناة في جهاد يعيد ميراث الجهاد ؛ فهل تراها تعانق الأمل والفجر معاً في فضاء تحرسه قمم القفقاس بأساطيرها وعزائم أبنائها ، التي تعطي لتلك الطبيعة غنى أكثر وللأدب الذي تنتجه فهماً أعمق وأبعداً في التأثير أشد ؟! إن التواصل البريء العميق مع كل من الإبداع والناس والبيئة يقود إلى استنتاجات مهمة على هذه الطريق ، وإليكم ما يقدمه لكم بعض كتاب شمال القفقاس ومبدعيه ، فهو قادر على تقديم شيء أقرب إلى الشهادة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دمشق في ٤ / ٧ / ١٩٩٧

د.علي عقلة عرسان

□□□

قباردا- بلقاريا

والعالم العربي

■ إعداد: غسان نوح شورهي ■

القفقاس أو القوقاز هي المنطقة الجغرافية الواقعة بين البحر الأسود وبحر آزوف من الغرب، وبحر قزوين (الخير) من الشرق، وتمتد شمالاً حتى حوض مانيتش ونهر القوما، وجنوباً حتى السفوح الشمالية لهضبة أرمينيا بين دائرتي عرض (٤٠-٤٥) شمالاً، وبين خطي طول (٣٧-٤٩) شرق غرينتش. وهي صلة الوصل بين قارتي آسيا وأوروبا، وتقسّمها سلسلة جبال القفقاس الممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بطول ١٢٠٠ كم إلى قسمين شمال القفقاس، وتضم عدة جمهوريات إتحادية، تتبع جمهورية روسيا الاتحادية، وتدين معظم شعوبها بالإسلام، أما القسم الجنوبي فتوجد فيها ثلاث جمهوريات هي أذربيجان وجورجيا وأرمينيا التي انفصلت عن الإتحاد السوفييتي وهي دول مستقلة الآن.

جبال ووهاد، سهول وحقول، بحار وشواطئ، غابات ومروج، ينابيع وأنهار، ثروات وخيرات، طرق وحضارات، شعوب ولغات، حرب وسلام، إن هذا التنوع في التضاريس، والغنى في الغطاء النباتي، والاعتدال في المناخ، والغزارة في الأمطار والثلوج، والثراء في الينابيع والأنهار، وهب القفقاس (وخاصة الشمال الغربي منها) أجمل المناظر الطبيعية، حتى اعتبرت جنة الله على الأرض، وعشيقه الشعراء والأدباء ومكاناً للراحة والاطمئنان للناس أجمعين.. فهنا على سواحل البحر الأسود ورماله الذهبية، تنتشر مدن غاغرا وبتسوندو وسوتشي وداغوميس، تستطيع أن تنعم بالشمس الدافئة، ومياه البحر الصافية، وإذا نظرت إلى الخلف تجد الغابة العذراء تحتضن الشاطئ بحنان وعذوبة، وتلاً صدرك بشذى الأثر هار البرية العيقة، وإذا رفعت رأسك قليلاً إلى الأعلى رأيت هامات القفقاس العظيم موشحة بالثلج الأبيض كالشيخ المهيب، ينزو إلى بنيه بعطف

وحنان، وكأنه يقول خلقت لأسعد بني الإنسان ولينعم بالسلم والاطمئنان، فلماذا الظلم والطغيان لأخيك الإنسان.

هنا على السواحل الشرقية للبحر الأسود، وعلى ضفاف نهر الكوبان والترك، ومنذ آلاف السنين نشأت حضارات ودول (المبيوت، السند، الزرخ) أجداد السراكسة القدماء، ومن هنامرت شعوب وقبائل، باحثه عن ملاذ آمن مدفوعة بجيوش الإمبراطوريات العظمى قديماً (الإغريق، والرومان، والفرس، والاسكيت، والتتار والمغول والهنون) ونشأت علاقات حضارية مثمرة بين مملكة البسقورس الإغريقية التي نشأت في القرم وشعوب سواحل البحر الأسود ومن هنا أيضاً مرت جيوش جنكيزخان ١٢٢٢م، وقوات تيمورلنك ١٣٩٥م ناشرة فيها الخراب والدمار، محدثة تغييرات كبيرة في مواطن الشعوب والقبائل التي كانت تعيش فيها.

وفي العصر الحديث وبعد أن نشأت الإمبراطورية العثمانية، وصراعها مع الدولة الإيرانية للهيمنة على العالم الإسلامي، وبعد أن استولى العثمانيون على القسطنطينية عام ١٤٥٣م وتوسعهم في شرق أوروبا، واستيلائهم على شبه جزيرة القرم عام ١٤٧٥م، ومحاربتهم الحثيثة للوصول إلى مواطن الشعوب الطورانية في آسيا الوسطى عبر القفقاس، اصطدمت مع روسيا القيصرية، التي كانت تبني إمبراطوريتها الاستعمارية، وتسعى للوصول إلى المياه الدافئة عبر القفقاس، والدول الأوربية وخاصة انكلترا التي كانت تسعى لتحقيق حلمها بالسيطرة على القفقاس الشمالي، لتأمين ممر بري نحو الشرق الأقصى، وبالوقت نفسه تسعى لاحتدام الصراع بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، لاضعافهما وإبعادهما عن أوروبا.

وهكذا وقعت منطقة القفقاس في دائرة الصراع بين الدول الكبرى، ومطامعها الاستعمارية، وعانت شعوبها المآسي والويلات، كما عانت الشعوب العربية بالضبط، وفي هذه المرحلة التاريخية، لم تكن القبائل التركسية، موحدة تحت قيادة واحدة، بل كانت كل قبيلة تنظم أمورها وحدها، وعندما تتعرض للأخطار الخارجية، تتحالف لصد هجمات الغزاة. فقبيلة القبردي كانت تعيش في سهول وسط القفقاس بين نهري السونج والكوبان ضمن نظام اجتماعي طبقي، وإلى الغرب منها تقطن (قبائل البسلني والأبازه والكمركوي والأبزاخ والأدمي والبجدوغ

والحقوقي والمالغ) على ضفاف نهر الكوبان وروافده وسفوح القفقاس، وعلى سواحل البحر الأسود تعيش قبائل (الناخوج والشابسغ والأوبيخ والأنجاز)، وهذه القبائل تتكلم لغة واحدة، ولكن بلهجات مختلفة أشبه ما تكون باللهجات العربية العامية، وهي كانت حينئذٍ منهكة نتيجة غزوات المغول والتتار التي دمرت بلادها ووحدتها.

بدأ تتار القرم بمساعدة الدولة العثمانية منذ عام ١٥٤٥م يغيرون على القبائل الشركسية واحدة بعد الأخرى، وينشرون الدمار والخراب، ويستولون على الأرزاق والأثام، ويأخذون الأطفال كرهائن لضمان ولايتهم، حيث يباعون في أسواق النخاسة في الدولة العثمانية.. وأمام هذا البلاء الذي خيم عليها فتست عن حليف، فوجدت ضالتها في روسيا القيصرية، التي كانت هي نفسها تعاني من هجمات التتار، فعقدت القبائل التي لم تقع تحت نفوذ تتار القرم بزعامة (تيمروقه) أمير القبردي حلفاً مع إيفان الرابع قيصر روسيا ضد التتار عام ١٥٥٧، واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً، وكثفت الدولة العثمانية هجماتها على القفقاس، واحتدت المعارك بين العثمانيين وروسيا في البلقان. وبموجب معاهدة بلغراد التي وقعت بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٧٣٩ اعترف الطرفان باستقلال منطقة القبردي حيث كانت تبلغ مساحتها (٤٤) ألف كم^٢ وعدد سكانها (٤٠٠) ألف نسمة تقريباً إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، ففي عام ١٧٧٤ عقدت معاهدة قينارجة في أعقاب حرب القرم وانتصار الروس على العثمانيين، سلخت بموجبها منطقة القرم من الدولة العثمانية وأعطيت منطقة القبردي لروسيا، دون أن يكون لشعب القبردي أي علم بذلك.. حينئذٍ هب الشعب القبردي ليدافع عن استقلاله، وبدأ يغير على حصون وقلاع الجيش الروسي، الذي كان قد هباً نفسه للاستيلاء على منطقة القبردي، وبذلك يفصل شمال القفقاس إلى نصفين ليضعف وحدة القفقاس الشمالي، ولكي يتصل مع حليفه الجديد دولة جورجيا التي أعلنت ولاءها لروسيا القيصرية.

وكان الهجوم الروسي الكبير في (٢٩ أيلول عام ١٧٧٩) الذي قامت به قوات الجنرال ياكوبي على منطقة بيتا غورس (بسه هوايه) حيث دمرت عشرات القرى، وهجرت ألوف الأسر إلى الغابات والأودية، وإلى منطقة نهر اللابا، واعتبرت روسيا حدودها مع القبردي نهر البالق. وبدأت تقيم الحصون والمواقع الحربية، لتتطرق منها في متابعة هجماتها، ولفصل منطقة القبردي عن بقية القبائل

الشركية في الغرب، لمنع وصول النجذات إليها، واستمرت المعارك.. من موقع إلى آخر، إلى أن قامت قوات الجنرال غلازينب بتأريخ ٤ أيار ١٨٠٤م بهجوم واسع النطاق، حيث دمرت ٨٠ قرية، وفي نيسان عام ١٨١٠ قامت القوات الروسية بقيادة الجنرال بولغاكوف بهجوم كاسح دمرت ٢٠٠ قرية وأحرقت (٩٠٨٥) بيتاً و (١١٠) مسجداً، إلى جانب الاستيلاء على المذن والمواشي، وانتشر مرض الطاعون بين الشعب القبرديني يحصد الشيوخ والنساء والأطفال الذين كانوا قد لجؤوا إلى الغابات والأودية الجبلية على سفوح القفقاس، ومع ذلك استمر الشعب في المقاومة. وتعيين الجنرال يرمولوف الذي عُرف بقسوته ودمويته قائداً للقوات الروسية في القفقاس، بعد انتصاره على نابليون، شهدت القفقاس كلها أياماً عصيبة، حيث أمر بإحكام الحصار على شعب القبردي لمدة أربعة سنوات مستخدماً سياسية الأرض المحروقة مدمراً كل شيء يمكن أن يستفيد منه الشعب، واستطاع أن يحقق حلمه عام ١٨٢٢ بالسيطرة على منطقة القبردي، وإخلائها من السكان ليمنحها للقوزان حيث كتب يرمولوف لأسياده قائلاً: (كان الطاعون، حليفاً لنا ضد القبردي، بحيث قضى على كل سكان قباردا الصغرى (شرق نهر التيرك) وساهم في إفراغ قباردا للكبرى، وأضعفهم إلى حد أنهم، لم يستطيعوا، كما كان من قبل، التجمع في مجموعات كبيرة). وبدأ بإنشاء المستعمرات لإسكان القوزان فيها، وتحصين مواقعها في عموم شمال القفقاس. وبعد توقيع معاهدة أدرنه عام (١٨٢٩) التي اعترفت بموجيها الدولة العثمانية، بسيطرة الروس على شمال القفقاس. اتجه الجهد الرئيسي للقوات الروسية، نحو الشرق لحسم المعارك في الداغستان والشيشان، وبنفس الوقت نحو الغرب في منطقة شراكسة الكوبان، وهبت شعوب تلك المناطق لمقاومة الغزاة بكل زخم وقوة، في الشرق بزعامة الشيخ شامل والحاج مراد وخاصة بعد عام ١٨٣٧ وفي الغرب حيث اتحدت قبائل الأديغة (الشركس) بزعامة محمد أمين والحاج جراندوقه، وقد استطاعت هذه القوات الاستمرار في مواجهة الزحف الروسي، سنوات وسنوات وسطرت أعظم ملاحم البطولة والفداء، دون أن تنتقي ما وعدت به الدولة العثمانية والفرنسيون والإنكليز الذين زعموا أنهم حلفاؤهم، وخاصة عملاء انكلترا (دافيد اوركهارت- وجيمس بيل) اللذان كانا يثقان اللغة الشركسية، ولكن دورهما كان كدور لورنس وجرتروديل في منطقة الشرق الأوسط، وانسحب هؤلاء من المعارك بتوقيعهم

معاهدة باريس ١٨٥٦ مع الدولة الروسية، وتركوا شعوب منطقة القفقاس تواجه روسيا القيصرية وحدها.

مما اضطر الشيخ شامل إلى الاستسلام في ٢٥ آب ١٨٥٩. أما في الغرب فقد استمر القتال، حيث كان الجنرال يفديكموف يدك القرى بالمدفعية، ويدفع سكانها نحو البحر الأسود حتى (٢١ آذار ١٨٦٤) حيث توقفت المعارك.. وبدأ فصل جديد من مأساة الشعب الشركسي، وشعوب القفقاس الشمالي، أشد هولاً وقسوة من المعارك، ألا وهي مأساة التهجير. حينما اتحدت الإرادتان الروسية والعثمانية، والأعداء الألداء بالأمس جمعتهم المصلحة المشتركة الآن، الروس الذين يريدون القفقاس بدون سكانها، والعثمانيون الذين لم يستطيعوا السيطرة على القفقاس بسكانها، فعلى الأقل القبول بسكانها لحل مشاكلهم في مناطق أخرى من إمبراطوريتهم المتداعية، وتحالف معهم الأشرار من كل صنف ولون.. وتم اقتلاع مئات الألوف من بيوتهم وقراهم، وسيقت إلى المجهول.. وهكذا كان مصير شعوب القفقاس، احتلال أوطانهم، وتهجير ثلثي السكان الذين نجوا من الحروب إلى الدولة العثمانية.. وهم يعيشون اليوم في (٢٤) دولة، معظمهم في تركيا والأردن وسورية ويوغسلافيا والولايات المتحدة الأمريكية، والذين يقدر عددهم بثلاثة ملايين نسمة، أما من بقي منهم في القفقاس الشمالي، وخاصة القسم الشمالي الغربي منها، والتي أصبحت شبه خالية، خضعت للإستعمار الروسي الاستيطاني حيث حدثت هجرة واسعة من الروس والقوميات الأخرى إليها، وأصبح سكانها الأصليون أقلية في بلادهم بعد أن فقدوا ثلثي عددهم في الحروب والتهجير... ففي منطقة القبردي لم يبق عام ١٨٦٨ سوى (٥٢٠٠) أسرة فقط بعد أن كان عددهم يبلغ عام ١٧٣٩ (٤٠٠٠٠) نسمة ولم يبق من قبيلة الأرباخ أحد وهكذا بقية القبائل. وفي أعقاب الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ تشكلت جمهورية القفقاس الجبلية، التي تضم جميع شعوب القفقاس الشمالي ما عدا داغستان كإحدى جمهوريات الإتحاد السوفياتي. ولكن بعد فترة قصيرة في عام ١٩٢١ قسمت إلى عدة جمهوريات ذات استقلال ذاتي، ومقاطعات ودوائر قومية، أُنشئت إلى جمهورية روسيا الاتحادية، حشرت فيها قوميات أخرى إلى جانب سكانها الأصليين، مع التصرف الكامل، بحدود هذه الجمهوريات، دون الرجوع إلى إرادة شعبها.. ومنذ عام ١٩٣٦ أصبح الشعب الشركسي مجزأ في أربعة جمهوريات

هي (قباردا- بلقاريا، قرشاي - تشركيسيا ، الأديغييه، وأبخازيا) وحتى القبيلة الواحدة أصبحت مجزأة فمثلاً في جمهورية قباردا- بلقاريا يعيش إلى جانب القبردي شعب البلقار الذين ينتمون إلى العرق الطوراني ويتكلمون لغتهم القريبة من لغة الأتراك وبلغ عددهم عام ١٩٩٠ (٧٠) ألف نسمة وكذلك يعيش فيها الروس والأستين والكوريين، بينما يعيش شعب القبردي في جمهورية قرشاي تشركيسيا، وفي جمهورية أوسيتيا الشمالية في منطقة مزدوك، وتوجد ثلاث قرى قرب مدينة أرماميز (بكمري- شحشهو-كورغي)، وأيضاً في جمهورية الأديغييه (هوز- ولايه وكواشه حبله- ويلاشه بسنه) وهم بقايا القبردي الذين هجروا من منطقة بيتا غورس عام ١٧٧٩ ورغم كل ذلك تحققت للشعب الشركسي، في هذه الفترة، جملة من الإنجازات الإيجابية وخاصة على الصعيد الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، وعاش حياة مستقرة فترة لا بأس بها، ساعدت على استعادة أنفاسه، رغم خسائره الكبيرة في الحرب العالمية الثانية التي بلغت (٣٨) ألف نسمة من سكان قباردا- بلقاريا، التي كان يبلغ عدد سكانها حينئذ (٤٠٠ ألف) نسمة..

إن جمهورية قباردا- بلقاريا التي تبلغ مساحتها (١٢٩٠٠) كم^٢ والتي بلغ عدد سكانها (٨٠٠) ألف نسمة عام ١٩٩٠، تطورت تطورا ملموسا بعد الحرب العالمية الثانية في شتى المجالات ففي مجال الزراعة تنتج الذرة والقمح ودوار الشمس والدخن والشمندر السكري والأرز وتنتشر فيها مزارع الأشجار المثمرة وخاصة التفاحيات واللوزيات، وتربى فيها قطعان كبيرة من الأغنام والأبقار وخيول (كابردين) المشهورة في أنحاء العالم بقوة تحملها، كما تنتج العسل والأسماك. ويستثمر من مناجمها التنغستين والغناديوم والولغرام والماس والبترو. وانتشرت فيها المنشآت الصناعية الضخمة التي تقوم بإنتاج الأنواع العديدة من الآلات والتجهيزات الالكترونية والمنتجات الجلدية والموبيليا والألبان وبضائع الاستهلاك الشعبي..

وتعتبر الجمهورية منطقة سياحية من الدرجة الأولى، لجمال مناظرها الطبيعية واعتدال مناخها صيفاً، وغناها بالمياه المعدنية، ووجود التلوج الأبدية على سفوح جبال إلبروز التي ترتفع ٥٦٤٢م حيث يؤمها المترجلون وتنتشر فيها

المصحات والفنادق ودور الاستراحة التي تتسع لـ ٢٦٠ ألف سائح وتعتبر مدينة نالتشك عاصمة الجمهورية، ويبلغ عدد سكانها (٢٥٠) ألف نسمة، وتعتبر مدينة مصحات ومركزاً علمياً وثقافياً للمنطقة. حيث توجد فيها جامعة نالتشك التي تأسست عام ١٩٣٢، والمعهد العالي للزراعة، ومركز أبحاث المناطق العالية بالإضافة إلى ثمانية معاهد بحث علمي، وأكاديمية العلوم الشراكسية التي أنشئت حديثاً، ويرأسها العالم الشهير في الفيزياء / آدم تهبوش / ، أحد علماء الإتحاد السوفياتي في مجال الصواريخ.

وتصدر في المدينة (٤) جرائد على مستوى الجمهورية باللغات (القبردينية - والبلقارية والروسية) و(٥) مجلات متخصصة. كما يوجد فيها خمسة مسارح حكومية، وفرقتا رقص شعبي، وثمان دور للسينما، و(٢٣) مكتبة إضافة إلى (٥٠) دار ومقر للثقافة وثلاث مدارس موسيقية، ومدرسة فنية، ويوجد فيها العديد من القاعات والملاعب الرياضية، وتزدهر مدينة نالتشك بحديقته العامة للثقافة والراحة، وتبلغ مساحتها ٥ كم^٢ وتحتوي على (١٥٦) نوع من الأشجار من مختلف قارات العالم، ومسرحاً مكشوفاً وساحات لألعاب الأطفال ومساح طبيعية تغذيها مياه نهر نالتشك، وتنتهي حدودها لتندمج مع غابات جبل سوسروقه التي يمكن الوصول إليها بواسطة التلفريك.

<http://Archivebeta.Sakinit.com>

وفي أعقاب التغيرات الأخيرة في الإتحاد السوفياتي، أصبحت جمهورية قباردا - بلقاريا جمهورية اتحادية، في قوام جمهورية روسيا الاتحادية. وهي بموجب الدستور الجديد تتمتع بحرية كاملة في مجال إنشاء العلاقات الثقافية والاقتصادية مع البلدان الأخرى. وهي تسعى لجعل منطقة القفقاس، واحة سلام ومحبة وتعاون بين جميع الشعوب التي تعيش فيها، وحل الخلافات التي قد تنشأ بينها بالطرق السلمية والديمقراطية، كما تسعى إلى إقامة علاقات تعاون وأخوة مع الشعوب الأخرى، وترنو إلى المستقبل دون حقد أو ضغينة على أحد، متمنية الخير والسعادة للجميع.

العلاقات العربية القبردينية (الشراكسية) :

لقد بدأت هذه العلاقات منذ آلاف السنين، حينما أقام أجداد الشراكسة (الأديغة والإبخاز) علاقات تجارية وثقافية مع مراكز الحضارة في العالم (اليونان

والفينيقيين، والحثيين) ويقول: د. عمر شابوغ مترجم كتاب (فك رموز الكتابات القديمة في القفقاس) لمؤلفه غ.ف تورشاييفوف بأن الكتابة الآشورية (الشركية قديماً) لها علاقة بأشكال ورسوم الكتابة الفينيقية الأولى، وبأن علاقة حميمة، ربطت أهالي شمال القفقاس (قديماً الشراكسة، الأديغة) منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد مع أهالي فينقيا (جيبيل) واستمرت هذه العلاقة أربعة آلاف سنة، وقام الرحالة العرب بزيارة منطقة القفقاس حيث ذكرها المسعودي في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وتحدث مطولاً عن الشراكسة (أمة الكشك) وذكرها ياقوت الحموي. في معجم البلدان باسم جيل (القيق). ومنذ أن وصل العرب المسلمون بقيادة سراقا ابن عمر الأتصاري منطقة القفقاس، واقتحموا مدينة دربند على بحر الخزر عام ٢٢٢هـ ٧٣٧م، بدأ الإسلام ينتشر في الداغستان والشيشان، وامتدت أخبار العرب والإسلام نحو الغرب في قباردا وشراكسة الكوبان، ولكنها لم تنتشر فيها إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخاصة في عهد حكم الأخوة ميسوست (حاطر ظوقه - وتيمروقه - وعادل جري) حينما أمنوا بالعقيدة الإسلامية، وعملوا على نشرها في منطقة قباردا، وعندما استلم حكم القبردي الأمير عادل جري الذي كان قد تعلم العربية وحج إلى مكة، طبق الشريعة الإسلامية في البلاد بمساعدة المولى (أبو قوه اسحاق) منذ عام ١٧٩٠، وفي هذه الفترة بدأ طلاب العلم يفدون من قباردا إلى استانبول والقاهرة ودمشق لدراسة العلوم الإسلامية وعندما يعودون إلى بلادهم، يقومون بتدريس هذه العلوم في المساجد، ويقول يلبد حسن بأنه هونفسه درس عند (٣٤) مولى (الأدب، والفقه، واللغة العربية، والتاريخ والحساب والمنطق) ومن أبرز هؤلاء في القرن التاسع عشر (حج بارا، ودشك نائب، شرلوقوه ناوتوقه وشورا نوغمو الذي كان يتقن اللغة العربية والتركية والفارسية والروسية وكان له تأثير كبير في توجيه الجيل الجديد نحو العلم والمعرفة) وكانت لكل من هؤلاء محاولات لوضع أبجدية للغة القبردينية بالأحرف العربية لتسهيل عملية التدريس. وفي بداية القرن العشرين عندما عاد عدد من الدارسين إلى قباردا اجتمعوا وقرروا فتح المدارس التي تعلم العلوم باللغة الشركسية بالأبجدية العربية، التي وضعها فوزي مجيد، ومن أبرز هؤلاء الذين سموا عصابة بأخسان (تساغو نوري الذي درس في استانبول وزار دمشق، ودم أند الذي درس في القاهرة، ويلبد حسن الذي درس في دمشق،

وشوغونتسوك علي الذي درس في استانبول.. وغيرهم) حيث استوردوا مطبعة بالأحرف العربية من استانبول لطباعة الكتب المدرسية، وطباعة الجريدة التي أصدروها باسم (صوت الأديغة) وكان كل واحد من هؤلاء (١٢) يعلم أبناء قريته، لأن المدارس الرسمية حينئذ كانت تعلم باللغة الروسية، وأبناء الأمراء والنبلاء والأغنياء فقط، وفي هذه المرحلة انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في منطقة القبردي. وعندما وصل الشركاسة المهجرون إلى سورية والأردن والعراق، استقبلوا هنا كإخوة أحباء واقتسموا مع العرب الخبز والماء، والمأوى الآمن، وكانت الحياة المشتركة في السراء والضراء، وكان ذلك أصدق تعبير عن عظمة إنسانية الحضارة العربية وسيذكر الشعب الشركسي ذلك إلى أبد الدهر بأسمى آيات المحبة والولاء والعرفان بالجميل. وحديثاً حينما توطدت العلاقات بين الإتحاد السوفياتي وسورية العربية في الستينات، بدأت تصل الوفود السياحية القبردينية إلى سورية، وكذلك زارتها بعض الشخصيات الرسمية ضمن وفود الإتحاد السوفياتي مثل (رئيس جمهورية قباردا بلقاريا حينذاك ملياخو ونابيه (محمد شكه حشاه)، ورئيس وزرائها) ميخائيل مامكغ (و) عليم كوشوقه) الأديب الكبير الذي كان رئيساً لإتحاد كتاب روسيا الذي نظم للقصائد الرائعة متغنياً بممشق والحضارة العربية، كما زرات سورية في عام ١٩٧٧ - فرقة كيردينكا، برئاسة وناسة وزير الثقافة (جلاخستان أفندي) وقدمت عروضها على مسرح معرض دمشق الدولي، حيث أنشئت المطربة الكبيرة (نتاشا غساشا) أناشيد البطولة والفرح باللغة العربية (سورية يا حبيبتي...).

وهؤلاء جميعاً عبروا عن إعجابهم وتقديرهم وحُبهم العميق، للشعب العربي السوري، وقيادته الحكيمة. وفي هذه الفترة، ظهرت على الساحة الأدبية في سورية، ترجمات للأدب القبرديني (الشركسي) باللغة العربية، حيث أصدر الأستاذ ممدوح قوموق رواية (بانتظار الفجر) للأديب عليم كوشوقه ومسرحية (ترغه تاره) للأديب أوتيج بوريس، وملامح النارئين، وقصة ستناي، كما أصدر الأستاذ وديع بشكور رواية (الأم الثانية) للأديب تيونه حكيم، والدكتور محي الدين سليق أصدر رواية (آخر الراحلين) للأديب الأبخازي الكبير باغرات شنكو به.

وبدأ الطلاب العرب، يفدون إلى جامعة نالتشك منذ عام ١٩٦٦، التي قدمت لهم المنح الدراسية لدراسة مختلف العلوم وخاصة الطب والهندسة والزراعة، حيث

تخرج منها حتى الآن (٣٢٢) طالباً عربياً وما زال يدرس في جامعة نالتشك ومعاهدها العلمية (١٧٤) طالبا عربياً.

وفي أعقاب التغيرات الدراماتيكية التي جرت في الإتحاد السوفياتي، انفتحت أمام الشعب القبرديني، أفاق رحبة، وبرزت مهام جديدة، وتوفرت الظروف لتعزيز الوشائج الروحية والثقافية مع الشعب العربي، ومد جسور التواصل والتفاعل معها.

وبرزت هذه المشاعر والأفكار والأمال واضحة وعميقة، في الكلمة التي ألقاها رئيس جمهورية قبردينا- بلقاريا (الشركسية) فاليري كوكوه في المؤتمر الشركسي العالمي الذي عقد في مدينة نالتشك ١٩ أيار ١٩٩١ حينما قال (.. أيها الأخوة إن هذا اللقاء اليوم يذكرنا بالتاريخ المشعب بالذكريات الجميلة، والأحداث المريرة، وأعتقد بأن التفكير في مهمات هذا اللقاء، والأمنيات المعقودة عليه، ولكي تكون أمور الأديغة (الشركس) في المستقبل أفضل، يجب علينا أن نتذكر الماضي، وأن لا ننسى أبداً تلك الشعوب التي مدت يد العون لأكثرية شعبنا الذي أصبح بلا مأوى، أولئك الناس الذين قدموا الخبز والماء والمأوى لأجدادنا، نعم الذين أنقذوا أجدادكم من الموت المحقق، وأخص بالذكر الشعب العربي. ولولا مساعداتهم لأصبحت أمور إخوتنا أسوأ بكثير عما هي عليه الآن، لذا أتوجه إليكم أنتم ممثلي شعبنا في البلدان المختلفة المضيغة لأجدادكم ولكم وأرجوكم أن تنقلوا إلى تلك الشعوب التي تعيشون معها كإخوة أعزاء بأننا لم ننس... ولن ننسى.. أبداً تلك الأعمال الطيبة التي قاموا بها تجاه أجدادنا في تلك الأيام.. وشاركوهم في حياتهم، ورحبوا بهم في بلادهم، إن شعبنا سيذكر هذا دائماً وأبداً بكل المحبة والعرفان بالجميل.. لذا أدعوكم للمساهمة في ترسيخ وتعزيز علاقات المحبة والتعاون (اقتصاديًا وثقافيًا) بين الشعوب لتصبح هذه الدنيا أكثر جمالاً ولتزدهر حياة شعبنا مع الشعوب الأخرى، إننا لا نريد أن نسيء لأحد كائنًا من كان، وخاصة الدولة والشعوب التي تعيش فيها أخوتنا الشركاسة (الأديغة) بل تحترم كل قوانينها، وكل مائريده هو تعزيز الأخوة الاحترام المتبادل بين شعوبنا، وسنكون أمناء لتقاليد شعبنا القديمة، قدم الدهر في الوفاء والعرفان بالجميل والاحترام المتبادل بين الشعوب).

ومنذ عام ١٩٩٢ بدأت الوفود الطلابية تصل إلى سورية والبلاد العربية

لدراسة العلوم الدينية واللغة العربية، كما نشطت الحركة السياحية والتجارية بين البلدين حتى بلغت عدة رحلات جوية أسبوعياً، وتواترت أخبار الأدب والأدباء العرب في الصحافة الأدبية القبردينية، حيث أصدر الكاتب والصحفي (محمد خضره) كتابين تحدث فيهما، عن زيارته إلى سورية والبلاد العربية والحركة الثقافية وترجم بعض نتاجات الأدباء والشعراء إلى اللغة الشركسية. كما ترجم الكاتب بلغركاشف القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة إلى اللغة القبردينية عن الروسية.

وفي صيف عام ١٩٩٣ زارت فرقة كبردينكا للرقص الشعبي سورية، لتقديم عروضها على مسرح معرض دمشق الدولي وبصرى، ووقعت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية والسيد رسلان فيرا وزير الثقافة القبرديني اتفاقية للتعاون الثقافي بين البلدين. وجرى لقاء بين وزير الثقافة رسلان فيرا رئيس نادي الفروسية في قباردا- بلقاريا والفارس الذهبي باسل الأسد الذي وجه دعوة لفرسان قبردينا للمشاركة في مهرجان الفروسية الذي يقام في مدينة اللاذقية وعندما وقعت الفاجعة... عم الحزن والأسى قلوب الشعب الشركسي في القفقاس، على فقيد الأمة والفروسية الفارس الذهبي باسل الأسد. وانطلاقاً من الأخوة الأبدية بين الشعب العربي والشعب الشركسي وتعبيراً عن مشاعر الحزن والأسى في جمهورية قباردا- بلقاريا شعباً وحكومة، انطلقت كوكبة من فرسان قبردينا من ستاد مدينة نالتشك يوم ١٩٩٤/٥/٢١ حيث كان الشعب القبرديني يحيى ذكرى شهدائه، لزيارة مثنى الشهيد الباسل في مدينة القرداحة قاطعة الجبال والوهاد والمسهول عبر آلاف الكيلومترات، لتقديم واجب العزاء إلى الشعب السوري، ولسيادة الرئيس حافظ الأسد، باسم شعب وقادة جمهورية قباردا- بلقاريا، ووصلت كوكبة فرسان قبردينا إلى مدينة القرداحة صباح ١٩٩٤/٦/٢٥ وزارت ضريح الفارس الذهبي، وقرأت الفاتحة على روحه الطاهرة، وتقبل الدكتور بشار الأسد أحر التعازي بفقيد الوطن والأمة، وأنهى على الجهود الكبيرة التي بذلها فرسان قبردينا للوصول إلى سورية على خيولهم، فقطعوا مسافات شاسعة برحلة الوفاء للفارس الذهبي، بعد ذلك قدم السيد وزير الثقافة القبرديني جواداً أصيلاً من نوع (كبردين) والذي تجري في عروقه دماء الحصان العربي اللقيم، هدية إلى نادي باسل الأسد للرماية والفروسية، وذلك تعبيراً عن ولاء فرسان قبردينا للفقيد الفارس

الباسل، وعربون صداقة ومحبة للشعب العربي السوري، كما قدم الدكتور بشار الأسد إلى الوزير الضيف، هدية تذكارية هي عبارة عن سيف دمشقي، نقش على نصله عبارات للسيد الرئيس حافظ الأسد عن الخيل والفروسية.

وفي ١٩٩٤/١٠/٥ زار وفد إتحاد الكتاب العرب في سورية برئاسة الدكتور علي عقله عرسان رئيس الإتحاد وعضوية الدكتورة ناديا خوست والأديب ميخائيل عيد مدينة نالتشك عاصمة جمهورية قبردينا- بلقاريا، تلبية للدعوة التي وجهت لهم للمشاركة في الاحتفال الكبير بذكرى مرور ٢٠٠ عام على ميلاد الكاتب المفكر الشركسي الكبير شورا نوغمو، حيث ألقى الدكتور علي عقله عرسان كلمة هامة تحدث فيها عن أهمية التواصل والتفاعل الثقافي بين الشعوب ودور الأدب والأدباء في تعزيز وتطوير علاقات الصداقة والمحبة بين الشعوب، كما وقعت هناك اتفاقية للتعاون بين إتحاد الكتاب القبرديني وإتحاد الكتاب في سورية، وزار الوفد أيضاً جمهورية أبخازيا ووقعت اتفاقية للتعاون بين الإتحادين.

وفي ١٩٩٥/١١/٢٠ قام بزيارة سورية وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية في جمهورية قبردينا- بلقاريا حيث أجرى العديد من اللقاءات مع المسؤولين السوريين والمفكرين الاقتصاديين، لتعزيز أواصر الصداقة وتطوير العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدين.

وفي ١٩٩٦/٤/١٥ قام وفد من إتحاد كتاب قبردينا- بلقاريا بزيارة سورية، بدعوة من إتحاد الكتاب العرب في سورية وضم الوفد الدكتور لقمان لييه المستشار الثقافي لرئيس مجلس الوزراء والكاتب الكبير نالو أحمد خان والشاعر حسن حزيل رئيس إتحاد الكتاب حيث تجول في ربوع سورية وأجرى عدداً من اللقاءات الأدبية والرسمية.

وفي أيار ١٩٩٦ سافر وفد من إتحاد الكتاب العرب في سورية الأديبان (صباحي الجابي- وليد الحافظ) إلى مدينة نالتشك، بدعوة من إتحاد كتاب جمهورية قبردينا- بلقاريا وأقاما في ربوعها لمدة أسبوع. وفي آذار ١٩٩٧ زار سورية الدكتور بارسبي قره مرزه رئيس جامعة نالتشك والسيد أناتولي قوزوقوه مدير العلاقات العامة والتقى الوفد مع الدكتور عبد الغني ماء الباراد رئيس جامعة دمشق والدكتور حامد خليل عميد كلية الآداب، كذلك التقى الوفد مع الدكتور محمد علي

حورية رئيس جامعة حلب، وجرى حوار وذي بين الطرفين وعبرا عن رغبتهما في إقامة علاقات صداقة وتعاون بين جامعة دمشق وجامعة نالتشك.

إن هذه العلاقات الثقافية التي بدأت تتعزز بين دمشق ونالتشك في أجواء الصداقة التاريخية ودفء مشاعر المحبة والاحترام المتبادل، تعتبر جسراً حضارياً هاماً، يمكن أن تتجذر وتتعزيز في المستقبل، لتعبر عليها أفضل العلاقات الثقافية والاقتصادية بين الشعبين، وستكون كذلك لمصلحة كافة شعوب شمال القفّاس والعالم العربي.



مراجع البحث

- ١- تاريخ القبردي: مجموعة من المؤلفين ١٩٥٩ بالقبردينيه.
- ٢- موجز تاريخ الشركس (الأديغه): تأليف شورا بكموزا نوغمو، ترجمه إلى الألمانية أدولف برجه عام ١٨٦٦، تعريب الدكتور شوكت المفتي.
- ٣- المهاجرون: تأليف الكاتب الأبخازي زازاريا بالروسية.
- ٤- الجنود والأعصان: تأليف نالوزاور بالقبردينيه.
- ٥- المغتربون: تأليف الدكتور حسن دومان بالقبردينيه.
- ٦- العادات الشركسية وهذا الزمان: تأليف مجي ميخائيل بالقبردينيه.
- ١٠- الممالك الأديغة: تأليف محمد خضرة بالقبردينيه.
- ١١- الجبليون: تأليف شورتن اسكري بالقبردينيه.
- ١٢- مجلة (أوشحه ماهو): بالقبردينيه /عدة أعداد /مجلة ثقافية دورية تصدر في مدينة نالتشك.
- ١٣- تاريخ شعب القبردي: تأليف قوداش فلاديسير ١٩١٣ بالروسية، نشرت في القبردينيه في مجلة أوشحه ماهو.
- ١٤- جريدة (شن غوازه) بالقبردينيه تصدر في مدينة نالتشك (دورية).
- ١٥- جريدة (أديغه بساتله): بالقبردينيه تصدر في مدينة نالتشك.
- ١٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.
- ١٧- يوميات جيمس بيل في القفقاس: أعوام ١٨٣٧-١٨٣٩ بالإنكليزية.
- ١٨- أصل الشركس: تأليف أيتك نامتوق تعريب د. فؤاد يحيي توغوج.
- ١٩- احتلال الروس للقوقاز: تأليف جون بنلي ترجم عن الإنكليزية.
- ٢٠- إيداء الشركسة: تأليف علي حسن قاسوم وحسن علي قاسوم ترجمة د. عمر شايخ.
- ٢١- فك رموز الكتابات القديمة في القفقاس: تأليف غ.ن تورشا نينوف. ترجمة الدكتور عمر شايخ.
- ٢٢- تهجير الشركسة: تأليف نهاد برزج ، ترجمة عصام الحسن حتى.



البلد الجائم عند سفوح ايلبروس، وأدبه

بقلم، عضو اتحاد كتاب روسيا

الدكتور، في علوم اللغة والأدب آدم غوتوف

■ ترجمه عن الروسية، عدنان جاموس ■

أيها القارئ العربي الكريم! نضع بين يديك منتخبات من أعمال أدبية لكتاب من بلد ليس لك به معرفة واسعة هو "كباردا" أملين أن تثير لديك هذه الأشعار والقصص، وكذلك هذا الحديث الموجز الذي يسبقها، الاهتمام بشعبنا غير الكبير عددياً، وعساها أن تكون مصدر متعة لك أيضاً. إن فكرة إقامة علاقات بين منظعتي الكتاب في سورية وكاباردا تعود لرئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية السيد علي عقتلة عرمان المحترم، ويسرنا أن نقتنم هذه الفرصة كي نجر له عن أخلص آيات العرفان أملين أن تعود مبادرته النبيلة بالخير على كلا الجانبين.

...

الكابارديون هم فرع إثني من الأديغيين أو الشركس كما يسمونهم في أغلب الأحيان. وكلمة "أديغ" هي الاسم الذاتي الذي يطلقه شعبنا على نفسه، أما الشعوب المجاورة والبعيدة فيسموننا (الشركس). وقد سكن أسلافنا منذ أقدم العصور هذه البقعة المعطاء الواقعة في شمالي وشمال- غربي القفقاس. ويفترض العلماء، بدلالة اللغة وكثير من عناصر الثقافة، أن ثمة صلة تربط بين الشركس والشعب الحثي القديم الذي كان يسكن آسيا الصغرى. ويدل على هذا كل من المعطيات اللغوية ونتائج التنقيبات الأثرية.

تقع كاباردا في الجزء الشرقي من منطقة شركاسيا التاريخية، وتعتبر المركز الجغرافي لشمالي القفقاس، وهي تشكل مع الشعب البلكاري القليل العدد

الذي تنتمي لغته إلى مجموعة اللغات التوركية جمهورية (كاباردينو- بالقاريا)، وهي إحدى الوحدات الإدارية- القومية في الإتحاد الروسي (روسيا الاتحادية) وتبلغ مساحة الجمهورية (١٢٥٠٠) كم^٢، ويقارب عدد سكانها (٨٠٠) ألف نسمة نصفهم تقريباً من الكابارديين، ومنهم (٨٢) ألفاً من البلكاريين، والباقيون من الروس والأوسيتيين وقوميات أخرى. وتقع ضمن أراضي هذه الجمهورية أعلى قمم جبال القفقاس، وبينها أعلى قمة في أوروبا وهي قمة جبل إيلبروس التي يبلغ ارتفاعها ٥٦٤١ م فوق سطح البحر. وبالإضافة إلى نالتشيك عاصمة الجمهورية (٢٥٠٠ ألف نسمة) هناك ست مدن غير كبيرة، وعشر بلدات من النموذج المدني وبضعة عشرات من القرى. ويعمل سكان الريف تقليدياً في الزراعة وتربية الماشية. وهم يزرعون أنواعاً عديدة من الحبوب (القمح، والذرة، والدخن الخ...) ومن الأشجار المثمرة (التفاح، والكمثرى، والخوخ، والكرز وسواها) وتشتهر الخيول الكاباردية في العالم أجمع. ويربي السكان الضأن والماعز في المروج الألبية الملائمة لذلك، كما تجد الخيول والأبقار في هذه المروج مرتعاً خصباً لها في موسم الصيف.

أما في المدن فقد تطورت فروع الصناعات الغذائية والخفيفة وصناعة آلات الورشات والآليات وأجهزة اللاسلكي والإلكترونيات، وتطور التصنيع السياحي إلى حد بعيد: فالجبال ذات المناظر الخلابة والمناخ الصحي، والأماكن الملائمة للاستجمام تجتذب آلاف السياح. وقد خصص جزء من مدينة نالتشيك ليكون منطقة للمنتجات والمصحات. وتزخر المناطق الجبلية والبقاع القريبة منها ببيئها المعدنية، كما توجد في البلاد أماكن مخصصة للاستشفاء بالوحول العلاجية. أما عالم الحيوان هنا فهو غني ومتنوع: إذ يمكنك أن تجد هنا الذئب والثعلب والدب والقط البري وابن أوى والوشق، ويعيش بين صخور الجبال الشاهقة بعيداً عن أعين الناس، الماعز الجبلي ذو البنية المتناسقة الرشيق، والقرون البديعة الرائعة، وفي الأعالي تحوم العقبان فوق القمم المغطاة بالثلوج الدائمة.

تقول الأسطورة إن الخالق كان قد اختار القفقاس لنفسه كأحب مكان إليه، ولكن بما أن الشرس أعجبه جداً فقد وهبهم إياه. وكان من شأن الأرض الخصبة، والمناخ الصحي، والغابات الرائعة التي تغطي سفوح الجبال، والسهول

الرحبة أن تجتذب إليها منذ القدم أنظار العديد من البشر. وقد شهدت هذه البقعة في مختلف العصور كثيراً من العهود التي سيطرت فيها أقوام مختلفة مثل: السكيف، والهن، واليونان، والفرس، والتتر - المغول. وجحافل أتيل، وبايكان خان، وتيمورلنك. وانتهت المنافسة الطويلة الأمد بين الإمبراطوريتين العثمانية والروسية في القرن التاسع عشر إلى تثبيت أركان الحكم الروسي في القفاس نهائياً. وكان قد سبق ذلك احتدام حرب دموية طويلة الأمد خاضها الشركس وشعوب القفاس الأخرى في سبيل الاستقلال، وكان من نتائجها إزهاق أرواح مئات الألوف من السكان الأمنيين، ونزوح أعداد كبيرة من الناس إلى المناطق التي تقوم فيها الآن دول تركيا وسورية والأردن وسواها. وقد ترافق هذا النزوح، كأني نزوح جماعي آخر، بكوارث مرعبة، وجائحات وأهوال أدت إلى إفناء آلاف مؤلفة من البشر. وفي الوقت الحالي نجد أن كل أربعة من أصل خمسة من أبناء الشعب الشركسي يعيشون خارج حدود وطنهم التاريخي. وقد آوت الأرض السورية عدداً غير قليل منهم.

ويشكل الشركس الذين بقوا في القفاس ثلاثة تجمعات أساسية مترامية، وهي: الأديغيون في الغرب، ويسكنون جمهورية أديغيا، والشركس (١) في أواسط ما أمام القفاس، والكابارديون الذين يعيشون في جمهورية كارتافينو - شركاسيا وجمهورية كاباردينو - بالقاريا. وقد دخلت منطقة إقامتهم ضمن وحدات إدارية مختلفة في الدولة الروسية، مما لم يكن يساعد بحال من الأحوال على إقامة صلات دائمة وثابتة فيما بينهم. وعمل هذا الوضع على هدم الرابطة الثقافية القديمة التي كانت تجمعهم.

ومن المجالات التي تجلى فيها هذا الانفصال الإنساني الثقافي الإبداع الفني الكلامي.

فعلى مشارف القرن العشرين أدت التجزئة الجغرافية والإدارية للشعب

١ - كلمة (شركس) التي تطلق في الألب، حسب العرف، على جميع الأديغيين أصبحت هي التسمية الإنشائية الرسمية لممثلي إحدى هذه المجموعات الثلاث، دون أن تفقد في الوقت نفسه معناها الجمعي السابق. وهذه المجموعة مفصولة جغرافياً فقط، أما من حيث اللغة والثقافة فهي، في الحقيقة، لا تختلف في أي شيء عن الكابارديين.

الذي كان يشكل في الماضي وحدة متماسكة إلى ظهور لغتين أدبيتين: اللغة الأديغية الغربية أو ما يسمى الآن: اللغة الأديغية، واللغة الأديغية الشرقية أو ما يسمى الآن: اللغة الكاباردية-الشركسية. ومن المتعارف عليه اعتبار الفولكلور التقليدي (مثلاً الشعر الطقوسي، والملاحم البطولية، والأغاني والحكايات التاريخية-البطولية، والشعر الغنائي (الوجداني) (الشعبي) فولكلورا أديغياً عاماً من حيث الأساس، فالقصص القديمة التي تتحدث عن الجبابرة الذين يسمون (النارتيين) منتشرة بين جميع فئات الأديغيين.

والملاحم النارتي هي مجموعة كبيرة من قصص نثرية وشعرية تدور حول موضوعات ميثولوجية مغرقة في القدم. وتروى فيها حوادث خيالية (مثل: الحصول على النار، واستعادة البذرة التي اختطفها الوحش، وصنع الأدوات الأولى، وخطبة الجبابرة المرتبطة بامتحانات قاسية)، كما تظهر فيها شخوص خيالية كثيرة (أحصنة تتكلم وتطير، وعالقة متوحشون، وأقزام). لكن مهما بدت القصص النارتي بعيدة عن الواقع فإنها كانت تعبر قبل كل شيء عن تصورات الواقع الحقيقي كانت موجودة في أذهان الناس في الماضي القديم، وتعبّر عن مفهوم جمال الكلام، وجمال السرد، وعن تصورات أخلاقية وسلوكية لدى الناس القدماء.

وهناك نوع آخر من الإبداع الفولكلوري لا يقل عراقة عن هذه القصص من حيث طبيعته هو التمنيات الطيبة المصوغة شعراً هي ما يسميه الأديغيون (غوخ). فكل عمل يبدأ بالتمنيات الطيبة كما هو الحال، على الأرجح، لدى جميع شعوب العالم. وهذه التمنيات كانت تصاحب جميع الأفعال من أصغرها إلى أكبرها: من اللقاء العارض بين شخصين لا يعرف أحدهما الآخر إلى الأمور العامة الكبرى (كالاشتباك في معركة، أو إقامة احتفال شعبي عام، أو الخروج إلى الحقل للفلاحة الخ..). وأغلب الظن أن الناس كانوا يؤمنون بالقوة السحرية للكلمات وما يصاحبها من أفعال، ولذلك كانوا يحرصون على أن تكون عبارات التمنيات الطيبة عميقة المعنى وبديعة المبنى. وبذا كان الكلام يكتسب إلى جانب وظيفته النفعية وظيفة جمالية.

وقد غدت هذه الوظيفة في الأعمال الشعرية الشفهية المتأخرة تكتسب قدراً متزايداً من الأهمية إلى أن أصبحت هي الوظيفة الغالبة. لقد ظل الشريك في

مرحلة العلاقات الإقطاعية المبكرة- مع بروز وأضح لسمات الفروسية- على مدى ربح طويل من الزمن يمتد تقريباً بين القرن الرابع والقرن الثامن عشر، واتسمت هذه الحقبة بتقدير الكلام البليغ المنق والسلوك الفروسي، مما كان له شأن غير قليل في تطوير أساليب التعبير الكلامي واللغة الأدبية الرفيعة.

ومن أوساط كل شعب يبرز، عادة، أشخاص يمتلكون ناصية البلاغة، ويجيدون نظم الشعر، ويتفوقون في أداء الأغاني. وأمثال هؤلاء الأشخاص يسميهم الشركس (جغواكو) مما يعني حرفياً (اللاعب) أو (اللعيب) وكان هؤلاء من المؤلفين والمودين المحترفين سواء لأعمالهم بالذات أو للأعمال الشعبية. كانوا يؤلفون الأغاني والأشعار الشفهية، ويغنونها أو يلقونها، ويرقصون ويعزفون على الآلات الموسيقية. وفي الحقبة التي لم يكن فيها الشركس يكتبون بلغتهم الأم (ظل الشركس زمناً طويلاً يستخدمون في الكتابة اللغة العربية أو التركية) كانوا يرفعون من شأن الثقافة الشعرية الشفهية إلى الدرجة التي جعلت هذه الثقافة تكتسب السمات الجنسية للأدب المكتوب. والسمة الأساسية لهذا الإبداع: الفردية البارزة في أسلوب التعبير. وكمثال نموذجي على هذه الموهبة يمكن أن نذكر لياشا أغنوكو (١٨٥٤-١٩١٨) وببكمورزا باتشيف (١٨٥٧-١٩٣٦) اللذين تجمع بينهما المعرفة العميقة للتقاليد الشعبية، والفردية البارزة بوضوح في أسلوب التعبير الذي يخالف أصول الشعرية الشعبية، ولكن مع ذلك فإن هذين المبدعين كانا مختلفين من حيث المصير والبنية النفسية، مما انعكس في إبداعهما. فلياشا أغنوكو كان شاعراً كرنفالياً، وكان حريصاً على حضور الاحتفالات والأعياد المختلفة سواء العائلية أو الاجتماعية، حيث كان يضطلع بدور المنصرف والمنظم لمختلف أنواع التسلية والألعاب المرحية، وكان ماهراً جداً في الارتجال والابتكار ومفعماً بحب الحياة والتفاؤل، ولكن هذا لم يكن يمنعه من الوصول في أفضل أعماله الإبداعية إلى عمق فلسفي مدهش، كما يبدو واضحاً في تأملاته الشعرية التي يتحدث فيها عن الحياة:

نحن نسير في ظل عناية الله القادر على كل شيء

وفراق الأرض التي نسير عليها يؤلمان!

إيه، أيها العالم القديم الذي يشبه شهد الصل الطيب

إنهم يحرموننا منك قبل أن ندوق عسلك!

لديك الكثير من أنواع الشراب اللذيذ
ولديك من النماء الجميلات أكثر
وحياة الإنسان ليست سوى خطوة بالنسبة إليك
وأنا لو منحت ألف خطوة لما كان هذا كثيراً بالنسبة إلي
وهاكم تعبيرة المبتكر عن النعمة البشرية:
بيكي الذي لا يجد ما يأكله
وبيكي الذي يحكم العالم كله
من عيون كليهما تسيل الدموع
وإذا تأملتها وجدتها:
مالحة عند كليهما
وصافية عند كليهما
وتعكس الشمس بطريقة واحدة
لا الشمس تحففها
ولا البحر يذيقها!

وفي بعض الأعمال ترتقي الموهبة المتوهجة لدى هذا الـ (جغواكوا) إلى
قمم شاهقة في إبداع صور شعرية متألقة وتأملات فلسفية عميقة يندر وجود ما
يضاهيها في الشعر العالمي: فالأزهار على شجرة الكمثرى: آلاف من الفراشات
البيضاء، والشجرة نفسها: زوبعة. إنه قادر على أن يرى الشيء نفسه بعيون ذوات
مختلفة: النهر في نظر الجبل: ابنته^(١) الأثيرة، وفي نظر ربه الأنهار: حليب الأم،
وفي نظر عابر السبيل المتعب: كأس مترعة بالشراب، وفي نظر السمكة التي
تسكنه: جنة الفردوس.

إن الرغبة الجارفة في إقامة العدل، والحب الجامح للحياة لا يندر أن ينتزعا
من صدره كلمات متمردة حول عدم عدالة الخالق، ولكن الشاعر لا يلبث أن

^١ - النهر والجبل بلروسية (التي تمت الترجمة منها): اسمان مؤنثان (المرجم).

يرتضي بمشيتته وهو يرى تنوع الحياة وسخاء الأرض.

أما شعر بيكمورزا باتشيف فإنه يتسم كذلك بروح الابتكار الذي يبعده عن الشبه بالشعر الشعبي الشفهي التقليدي. ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا الشاعر بالذات هو أول من شعر بضرورة كتابة ما يبدعه: وقد تعلم بنفسه الكتابة العربية ولاءم بين حروف الأبجدية العربية ولغته الأم وبدأ يكتب أشعاره. وكان هذا انتقالاً نوعياً بالشعر الشركسي من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية. ومثل هذه القفزة التي تحققت بطريقة ارتقائية يندر جداً أن نشهد لها مثيلاً في تاريخ الثقافة العالمية. لقد كان باتشيف يتميز من أغنوكو ببنيته الذهنية الميالة إلى التفكير العميق، لقد كان شديد الاهتمام بالعلوم الدقيقة متعمقاً في الاطلاع على الفلك والرياضيات وقد اشتهر عنه تقيده الصارم بأداب السلوك وسرعة استجابته شعرياً للأحداث الاجتماعية الهامة. وكان شاعراً يجمع في نفسه سمات الداعية، والمفكر، ومجسد الإحساس بالرائع.

وقد انتشرت بين الناس أساطير تتحدث عن الكيفية التي كان يستخدم بها أحياناً موهبته الشعرية. فقد أثيرى مرة للدفاع عن فلاح مظلوم، مهدداً بأنه سيؤلف أغنية بهذه المناسبة مما أجبر الأمير الغني على أن يعيد للفلاح حقه كاملاً. وفي مرة أخرى عندما برزت أمام أهالي قريته مشكلة النزوح إلى الإمبراطورية التركية سافر بنفسه إلى تركيا، وشاهد كيف يعيش الشركس هناك وعاد ليروي الحقيقة لأبناء قريته في أشعاره، وأقنعهم بعدم ترك موطنهم أياً كانت الظروف ومهما تعاضلت الأخطار التي تهددهم. وقد استقبل الشاعر الثورة في روسيا بالتهليل وربط بها عملية انبعاث شعبه من جديد.

ومن السمات المميزة لإبداع باتشيف جمعه في شعره بين الأمور الراحنة الملحة والتأملات العميقة. فهو يتحدث في شعره بدرجة متساوية من العاطفة والإخلاص عن مأساة جاره الفلاح وعن قدرة الخالق الذي أبدع عالماً متنوعاً. ويبدى القدر نفسه من الاهتمام بمصير المجتمع بأسره في أوقات الاتعاطف الحاسم في حياة شعبه، وبمعاناة فلاحه عجوز طاعنة في السن. وهو مرفه الإحساس بإزاء كل كائن حي، وإزاء الطبيعة.

وقد أصبحت تربة الشعر الكاباردي التي مهدها إبداع أغنوكو وباتشيف

ملائمة لظاهرة جديدة نوعياً هي ترسيخ التقاليد الأدبية الكتابية الصحيحة. وكان الشخص ذو الأهمية الكبرى على هذا الصعيد هو علي شوغينتسوكوف.

كان المصير الذي لاقاه هذا الشخص مأساوياً. ولكنه كان في الوقت نفسه سعيداً. وقد قدر له أن يكون المبادر إلى إرساء أسس الأشكال الكتابية الكلاسيكية في الشعر الكاباردي فأصبح بذلك مؤسس الأدب الوطني المعاصر. وقد أتاحت له معرفته الجيدة بالفنون الشعرية الشرقية والأوربية (كان قد درس في أستنبول، وتعلم العربية والتركية والفرنسية) واتقانه الرائع لأساليب الإبداع الشعري بلغته الأم استطاع أن يجمع بين الفن الشعري الأديغي والفن الشعري العالمي الكلاسيكي. وتجلت موهبته الشعرية بأبهى مظاهرها في أعماله الغنائية- الملحمية الكبرى: إذ أبدعت ريشته عدداً من القصائد، ورواية شعرية، ومسرحية شعرية لم تكتمل. وقد قضى حياته القصيرة كلها مراقباً من قبل أجهزة القمع المطلقة السيطرة لدى السلطات البلشفية: فكونه قد درس في معهد ديني، ثم تابع دراسته في أستنبول شكل مبرراً كافياً لإدراج اسم أفضل شعراء كاباردا في قائمة الأشخاص المشبوهين سياسياً. كما أن علواً كان ببلبليته إنساناً صريحاً لا يطبق الضبر على الظلم ولذا لم يكن على وفاق مع السلطة، مما كان يعطي المبررات لتأكيد رأي الذين يعتبرونه شخصاً لا يضمن الولاء للبلاشفة؛ ونتيجة لذلك أرسل الشاعر في عام ١٩٤١ إلى جبهة القتال في الحرب التي كانت قد بدأت لتوها ضمن مجموعة من الأشخاص الذين كانت أجهزة السلطة تسميهم، بعبارة لطيفة، (غير مأمونين). وقد طُوق القطار الذي كان ينقلهم، ووقعوا في الأسر، حتى قبل أن يتمكنوا من الإمساك بأسلحتهم. ولكن هنا بالذات تجلت وطنية الشاعر الحقيقية وعزيمته الصامدة بكل أبعادها. فقد عزف الفاشست أن لديهم في الأسر شخصاً ذا موهبة فذة، وقرروا استماتته إلى جانبهم. فعرضوا عليه مغريات كثيرة لقاء أن يخدمهم بموهبته. ولكن عروضهم كلها لم تسفر عن شيء: فقد رفض علي رفضاً قاطعاً التعاون مع أولئك الذين يجلبون إلى أرضه الموت والدمار. وعندما رأى الفاشست أنهم لن يحصلوا منه على شيء باللين والترغيب عمدوا إلى ضربه وتجويعه وتذنيه بمختلف الوسائل والأساليب. وأخيراً، عندما عجزوا عن الحصول من الشاعر الذي لم تهن عزيمته على أي شيء ألقوا به عارياً في زنزانة حجرية باردة حيث لقي حتفه.

لقد انعكست الظروف السياسية التي كانت قائمة آنذاك وأوضاع الشاعر نفسه في إبداعه، بحيث أنه وجد نفسه ملزماً خلال حقبة العشرينيات- الثلاثينيات بأن يكتب كثيراً عن الموضوعات اليومية التي لا علاقة لها بالأدب الرفيع. فالشعر الغنائي (الوجداني) الحقيقي لم يكن محبذاً من قبل القادة البلاشفة في العقود الأولى من قيام السلطة السوفييتية، وكان هؤلاء القادة يطالبون بالاعتصار على كتابة أعمال تتغنى بالتغييرات التي يحققونها، ولكن الشاعر الكبير لم يكن بمقدوره أن يرضى بهذا الدور التابع، وقد أبدع قلمه عدداً غير قليل من روائع الأدب الفني الوطني الرفيع.

وكان هذا الشاعر هو أول من أدخل القافية إلى الشعر الكاباردي وثبت أوزان الأبحر الشعرية الكلاسيكية ووسع المنظومة الصورية التعبيرية وأغناها. ومن أكبر الإنجازات التي حققها علي في تطوير الشعر الأدبي إبداعاته التجديدية في مجال التنظيم الصوتي الشديد الثراء.

ومما يدعو للأسف أن هذا الجانب بالذات في فن الشعر يصعب وصفه بلغة أخرى، ولكن مع ذلك لنحاول أن نثبت صحة ما ذهبنا إليه وذلك بتحليلنا بعض الأبيات الشعرية التي يستهل بها الشاعر قصيدته (ابتعد عن العتبة) التي يتحدث فيها عن مصير أرملة فقيرة. (٣)

ولنترجم الآن البيتين الأولين ترجمة حرفية:

الطقس مكفهر، الريح النفاذة

تحمل الثلج أمواجاً.

٣ - يورد الكاتب بعد ذلك أربعة أبيات باللغة الكبلادية- الشركسية مكتوبة بحروف مستمدة من الأبجدية الروسية، ثم يتحدث للقارئ العربي عن بعض خصائص لفظ الحروف باللغة الكبلادية- الشركسية والتناغم فيما بينها وكيف يعبر الشاعر بموسيقى اللفظ وجرس الحروف عن المعاني التي تتضمنها الكلمات. كما أن البحر الذي اختاره الشاعر يساعد على قوة التعبير عن معنى، فالإيقاع الناتج عن تواتر الحروف المجهورة والمهموسة والسائكة والمنبورة ضمن نظام معين يخلق في ذهن المستمع ونفسه صورة وانطباعاً يتطابقان مع المضمون المعبر عنه. ومن المستحسن بالطبع ترجمة كل ذلك بدقة إلى العربية للاختلاف بين الأبجديتين والأوزان الشعرية في اللغتين (المترجم)

إن جرس هذين البيتين في لغتهما الأصلية يبلغ درجة عالية من القوة التعبيرية تجعل المستمع يخمن معناهما دون ترجمة. في حين أن السبك اللفظي في البيتين التاليين لا يحتوي على ما يذكر بالموضوع سوى في كلمة واحدة. وهذا يدل على رهافة ذوق الشاعر ولباقته حيال القارئ: فلو كان هذا البيتان مليونين بالأصوات المؤثرة كسابقيهما لأحس القارئ بأن الشعر قد أصيب بالتخمة. لذا فإن الشاعر بعد أن أحدث الأثر المطلوب بالقدر الكافي انصرف إلى إنشاء صورة بصرية:

دون أن تترك وهدة ولا سهلاً-

كل شيء لفنة بكفن أبيض.

العالم الملفوف بكفن أبيض: هو عالم ميت، عالم مليء بالآلام والأحزان! إن النص لا يأتي على ذكر البرد والوحدة والانتظار القلق والموت، ولكن القارئ يتصور كل هذا عندما يقرأ الأبيات.

واستكمالاً للتوصيف نشير إلى أن التنظيم الصوتي في كامل المقطع الشعري يتم بخاصية أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه. فبعد قراءة الأبيات بصوت عال نكتشف فيها جرساً جميلاً مدهشاً متأثراً عن تجاور الكلمات: فكل كلمة تقريباً ما إن ينتهي التلفظ بها حتى تكون قد أعدت جهازاً لفظي الكلمة التي تليها، ويتحقق هذا بفضل التجانسات الصوتية والحركية الغنية.

لقد ارتقى الأدب الفتي الذي صلب عوده بفضل إبداع علي إلى مستوى عالٍ من الصنعة الفنية الخلاقة، وتجاوز المرحلة التي ينظر فيها إلى الأدب، باعتباره ظاهرة اجتماعية، على أنه مجرد أداة تستخدمها فئات معينة للتعبير عن أيديولوجيتها، واكتسب قيمته الخاصة القائمة بذاتها باعتباره ظاهرة جمالية.

ويمكن أن نذكر من بين الأسماء ورثة علي شوغينتسوكوف الروحيين صاحبيه وتلميذه الأصغر منه سناً عليم كيشوكوف (١٩١٤) وبيتال كواشيف الذي غادر عالمنا مبكراً (١٩٢٠-١٩٥٧).

وكلاهما درساً في نالتشيك خلال العشرينيات - الثلاثينيات ثم أكملتا دراستهما في موسكو، وكلاهما أظهر موهبة شعرية في وقت مبكر، وشاركا في

الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشست وأبدى شجاعة فائقة.

بيد أن مصير بيتال كواشيف كان أكثر تعقيداً ودرامية من مصير رفيقه. فأبوه كان قبل الثورة يمتلك متجرًا كبير، ولذا صنفه البلاشفة ضمن قائمة الطفيليين الذين يعيشون على حساب الشعب الكادح. وبالنسبة إلى ابن شخص كهذا كان يُغلق الكثير من الأبواب التي تفضي إلى دروب النجاح، وكأنت السلطات تنظر إلى بيتال نظرة ارتياب باعتباره ابن أحد أعداء الشعب. إلا أن الشجاعة الفائقة التي أبدىها الشاعر في جبهات القتال ضد الفاشست أزلت الشبهة عنه ووفرت له الشعور بالطمأنينة. بيد أن هذا الإنسان ذا الموهبة المدهشة لم يستطع حتى آخر أيام حياته أن يتخلص من الهاجم الذي كان يصور له أن من الضروري البرهنة باستمرار على ولائه للسلطة السوفييتية. وكان في هذا يشبه إلى حد ما عليا الخالد الذكر. فقد كتب حول موضوعات عابرة ليس لها قيمة من وجهة نظر الفن الشعري الرفيع، ولا أهمية لها سوى من وجهة النظر السياسية. ولكن مع ذلك فإن أمثال هذه الأعمال عندما تبدها قريحة إنسان موهوب لا بد لها من أن تنسم بأهمية فنية مستقلة ما. وقد أبدع الشاعر إلى جانب ذلك عددًا غير قليل من الأشعار الغنائية حقًا - عن الحب، وعن جوهر الوجود، وعن الوطن والطبيعة.

وتلفت النظر في هذا الصدد قصيدة برنامجية في إبداع الشاعر هي قصيدة (الوردة) التي كتبها، كما اعترف هو نفسه، متأثرًا بالشعر الشرقي. فصورة الزهرة الرائعة التي تنجح في حماية نفسها بأشواكها الحادة بتأثير التداعي مع الشاعر نفسه، ومع موهبته الشعرية التي تنسم بالروعة كالوردة نفسها والمدعوة لتزين العالم وتجميله. بيد أن بيتال نفسه لم يكن يملك أية شوكة، بل كان مكشوفًا أمام الضربات، وليس ثمة ما يحميه. وربما في هذا بالذات تكمن خصوصيته، فهو لم يكن قادرًا على حماية نفسه من أحد، وكان يمنح موهبته بكليتها لجميع الناس، وقد قضى نجه باكراً قبل أن يتمكن من فعل كثير مما كان قادرًا على فعله.

أما عليم كيشوكوف فقد كان يمثل في الثقافة الكاباردية، وعلى نطاق واسع في الثقافة الشركسية والقفقاسية بمجملها، ظاهرة عظيمة الأهمية، وقد صدر أول ديوان شعري له بعد الحرب في عام ١٩٤٦. وفي تلك الأونة كان شعب البلاد الشاسعة بأسره يعيش الاضطرابات التي أثارها لديه نتائج الحرب العالمية الثانية،

تلك الحرب التي تكبد فيها الإتحاد السوفييتي بالذات أكبر الخسائر، ولكن في الوقت نفسه كان له الفضل الأكبر في هزيمة الفاشية. وقد شارك الشاعر في الحرب منذ أيامها الأولى تقريباً. وكان كل ما هو مرتبط بالنصر قريباً إلى قلبه وعزيزاً على نفسه.

ومن مزايا شعر كيشوكوف وشعراء جيله أنهم أخذوا يبتعدون في إبداعاتهم شيئاً فشيئاً عن التصوير التأملي للواقع، ويوجدون وسائل تصويرية جديدة قادرة على التعبير عن أصاق العالم الداخلي للإنسان بكل تنوعه وغناه. فقد كان فن الشعر التقليدي من قبل يقوم على مثل عليا تتجسد في الغنائية الفروسية التي تتوجه بشكل سافر نحو تقويم الشخصية الإنسانية اجتماعياً. وقد بدأت مخالفة هذه القواعد فن الشعر منذ عهد أغنوكو وباتشيف، ولكن لم يتضح خط التوجه نحو فن الشعر الغنائي المعاصر ويترسخ نهائياً إلا في أفضل التصانيد التي أبدعتها ريشة كيشوكوف وكواشيف. ومن المثير للإهتمام أن الرؤيا الفنية لدى الشاعر تصوّر على نحو جديد حتى الموضوعات التقليدية: كحديث أحد المقاتلين إلى زميله قبيل المعركة:

ARCHIVE

حتى وإن لم أصِل إلى القمة

فستأثّق جزءاً من الطريق أمام الآخرين

وربما جرحني العدو.. أو هتّني

ولكن عليكم أن تتابعوا المسير إلى الأمام

ستبكيّني أمي وهي غارقة في بحر الحزن

ولكن ليكن ذلك فدية تحول دون بكاء سائر الأمهات

غداً سنذهب لنخوض معركة طاحنة

ولن يكون في انتظارنا سوى أحد اثنين:

فإما أن نستشهد أو نحرز النصر!

أما الآن فهيا أيها الصديق ندخن

هذه النهاية النثرية المفاجئة التي لا تتناسب البتة مع الروح العامة في

القصيدة تظهر بكل وضوح إلى أي حد أصبح الموت وفقدان الأحبة والتفاصيل المعيشية اليومية في حياة المقاتل العادية جداً في وعي الجندي. وهذا لا يحدث إلا في ظروف حرب مضنية طويلة الأمد.

وقد تفتحت موهبة كيشوكوف بكامل أبعادها في حقبة الستينيات- السبعينيات وأبدعت ريشته بضع عشرات من المجموعات الشعرية التي حققت نقلة جديدة هامة في أدب شعبنا، وذاعت شهرة الشاعر وأصبحت قصائده تترجم إلى العديد من لغات العالم.

كما تجلت موهبته النادرة في أعماله النثرية. ففي نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات بدأ بنشر فصول من روايته الأولى (الهلال الأخضر) التي يصور فيها أحداث بداية القرن العشرين في كازباردا.

وكان النثر الكاباردي في ذلك الوقت قد أحرز قسطاً لا يستهان به من النجاح.

ففي الثلاثينيات كان جانسوخ نالوف قد نشر قصته الرائعة (البداية) وكان هاتشيم تيونوف قد أصدر مجموعة أقاصيصه القصيرة. ثم ظهرت إلى النور فيما بعد قصة آدم شوغينتسوكوف الغنائية الرائعة (ربيع سفجات)، والكتب الأولى من رباعية اسكيربي شورتانوف الروائية (سكان الجبال) أي يمكننا الإشارة هنا إلى أن الفن في الاتحاد السوفييتي ككل كان في حقبة الأربعينيات- الخمسينيات واقعا تحت تأثير (نظرية اللامصراع) التي تطالب المبدعين بتصوير شخصيات فنية ذات بعد واحد دون الغوص عميقا في معاشات الأبطال النفسية المعقدة. وحتى في أعمال الكتاب الروس الذين خلفوا عمالقة كباراً من أمثال ليف تولستوي وفودور دوستويفسكي أصبح الأبطال مجرد صور مخططة تقوم بأفعال غير معقدة بدوافع نفسية عميقة، فما بالك بأدب الشعوب الصغيرة التي لم يكن لديها مثل ذلك الإرث الأدبي الغني؟! وكانت هذه الظاهرة مرتبطة من حيث الأساس بالزعم القائل إن المهمة الرئيسية في الأدب والفن هي المساعدة على بناء الحياة الجديدة، ومعنى ذلك أن الشخص الذي يقوم ببناء هذه الحياة يجب أن يكونوا إيجابيين في كل شيء، وبالتالي فإن خصومهم يجب أن يكونوا سلبيين في كل شيء. ونحن الآن عندما ننظر إلى هذه الموضوعات من قمة تصوراتنا المعاصرة يسهل علينا أن ندرك مدى

عبيثتها. ولكن في الخمسينيات كانت مخالفة مبادئ الإبداع التي ترسخت أركانها وتم الاعتراف بها رسمياً تتطلب موهبة كبيرة وشجاعة ليست أقل منها. وكان عليم كيشوكوف أحد أوائل الذين بدؤوا بمخالفة هذه المبادئ. فبطلا الرواية المركزيان: البلشفي اينال واللاحزبي كازغيري كلاهما شخص غير عادي ويجوز قدرات كبيرة. ولكن لكل منهما مناقبه ومثالبه التي كانت تزداد وضوحاً كلما ازداد وضعهما الاجتماعي ارتفاعاً. وكان يخيل إلى اينال أنه اهتدى إلى الطريق الصحيح الوحيد، ويعمل على تسجيل مبادئه في الحياة غير آبه بأراء الآخرين في الأساليب التي يتبعها. إنه يعجل في تنفيذ ما يريد تنفيذه، ولا يطبق أية مناقشات أو عدم فهم من قبل الآخرين. وينظر اينال إلى كل من يساوره الشك في صحة ما يفعله على أنه إما من فئة اللامباليين أو هو خصم محتمل، ويمكن أن يوصم فيما بعد بالصفة السيئة الذكر "عدو الشعب" وكان مصير الأشخاص الذي يوصمون بهذه التهمة إما الزج في السجن أو التصفية الجسدية.

لم يسبق لأحد في الأدب السوفييتي قبل كيشوكوف أن صور البلشفي على هذا النحو، كما لم يسبق أن صورت في الأدب شخصية خصم الخط البلشفي كما صورت شخصية كازغيري، الإنسان المثقف والشريف والمستقيم دائماً أمام نفسه وأمام الآخرين. إنه كإينال يتحرق رغبة في تغيير المجتمع وتطويره نحو الأحسن، ويناضل إلى جانب اينال في سبيل المثل العليا للثورة. ولكنه يستهجن أساليب العنف التي يحاول البلشفي اينال تطبيقها لإسعاد الجميع دفعة واحدة.

وقد ظل كيشوكوف مخلصاً لأسلوبه هذا في الإبداع في جميع رواياته التي كتبها بعد ذلك. إن الجديد في المجتمع إما أن يستقبله الناس بالإعجاب الشديد أو أنهم لا يفهمونه على الفور. وقد تقبل القراء (اللهلال الأخضر) ولكن دون إيداء قدر كبير من الإعجاب. وعندما نشر الكاتب روايته التالية (الحدوة المكسورة) التي تتحدث عن حقبة الحرب خلال الأعوام ١٩٤١-١٩٤٥ أخذت القيادة الحزبية العليا تضطهد الكاتب دون هوادة، وكأنها قررت أن (تصحح) الغلطة التي ارتكبتها عند صدور روايته الأولى: إذ أنهم لم يقرروا آنذاك مباشرة كيف يتصرفون بشكل صحيح إزاءه أما الآن فقد حاولوا أن يجازوه على كل ما سبق. إن القيادة التي اعتادت أن من المتعارف عليه تصوير كبار القادة كأشخاص مثاليين لم تستطع

أن تقبل بحال من الأحوال إقدام الكاتب على تصوير جميع الناس بكل ما يتسمون به من صفات دون أن يقتصر في إنشاء ذلك على تصوير مزاياهم فحسب بل يصور أيضاً نقاط ضعفهم البشرية العادية. بيد أن الرواية حظيت بنجاح كبير في أوساط القراء وأصبحت ظاهرة هامة لا في الأدب الكاباردي والشركسي فحسب، بل في الأدب السوفييتي كله.

وكانت روايات كيشوكوف وأشعاره تشهد أن أدب شعب غير كبير كان منذ نحو مئة سنة لا أكثر يستعمل أبجدية لغة أخرى قد انطلق الآن إلى رحاب حياة مستقلة، وأصبح قادراً على أن يدهس العالم بأعمال تتسم بحرقة فنية عالية.

وظهر إلى جانب كيشوكوف وبعده شعراء وكتاب أكدوا بإبداعاتهم ما قلناه آنفاً. فقد بزغ في سماء النثر نجم الأديب أحمد خان نالوف كاتب الرواية الرائعة (فرسان الفجر) والعديد من الأقاصيص، والأديب زاور نالوف كاتب القصص الغنائية المرفهة، والأديب محمد كازموكوف الروائي والقصاص وكوكبة أخرى من الكتاب الموهوبين الأصغر سناً.

ويحرز الأدب المسرحي في بلادنا نجاحات مرموقة. ويمكن أن نذكر في هذا المجال أسماء الكتاب: اسكيري شورتانوف (سبق أن تحدثنا عنه كروائي)، وظليم خان قصصيروف، والكاتب الأصغر سناً الذي أصبح في أيامنا الرائد الأول في مجال الكتابة الدرامية: بوريس أوتيجيف. وقد عُرِضت مسرحيات هؤلاء الكتاب بنجاح لا في مسارح نالتشيك، ومايكوب، وتشيركيسك الأديغية فحسب، بل على خشبات مسارح روسيا أيضاً.

وقد سطعت في سماء الشعر منذ بداية الستينيات أنوار كوكبة كاملة من الشعراء الشباب الموهوبين تميز من بينهم بصورة خاصة النابغة الذي استحوذ على إعجاب الجميع زبير تخاغازيتوف، وكذلك ليوان غوبجوكوف، وبيوتر كاجاروف، وبوريس كاغيرمازوف. وبعد ذلك بمدة قصيرة دخل عالم الأدب الكاتب ذو الموهبة اللذة هيباس بيشتوكوف، وأناتولي بيتسوف، وأفليك أورازيف، وحسن تهازيلوف وكثيرون سواهم.

وقد تميز هؤلاء بالجمع الرائع بين الثقافة الواسعة المتنوعة والخصوصية الشركسية القومية. وبفضل ذلك اتسعت إلى حد بعيد إمكانات الأدب الإبداعي

الكاباردي، وانطلق الشعر عندنا إلى رحاب الثقافة العالمية الواسعة لا على صهوة أشعار الأديب الأكمعي عليم كيشوكوف وحده، بل أيضاً بفضل أعمال مجموعة كاملة من أبناء الشعب الموهوبين الذين اطلعوا على الأدب العالمي عن كُتب وشاركوا بفعالية في حياة المجتمع الإنساني الإبداعية، وظلوا في الوقت نفسه يحافظون على أفضل تقاليد الشعر الأديغي (الشركسي) ويطورونها باستمرار.

وهنا لابد من الإشارة بشكل خاص إلى هيباس بيشتوكوف الذي نذر نفسه بنكران ذات لخدمة أدب بلاده، ويمكن القول إنه المجلي في هذا المضمار وسط أقرانه من شعراء جيله؛ وهو يجمع بين غنى الثقافة وسعة الاطلاع والحس الشعري المرفف والنزعة الفلسفية والغنائية الحميمة. وأياً كان الموضوع الذي يكتب عنه: الطبيعة، أو الحب، أو الوطن، أو خلجات النفس الإنسانية، فإنه دائماً مجدد، ومبتكر ومثير للاهتمام. وتتناول أشعاره بحرارة وقلق كل ما يمكن أن يلامس نفس الإنسان في هذا العالم المتنوع المعقد. فهي تتحدث عن موضوعات أبدية كالحب، وعن علاقة الشاعر بالمجتمع والطبيعة، وتتضمن تأملات فلسفية عميقة، وتعبّر عن أدق خلجات النفس الإنسانية الحساسة التي تعاني من قسوة العالم أو تستمتع بجمال زهرة صغيرة. وقد ظهر في السنوات الأخيرة عدد غير قليل من الشعراء والكتاب الشباب ذوي الموهبة الأصيلة، القادرين على الارتقاء بالأدب الوطني إلى قمم جديدة، ومنهم: أناتولي موكوجيف الذي يكتب بأسلوب تقليدي واضح، ونيلي لوكوجيف التي يتسم أسلوبها ببعض الغرابة وتفضل في كتاباتها البنى الحداثوية، وكل من لوبوف بالاغوف وزارينا كانوكوفا، وببلا أبروكوفا اللواتي يمتاز أسلوبهن بالغنائية الأنثوية، ولابد من أن نذكر هنا أيضاً الشاب اليافع لا تميز بشوكوف الذي يميل إلى التأمل والتفكير العميق على نحو لا يتفق البتة مع طبيعة الفتيان الحديثي السن.

ومن البديهي أن يتعذر الحديث في مقالة قصيرة واحدة عن جميع الخصائص التي تميز تطور وتنوع الأساليب الفنية والشخصيات المبدعة في الأدب الوطني خلال تاريخه الذي يمتد نحو قرن من الزمان. وقد أغفلنا ذكر كثير من الأسماء التي يستحق أصحابها التحدث عنهم حديثاً مستقبلياً، كما أننا لم نذكر العديد من الأنواع الأدبية والمناهج الإبداعية لدى مختلف الأدباء. ولو أردنا أن

نحيط بمزايأ كل مايسحق الذكر إحاطة شبه كاملة لما كفتنا صفحات المجلة الكاملة. ونأمل أن تستدرك الأعمال الإبداعية المقدمة هنا بعض ما فلتنا ذكره في هذا الحديث الموجز عن أدب كلاباردا وكتأبها.

وإذا أردنا أن نوجز حصيلة ما تحدثنا عنه أمكننا القول إنه خلال هذه الحقبة التي حاولنا إلقاء الضوء عليها، أي منذ بداية القرن الحالي وحتى أيامنا هذه، تشكل الأدب الكلاباردي المعاصر عملياً بكل تنوع ضروبه وأصنافه. وأن الفولكلور الغني المتمثل بالقصص القديمة حول الناريتين الجبابرة القدماء ويسير الأبطال الذين عاشوا في عصر متأخر، وبالتمنيات الطيبة والأمثال والأقوال المأثورة وبالحكايات الشعبية والأغاني البطولية والغنائية والشعائرية وبأصناف أخرى كثيرة كان أحد مصادر هذا الأدب. كما أن ثمة عاملاً آخر لا يثير الدور الذي قام به أي جدل في هذا الصدد، وهو التقاليد الكتابية الأدبية في اللغات الأخرى، ومنها تقاليد الأدب الغربي المغرقة في العراقة والشديدة الغنى. ومن المناسب أن نتذكر هنا إن الكتابة الشرسكية كانت خلال العقود الأولى من قرننا هذا لاتزال تعتمد الأبجدية العربية، وإن بعض الكتاب المحدثين كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم.

إن المهمة الأساسية لأي أدب قومي هي أن يلبى الحاجات الجمالية لدى شعبه. وقد انطلق الأدب الكلاباردي من هذه الموضوعة بالذات، ثم أخذ مع الزمن يوسع نطاق قرائنه، وذلك لأن الروايات والقصص والأشعار والقصائد التي أبدعها أدباؤنا للتعبير عن مشكلاتنا الوطنية المحلية وعن خواص التفكير الفني الوطني أخذت تكتسب قيمة إنسانية عامة لا شك فيها. وقد أنجب الشعب الكلاباردي عدداً غير قليل من مشاهير العلماء والرسامين والموسيقيين والقادة الاجتماعيين والسياسيين الذين تجاوزت أسماؤهم حدود القفقاس واشتهروا على نطاق واسع. ولا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المجال فرقة الرقص الشعبي (كلابارديكا) المشهورة في العالم بأسره، وقائد الأوركسترا الفذ الذي طبقت شهرته الأفاق في عصرنا هذا وهو المايسترو يوري تيميركانوف- وصاحب الاكتشافات التي أثارت ضجة كبيرة في مجال الفيزياء البروفيسور مورادين كوماخوف.

وربما كان من غير الكافي من أجل إحراز مثل هذه النجاحات في الأدب

مجرد بذل مزيد من الجهود وتوافر مزيد من المواهب، بل يتطلب الأمر الاستناد إلى تقاليد فنية كتابية عريقة، كذلك التي يمتلكها الأدب العربي. إننا دون شك نفخر عن جدارة بالموهبة الغذة لأدباء من أمثال ليأشا أغنوكو وبيكمورزا باتشيف وعليم كيشوكوف. وتمتلىء قلوبنا ببهجة لا حدود لها ونحن نشهد النجاحات التي يحرزها شعراؤنا وكتابنا المعاصرون. ولكننا إذ نتجراً على أن نعرض على القارئ العربي الكريم إبداعات أدبائنا ندرك مدى المسافة التي يمكن أن تفصل بين من بدأ طريقه منذ آلاف السنين واستمر في مسيرته إلى أيامنا هذه دون انقطاع ومن لم يبدأ يرسخ مواقعه على مشارف قمم الفن الكلامي المكتوب سوى من مئة سنة فقط. ونعتمد هنا على حقيقة تاريخية هي أن بعض المنحدرين من وسطنا الشرقي كانوا يحوزون على اعتراف واسع النطاق بمواهبهم في الأدب العربي نفسه، ويمكن أن تشهد على ذلك إبداعات الشاعر الفذ محمود سامي البارودي. وهذا المثال له ما يشبهه في الأدب التركي أيضاً ويمكن أن نعثر على أمثلة أخرى مشابهة في آداب الشعوب الأخرى. وقد كتب أحد رحالة العصور الوسطى في يومياته عندما كان يزور منطقتنا أن الشرقيين شعب موهوب، إلا أن أفضل صفاتهم لا تتجلى في وطنهم، بل في الغربة. ويبدو أن من الممكن الاعتقاد بصحة هذا الرأي إذا ما استعرضنا الحالات التي برز فيها أبناء وطننا في مختلف البلدان وأظهروا فيها ما يتسمون به من مواهب وسجايا حميدة: سواء أكان ذلك في روسيا، أم في مصر وتونس، أم في تركيا وأوروبا الغربية. ولكن أياً كان المكان الذي تنتفجر فيه الموهبة فإن أصولها تعود إلى وطن الأجداد، إلى القفقاس. ونحن إذ نقدم اليوم بعض نماذج من أدبنا الوطني الأصيل لا نأمل فقط بأن تتألم هذه النماذج رضا القاري العربي. فنحن نعرف، بالطبع، مدى رهافة الذوق الجمالي لديه. إننا نأمل أيضاً بتفهمه وتجاوبه، ولا سيما وأن شعبينا: للشعب الشرقي والشعب العربي يعرف أحدهما الآخر منذ قرون عديدة، ويضمحل كل منهما للآخر مشاعر الود المتبادل تقليدياً. إن سورية وعاصمتها دمشق (الشام) كانتا دائماً في نظر أجدادنا مصدراً للثقافة العالية. وقد اشتهر المحاربون الشرقيون بمآثرهم في مصر وسورية منذ القرون الوسطى.. ودافعوا إبان الحروب الصليبية وفي أثناء غزوات التتار والمغول وفي العصور التي تلت ذلك عن الأرض العربية وكأنها وطنهم الأم، وعندما شرد الشرقيون من وطنهم الأم منذ مئة وخمسين عاماً وقدموا إلى

الشام وحلب وحمص والجولان إنما كانوا يسيرون على الطريق التي كان أجدادهم الأوائل قد مهدوها، وكانوا يعرفون أنهم يسيرون إلى ديار إخوانهم بالروح والعقيدة.

ونحن نعبر عن شكرنا لشعب سورية المباركة الذي لم يخيب آمال المهاجرين الشركس وتوقعاتهم. كما أننا نفخر بالمزايا الإنسانية السامية التي يتسم بها هذا الشعب ونعتزّ بالقدر نفسه بأن الشركس السوريين كانوا جديرين بمجد أجدادهم عندما تصدوا في الحرب الجديدة إلى الذود عن مصالح الدولة العربية وأثبتوا ولاءهم لرئيسها الحالي الذي يتحلى برهافة الحس والحكمة مما يعتبر ضماناً للنجاحات التي تحرزها سورية.



لمحة عن كتاب قباردا

إعداد: آدم غوت

■ ترجمة: غسان نوح شورهي - هشام ماشفج ■

- شوغيتسول علي بن أسعد -

ولد في عام ١٩٠٠ في قرية كوشمز قوي، درس في المدرسة الريفية، وتابع دراسته في داغستان والقزم وتركية، ألف كثيراً من الروايات الشعرية والقصائد والقصص القصيرة، التي تُولف أساس الأدب الشركسي الكلاسيكي، قُتل تحت التعذيب عام ١٩٤١ في أحد معسكرات الاعتقال الفازية.

<http://Archivebeta.Sakhril.com> - يليد حسن

ولد عام ١٨٨٦ في قرية (تجي) وتوفي في ١٥ أيلول ١٩٦٧، درس الأدب والمنطق والثقفة الإسلامي واللغة والتاريخ عند ٣٤ مولى (شيخ) ثم درس اللغة والأدب والتاريخ الشركسي منذ عام ١٩١٣ وحتى ١٩١٨ في مدرسة كوشمزتوي وحرر في أول جريدة قبردينية بالأحرف العربية، وساهم في تأليف الكتب المدرسية وفي ١٩٣١ أصبح مسؤولاً عن تعليم اللغة في منطقة القبردي وفي عام ١٩٤٤ أصبح رئيس قسم اللغة الشركسية في معهد الأبحاث في مدينة نالتشك، ثم رئيساً لمعهد الأبحاث أصدر ٧٤ مؤلفاً في اللغة والأدب.

- كوشوقوه علي -

ولد عام ١٩١٤ في قرية (شحلوقوه)، شخصية أدبية واجتماعية وسياسية مرموقة في قباردا والإتحاد السوفياتي، شاعر وروائي، فارس من فرسان الحرب

■ - الآداب الأجنبية - ٤٤

العالمية الثانية، عمل مدة طويلة رئيساً لإتحاد كتاب جمهورية روسيا الاتحادية، وسكرتيراً لإتحاد كتاب الإتحاد السوفياتي، وعضواً في منظمة التضامن الآسيوي الأفريقي، وعضواً في مجلس السوفييت الأعلى، حصل على العديد من الجوائز الأدبية في بلاده، وفي البلدان الأخرى، لقب شاعر الصداقة بين الشعوب، زار سورية مرتين وترجمت له ثلاثة روايات إلى العربية، آخر رواياته (الجدور) احتفلت جمهورية قبردينيا- بلقاريا عام ١٩٩٤ بذكرى ميلاده الثمانين.

- قردن غوشاه زراموك -

ولد في عام ١٩١٨ في قرية بسمه غوانسو

تخرج من معهد لونا تشارسكي للدراما في مدينة موسكو. باحث وكاتب وممثل ومغني. ساهم بشكل أساسي في جمع ونشر الأغاني والألحان القبردينية في ٤ مجلدات، كما ساهم أيضاً في جمع ونشر التراث الثقافي الشركسي (أساطير النار) من أشهر مؤلفاته: الصديق الوفي (رواية عن الجواد) فارس السد والبطل الشعبي أنديمرقان. يعمل في معهد الأبحاث القبرديني للأدب.

- شورتن عسكوبي - <http://Archivebeta.Sa>

باحث وكاتب. من جيل الرواد. ساهم بشكل أساسي في جمع ونشر التراث الثقافي الشركسي (أساطير النار) الحكايات والأخبار. أشهر مؤلفاته الروائية (الجيلون) في أربعة أجزاء.

- شوغنتسوك آدم -

ولد في عام ١٩١٧ في منطقة باخسان. شخصية أدبية واجتماعية وسياسية مرموقة في قباردا، لقب شاعر الشعب القبرديني، فارس من فرسان الحرب العالمية الثانية، من أشهر مؤلفاته الشعرية ديوان (من القلب) ١٩٥١ (ديوان القلب الذي لا يرتاح) ١٩٥٨، ديوان الأفراح ١٩٧٧، ديوان أشعار الطريق ١٩٦١، الكلمات البليغة، الشاب المحبوب، الأغاني التي لا تنتهي.

- باشاء بتشموزا بن ماشة

ولد عام ١٨٥٧ في قرية نارتان، لم يتبع دراسة منظمة وكتب بالأحرف (الألفباء) التي وضعها بنفسه بمساعدة الحروف العربية توفي عام ١٩٣٨، شاعر شعبي.

- قردوقوه محمد

ولد عام ١٩٢٩، تخرج عام ١٩٥١ من معهد إعداد المدرسين القبرديني، كاتب وصحفي، من الشخصيات الثقافية المرموقة في قبردينا- بلقاريا، عمل في صحف الجمهورية، رئيس تحرير البث باللغة القبردينية في راديو الجمهورية.

- تحفزيث زبير بن محمد

ولد عام ١٩٣٤ في قرية تيريكسويه، تخرج عام ١٩٥٨ من كلية التاريخ والأدب التابعة لجامعة نالتشك، شاعر، وصحفي حاز على عدة جوائز أدبية، شاعر قبردينا الشعبي، عمل في جرائد الجمهورية وفي دار نشر الكتب (إيلبروز) وكان رئيساً لتحرير مجلة (أواشحه ماهو) الأدبية وكان رئيساً لإتحاد كتاب جمهورية قبردينا- بلقاريا.

- نالو زاور بن محمد

ولد عام ١٩٢٨ في قرية أنزوريه، تخرج عام ١٩٥٢ من معهد إعداد المدرسين القبرديني، ودرس الأدب في نفس المعهد وبدءاً من عام ١٩٥٤ عمل في معهد التاريخ والأدب والاقتصاد التابع للمركز العلمي لأكاديمية العلوم الروسية في جمهورية قبردينا- بلقاريا- شاعر وكاتب وباحث أدبي وفولكلوري. شخصية أدبية واجتماعية مرموقة في جمهورية قبردينا.

- أوطيخ بوريس بن قوني

ولد عام ١٩٤١ في قرية زار أغيج، تخرج عام ١٩٦٨ من كلية الأدب

والتاريخ التابعة لجامعة نالتشك، حصل على شهادة الدكتوراه في عام ١٩٧٣ من معهد اللغات التابع لأكاديمية العلوم الجيورجية في تبليسي عالم لغات، شاعر، مؤلف مسرحي، ناقد أدبي، رئيس تحرير مجلة أوأشحه ماهوه (الجبل المبارك) الأدبية له مسرحية مترجمة للغة العربية (ترغة تاهه)، ترجم مسرحيات شكسبير إلى اللغة القبردينية.

- بلقار قوسات بنست عزيز-

ولدت عام ١٩٣٢ في قرية كيشبيك، تخرجت عام ١٩٥٠ من المعهد المتوسط لإعداد المدرسين، وفي عام ١٩٦٩ تخرجت من معهد غوركي للأدب في موسكو، عملت في قسم الآداب لمعهد التاريخ والأدب والاقتصاد في مدينة نالتشك. الشاعرة الشعبية لجمهورية قيردينا- بلقاريا.

- قجر بيتو بن عييد-

ولد عام ١٩٣٥، تخرج عام ١٩٥٩ من كلية التاريخ والآداب التابعة لجامعة نالتشك، عمل في التدريس في المدارس، كاتب وصحفي، محرر في دار النشر، ورئيس تحرير مجلة نور

- قانغيرمس بوريس بن حبيب-

ولد عام ١٩٣٥ في ليسكين، تخرج عام ١٩٥٩ من كلية الآداب والتاريخ التابعة لجامعة نالتشك، كاتب، شاعر، صحفي له العديد من المؤلفات. محرر في مجلة نور.

- بيشتوقوه عباس بن قرني-

ولد عام ١٩٤٣ في قرية قزبورن، تخرج عام ١٩٦٨ من كلية الصحافة في جامعة موسكو، وحصل من نفس الجامعة قسم الآداب على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٦، شاعر، صحفي، شخصية أدبية مرموقة، عمل في التلفزيون الحكومي،

وجراند الجمهورية، مدير المتحف الأدبي لجمهورية قباردينا- بلقاريا.

- ورنزي أفليك بن بشه ماجو:

ولد في عام ١٩٤٧ في قرية كوركوجين، تخرج عام ١٩٧٨ من معهد غوركي للآداب في موسكو، صحفي وشاعر، عمل في جريدة (أديغه ماق) محرر في مجلة نور .

- غومت آدم بن محمد:

ولد عام ١٩٤٤ في قرية أوشيكر، تخرج عام ١٩٦٩ من كلية الآداب والتاريخ جامعة نالتشك، عام ١٩٧٤ أنهى دراسة الدكتوراه في معهد الآداب العالمية التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية قسم الآداب أخصائي في الفن الشعبي رئيس قسم الفن الشعبي الشرکسي لمعهد التاريخ والآداب والاقتصاد القبرديني.

- دوحار حه أوتلي:

ولد عام ١٩٢٠ في قرية قولقوجين توفي عام ١٩٩٤، كاتب وصحفي ومسرحي ومؤلف أغاني، انتسب إلى معهد كونسرفاتوار مدينة لينينغراد عام ١٩٤٩، عمل في الصحافة والراديو ألف سبعة كتب وسبعة مسرحيات وترجم إلى اللغة القبردينية (٥) كتب في الرواية والمسرح.

- مزحه يوريس:

ولد عام ١٩٤٠ في قرية شحلوقة، تخرج من جامعة نالتشك عام ١٩٦١ كاتب وصحفي أصدر ثمانية كتب في القصة والرواية، عمل منذ عام ١٩٨٢ في صحيفة (أديغه بساله) ثم أصبح مديراً لنفس الجريدة وهو رئيس إتحاد صحفي قباردا- بلقاريا وسكرتير في إتحاد الصحفيين في روسيا.

- جلاتج صلاح الدين بن حمزه -

ولد عام ١٩٤٠ في قرية أرغودان، تخرج من جامعة نالتشك عام ١٩٦٥ وفي عام ١٩٧٢ أنهى الدراسة في معهد السينمائي في مدينة موسكو كلية السيناريو وعمل مديراً لقسم الوثائق السينمائية في مدينة تفليس وساهم في إخراج فيلمين ومنذ عام ١٩٧٦ يعمل في إدارة التلفزيون في جمهورية قباردا- بلقاريا أصدر ثمانية كتب في الشعر والقصة.

- تحزبل حسن -

ولد عام ١٩٤٣ في قرية دخشوقوي، درس في كلية الزراعة التابعة لجامعة نالتشك، شاعر أصدر العديد من الكتب، في ١٩٩٤ أصبح رئيساً لإتحاد الكتاب في جمهورية قباردا بلقاريا.

- مغاذز سريبي -

ولد عام ١٩٣٢ في قرية دجريمشك، باحث وكاتب له العديد من المؤلفات أهمها العادات والتقاليد الشركسية - العباة السوداء - الضيف المبارك.

- غوبجوقوه ليوان بن محمد -

ولد عام ١٩٣٧ في قرية جمتاله، تخرج من كلية الآداب في جامعة نالتشك عام ١٩٥٩ شاعر وصحفي وكاتب للأطفال عمل في الحقل الثقافي في الصحف والمجلات الأدبية توفي عام ١٩٨٨.

- قانقوه زارينبا -

ولدت عام ١٩٦٩ في قرية دغوليفوي. أنهت الدراسة الجامعية قسم الآداب عام ١٩٩١ أدبية وصحفية. عملت في جريدة (أديغه بساتاله) وتعمل حالياً في المجلة الأدبية (أوأشحه ماهو).

يقول الأديب الكبير آدم شوغنتسوك في حديثه عن الأدب والأدباء في

جمهورية قباردا في العصر الحديث نشر في مجله (أواشحه ما هو) الأدبية:
لن جيل الرواد، الذين سطع نجمهم سماء الأدب ليس في بلادنا فقط، ولكن
في البلدان الأخرى يمكننا أن نذكر بكل فخر واعتزاز السادة (شوغنتسوك علي-
كشوقوه عليم- كواشه بيطال- تيوان حكيم- شورتن اسكرهي).

وبعد الحرب العالمية الثانية، ظهرت كوكبة من الأدباء، استفادت من تجربة
جيل الرواد، وعمل كل منهم على أن يشق لنفسه طريقاً خاصاً به. ونجحوا في
تثبيت أقدامهم في عالم الأدب مثل (أقرز المخان- شوغنتسول نوري-
بلقار فواسات- نالوز اور- نالو أحمد خان- حه خوباشه حج بكر- ماتش بيتر-
تحفريت زبير- غويجوقوه ليوان- يلفر كاشيف- قاغرس بوريس- قجر بيتر-
كيشت معز- حه سفرتي. وتألقت في سماء أدبنا القبرديني مجموعة من الشعراء
والكتاب البارزين الذين أبدعوا نماذج رائعة من الأدب تناولت موضوعات جديدة
ومعاصرة شكلاً ومضموناً وهم (بيتو أنا تولي- شدجه حشاه حمشه- مزحه
بوريس- بيشترقوه عباس- قرموقوه محمد- أوطييح بوريس- تخربل حسن-
جوت بيبرد- اتستان روسلان- قوفه حكيم- وزري أفليك).

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

□□□

/ذاتة الأرجل الثلاث/

قصة قصيرة من مجموعة (الشفق البعيد)

للكاتب القبرديني نالو أحمد خان - نالتشك عام ١٩٨٤.

■ ترجمة: نديم ميرزا ■

منذ آلاف السنين. وكما جرت العادة عند الذئاب. قامت الذئبة الأم ذات الأرجل الثلاث بقطم جرائها الخمسة عن حليب أُنثائها بعد أن أدت واجب الأمومة نحوها ولم تأبه لشأن الجراء المفلطمة التي كانت تعوي باكية متوسلة إلى أمها، بل مضت في سبيلها خارجة من الوكر دون أن يرق قلبها على حالها.

بقيت الجراء وحدها وهي تنتحب بتوجع وكل واحد منها مشغول بهمة فلا يلتفت للآخر، وكانت الجروء الصغرى ممعنة في العويل والبكاء دون غيرها بصوت متهدج ومؤثر للغاية. وكيف لا يكون حالها هكذا وهي الأضعف في هذه العائلة. فمئذ ولادتها لم يتركها للنكد. فهي تمرض مرة وتصبح نهياً للبراغيث مرة أخرى ويصيبها مغص شديد فتربك العائلة وتارة يصيبها الجرب فتتحاشاها الجراء الأخرى خشية العدوى. إنها مصدر المتاعب والقلق باستمرار في هذا الوكر.

ولشؤمها واعتلالها وهزالها ولسوء طالعها صارت دون غيرها قوة وحظاً وطعاماً. فالجراء تستقوي عليها دوماً فتخطف منها حصتها من الطعام وهي ساكنة لا حول لها ولا قوة، حتى صار شكلها قميئاً ومنظرها قبيحاً ولم يعد شكلها يتناسب مع حجمها ووزنها وإخوتها فسمتها العائلة: أم الأضلاع الناعثة.

وهي اليوم تملأ الوكر عويلاً بعدما خرجت أمها، مستمرة في أنينها بينما كفت الجراء الأخرى عن ذلك.

أزعجت من حولها فاضطرت جميعها إلى زجرها وطلبت منها الكف عن الإجهاش في البكاء فأذعنت وتوقفت عنه وكالمعتاد عاودت الجراء إلى إصدار

الأوامر والنواهي بلا انقطاع إلى الأخت المعاقة الضعيفة.

إنها تعيّسة في هذه العائلة، مذ سميت أم الأضلاع الناتئة لم تجد الراحة بعد ذلك اليوم إذ اقترن اسمها مع الحظ العاثر. ومع ذلك كانت تعزي نفسها قائلة: أنا قانعة بالنصيب. والمهم أن أعيش، لا سيما أن أمها قالت لها على مسامح الجميع: أنت يا أم الأضلاع الناتئة، أنت أصغر الأولاد وأضعفهم. لذلك يجب أن تطيعي الجميع بلا تردد. ومنذ ذلك الحين بدأ الكل يأمرها وينهاها وصارت كالعبدة للآخرين. فالجراة تجاسرت عليها فكل واحد يقول لها: هاتي هذا وخذي ذاك - أزيحي هذا الغرض. حكى لي ظهري - الحسي فمي - نقي لي رقبتي من القراد.

لم يمض وقت طويل على غياب الأم حتى عادت إلى الوكر، فقفزت الجراء الأربعة نحو أمها وهجمت على الخروف الذي رمت به إليها وطفقت تمزق لحمه الطري بينما لم الضلوع الناتئة قابعة في الزاوية دون حراك، دون أن تكلف نفسها غناء دخول المعمة حول الفريسة. عالجت الجراء الخروف الذي لم يسبق لها أن نظرت بمثله، وبعد أن شبعن ارتفعت على أرض الوكر هائلة.

أما الذئبة الأم التي جلست ترقب أولادها التي تهاقت على الخروف، فالتفتت إلى ذات الضلوع الناتئة بعد أن ركلتها جراءها الأربعة التي هرعن إلى أئداء أمها لتشرب الحليب بعد وجبة شهية من اللحم اللذيذ والتي انقضت من حولها غير مبدية امتعاضها.

فإذا بها تقترب من بقايا الخروف لتأكل. نظرت الأم إلى جرائها التي شبعن ونامت. وبدأ النعاس يغالبها. رغم ذلك فتحت عينيها وبدأت ترقب الحركات الهادئة المؤدبة لأم الأضلاع الناتئة فهي خاملة فجأة. وهي هكذا منذ ولادتها. إن طبعها لا يلائم حياة الغابة. إنني لا أصدق إلا أن تكون ابنة ذلك الكلب البيتي الوديع الجبان الذي زارني في أحد الأيام حقاً إنها مثله في طبعه وشكله ذي اللون الأصفر المبرقع.

أتذكر ذلك اليوم الذي كانت الذئاب الذكور الثلاثة تتناوش بعنف للظفر بي ومعاشرتي بينما ذلك الكلب البيتي كان جالساً في مكان ناء ينظر إلي بكل أدب وهدوء. لم تعره الذئاب الثلاثة أي انتباه. حينذاك أشفقت عليه ورق قلبي لحاله واختبرته عذيراً. حين رأيت الذئاب ذلك تركت بعضها وفارت دماؤها واحمرت عيونها كالجمر من الغيرة وانقضت عليه ومزقته إرباً إرباً ومات المسكين ضحية

صداقتي له.

كانت أم الأضلاع النائنة تأكل ببطء وسكون وهي لا تدري بم تفكر أمها في تلك اللحظات. وبعد أن انتهت مسحت أنحاء جسمها بلسانها واختارت ركناً خالياً من الوكر كعادتها واستسلمت للنعاس منفردة معزولة.

تابعت الأم تأملها. وتسربت إليها الأفكار الجهنمية السوداء تجاه ابنتها النائمة وأمعنت النظر إليها وهي تغط في نوم عميق بعينيها الجاحظتين الحانقتين. اللتين امتلأتا بالنوايا الكريهة.

أتى الفجر فجأة وتبدد الظلام وانبج ضوء الصباح وأشرقت الشمس تباعاً، وعند الشروق عجت الغابة بالحركة والنشاط وامتلأت بالحياة وماجت بالحياة حيث نهضت كل الأحياء القاطنة في جوفها من أجل السعي للبقاء.

فالبراغش والهوام والغربان وأنواع الطيور انطلقت وتحركت استعداداً للنهار الصيفي الحار القادم إليها. لكن جراًها ما زالت غارقة في نومها بين أنحاء الوكر المحصن بأمان حيث يجب أن تستريح لأن مهاماً صعبة تنتظرها في الليلة القادمة. كانت الأم تفكر بأولادها وبهذه المهام الخطيرة. أضناها التفكير والسهاد وهي تقلب الأمور لليلة القادمة وزادتها توتراً وبقلة حين تصور ما سيجري.

وليست هذه هي المرة الأولى التي تضطرب فيها إلى التفكير بمثل الحالة المرتقبة في الليلة القادمة. لقد أصبح عمرها الآن خمسة عشرة سنة ولدت فيها عشر مرات وقد أدت في كل ولادة المهمة التي تفكر في تأديتها هذه المرة مع أولادها. ولكنها تبقى أما. وما ستقوم به محفوف بالمخاطر والمتاعب بالطبع وهي قلقة على ابنتها الصغرى أم الأضلاع النائنة التي لا تتق باجتيازها الاختبار الصعب بنجاح.

ويأتي الليل ويخيم على الغابة الظلام وتستيقظ عائلة الذئاب التي أخذت قسطاً كبيراً من النوم والراحة. وبدأت اللحظات الحاسمة.

خرجت الذئبة ذات الأرجل الثلاث وجلست قبالة الوكر وصرخت بأولادها قائلة: اخرجوا من الوكر، واجلسوا جميعاً أمامي، خرج الجرو السمين الذي يدعى الدب في المقدمة والبقية وراءه. تربصت الأم وحذت ابنها الدب بنظراتها المنبعثة من عينيها المحمرتين كالشعر المتطاير فرأى الجرو والدب في عيني أمه الصارمتين معاني الموت الزوام. ومع تلك النظرات كشرت الأم عن أنيابها الحادة

وهي تصك أسنانها وتصدر صوتاً يشبه أحجار الصوان.

سألك. يا دب احرص. هكذا كانت تتبىء به هيئتها.

ويغور الدم الذئبي الوحشي في عروق الجرو الدب وأصابه ويشتعل غضباً وهو يجتاز اختبار الشجاعة. فيهب بذيله وينكمش متربصاً ويستعد للرد على أمه والاتقضاض عليها أيقنت الأم بأن الجرو الذي يواجهها لن ينسحب من المواجهة بسلام. بالطبع لم تكن تريد نزالاً مع ابنها فهذأت من ثورة غضبه وقالت له: اجلس هناك فأنت تصلح أن تكون ذئباً في هذه الغابة. وهكذا فعلت مع الجراء الأخرى التي نجحت في الاختبار ما عدا أم الضلوع النائثة. فقد جاء دورها أخيراً. ونادتها أمها بصوت مثل صوت عزرائيل فطارث روحها شعاعاً من الخوف وجلست مطرقة واجفة لكن نظرات الأم المحمومة كانت كالسهام التي تنفذ في فؤادها فانتصب شعر فروها وضغطت ذيلها المرتجف بين فخذيهما وبدت كأنها مصابة بالبرداء. وصرخت بها أمها ثانية قائلة: ارفعي رأسك وانظري إليّ وحين رأته الموت الزؤام في عيني أمها اللتين تقدحان شرراً انهارت أعصاب المسكينة واستسلمت للعويل والبكاء فانتقضت عليها أمها حيث غابت بين فكئها واقتربتها وجلست أم الأرجل الثلاث وهي تلحق دماء ابناتها الجبالة.

ثم قالت: لم تكن لتقدر على مواجهة أعباء الحياة لقد أرحتها من العذاب والألام الكثيرة التي كانت تنتظر تلك المسكينة سيئة الحظ. كلب بيتي خامل أنجب كلبة بيتية خادمة ولا يمكن لمثلها البتة أن تكون ذئبة في هذه الغابة يوماً من الأيام. جلست الجراء الأربع الباقية واجمة وهي تنظر إلى أمها المرعبة والرهبة دون أن تعرف لنظرتها معنى محدداً. أتلوم الأم على فعلتها أم هي راضية عنها.

قالت الذئبة لجرائها: تعالوا معي الآن. سأدرّبكم على الصيد في هذه الغابة. سوف أضعكم على طريق الحياة التي تؤخذ غالباً هنا. ولا مكان فيها لضعيف مستكين. سأدرّبكم والبقية مرهونة بشجاعتكم وقوة تحملكم للصعاب. لا مكان هنا للدعة والراحة والخمول.

انطلقت أم الأرجل الثلاث وخلفها مباشرة الجرو الدب ثم ذو الوجه الأسود ثم ذو الذئب الأبيض ثم ذات الرقبة البيضاء.

ومضى الرتل على الطريق بحذر. وحين وصلت الأم إلى أكمة رأت حفرة عميقة حذرت صغارها منها حيث قالت لها: هذه الحفرة من صنع الإنسان ودخلت

العائلة السهل ووقفت الأم تشم ما حولها مستطلعة أرائحة بشر أم دخان أم سمك يا ترى.

ورأت من بعيد عريشة في أحد الكروم عليها بعض الرجال من الفلاحين فقالت لصغارها ابتعدوا عن العريشة تحاشياً للإنسان. تحاشوه دوماً واحذروا الاقتراب منه إنه عدونا الذكي الذي لا نستطيع مواجهته أسمعونه. قالت الجراء. نعم.. ابتعد الجميع عن العريشة ومضت الذئاب على طريق فرعية حتى وصلت إلى ضفة نهر وأصاغت الأم بسمعها وشمّت ما حولها حيث تسربت إلى أنفها رائحة الطعام. مشّت باتجاه الرائحة وأولادها الأربعة خلفها يقلّدونها في مشيتها زحفاً على البطون باتجاه الطعام.

كانت رائحة الطعام ممزوجة برائحة الإنسان. قالت الأم: قفوا يا أولادي هنا. أنا سأعرف عليه وتقدمت نحو الوقف فإذا به حمار سمين مربوط درات حوله تتفحصه فلمحت على ظهره فخاً منصوباً يشبه الفخ الذي خبرته سابقاً يوم أمسكها وانتزعت منه بأنيابها الجزء الباقي من رجلها المقطوعة. لن تسلم نفسها له مرة أخرى. دارت حول رقبة الحمار وانقضت عليه وجرت عدة أمّات نحو الأكمة وبالتعاون مع جرائها افترست الحمار المسكين في الوقت الذي كان النحالان يغطان في نوم عميق تحت الشجرة وقد أدارا ظهرهما أحدهما الآخر مطمئنين على حمارهما المحمي بالفخ المنسوب، الذئاب الجائعة أكلت الحمار ولم تبق منه شيئاً سوى رأسه وجوافره، وقفلت راجعة إلى الوكر.

كانت الأم متلهفة إلى أن تقول لأولادها الكثير الكثير منذ زمن. لكن لم تجد فرصة مناسبة لذلك. لكن اليوم لإبد من ذلك لقد كبر الصغار وأوشكت الجراء أن تخرج من الوكر وتعتمد على نفسها في كسب قوتها.

قالت الأم: ربما لن أجد العائلة مجتمعة كما هي الآن. سوف يتركون الوكر والموقد وسيترأجون ويهيّمون على وجوههم في أرجاء هذه الغابة الواسعة. وسأبقى كالعادة هنا وحيدة أعين حياة الأرملة المسكينة التي لا يظلل بيتها رجل. أم سأعثر يا ترى على رجل عجوز أرمّل أتزوجه وأتي به إلى هذا الوكر، أه ما أصعب تربية الأولاد وأنا وحيدة، كم سنة مرت وأنا هكذا. في كل سنة يجتمع حولي الذكور ويغرونني بكل الأحلام الجميلة ويطلون علي وهم يتبخثرون. اسلم نفسي لهم ثم بعد أن يأخذوا مني وطهرهم ينفضون من حولي ولا يابھون لحالي

ويغيبون عني حتى تأتي سنة أخرى. ولو بحثت عنهم وقت الشدة والحاجة لما وجدت واحدا منهم. إنهم أنذل آه. لقد كان من الممكن أن يكون ذلك الكلب البيتي المسكين الذي أكلوه في السنة السابقة شريكاً دائماً لحياتي. ليتني دافعت عنه آنذاك وأنقذت حياته منهم. إنني أشعر الآن بالندم. كان علي ألا أسمح للذئاب شاردة أن تأكله بهذه القسوة. آه. لقد صرت الآن عجوزاً ولولا ذلك ما الذي أيقظ في نفسي مشاعر الرحمة واللين في صدري اليوم. ولولا حالي اليوم ما الذي يجعلني أرأف بكلب خامل دقت الذئاب القوية عظامه. أليق بي أن أرشي كلباً بيتياً بليداً. لا. لا..

الجراء المتخممة بلحم الحمار كانت نائمة.. ونامت الأم بعد عشاء طويل. مضت الليلة. وأقبل النهار وكان الجو غائماً. والأمطار الخريفية الخفيفة تهطل بين الحين والآخر. ثم حل المساء وصحت العائلة من سباتها وبدأت الأم حديثها مع صغارها قائلة:

الآن كبرتم. فعليكم أن تتابعوا أموركم بأنفسكم ولا تتسوني. فلنا بحاجة إليكم.

وحين أبدت الأم حاجتها لأولادها في معاشها نظروا الجرو الدب إلى شقيقه ذي الوجه الأسود وبدأا كأنهما يقولان لبعضهما: آ.. إنها تريد أن نعيها.. لقد كان لها ذلك لو وجدتنا بجانبها بعد اليوم..

لكن الأم تابعت حديثها قائلة: لقد ربيتكم يا صغاري بتعب وعناء دون أن يكون معنا أب ذكر يرعانا وكنت معلولة مستضعفة يتجاسر علي القاصي والداني. كانت رجلي مقطوعة وقدرتي على الصيد ناقصة. هذه المعاناة قاسية وقصتها طويلة لاسبيل لي أن أذكرها لكم اليوم. لكن أريد أن أزودكم بوصايا وغطات ستستفيدون منها في حياتكم القادمة: الدنيا يا أولادي تتغير باستمرار والأموال تتبدل بسرعة مرة تتلبد في السماء الغيوم وتارة تصحو وتتقشع عنها الغمام نحن نعتبر بني البشر مصدر ضرر وخطر علينا في هذه الحياة. إنهم تتادوا إلي قتلنا وإياديتنا بكل الوسائل التي ابتكروها. وخصصوا لبعضهم جوائز ثمينة تشجيعاً لقتلنا وبعد حملة الإبادة التي شنوها علينا وقل عدداً تبدل مواقفهم منا وقالوا: لقد فقدت البيئة توازنها وإن الذئاب نافعة ومفيدة. وفرضوا غرامة على كل من يصطادنا. ثم عادوا مرة أخرى إلى تقديم الهدايا لمن يقتلنا ولن تستمر هذه الحالة طويلاً ولكن

في جميع الأحوال احذروا هذا الذي يسمى الإنسان. إنه عدو لدود ومخيف لا يقهر والصياد الذي تعود على اقتناصكم لن يلتزم بأي قرار صادر بشأنكم. فهو سيظل يتابعكم وسيقتلكم حباً واستمتاعاً بقتلكم. لذا كونوا يقظين وحذرين منه على طول المدى أيها الأولاد.

انتهت الذئبة الأم من إطلاق وصاياها وكفت عن حديثها واستجابت مرة أخرى لنداء الجوع القوي المتجدد وانطلقت مع أولادها إلى رحلة الصيد الأبدية. وسارت العائلة على الدروب السرية التي شققتها لنفسها في الغابة لتباغت فرائسها وقامت بالسطو على قطعان الماشية واقتناص الحمير في حقول الذرة الصفراء. لكن الصيادين اهتموا إليها، وتعرضت الأم لنيرانهم وأصيبت في مؤخرتها ونزفت الدماء وانطلقت مع الجراء باتجاه الوكر متجاوزة الفخاخ والحفر والرصاص ونجت بأعجوبة وتوارت عن الأنظار وانتشرت العائلة في الغابة دون هدئ.

عادت الأم وحيدة. مجروحة. متألّمة- كئيبة إلى وكرها ولم تعد الجراء التي تركت أمها واستقلت بنفسها بعد اليوم.

فتشت عن شريك لها فوجدت ذئباً عجوزاً اقترنت به وولدت له هذه المرة اثني عشر جرواً وعاشت الجراء في كنف العجوزين وهي تعتمد على ما يؤمناته لها من الطعام بشق النفس والعسر الشديد.

إن الصيادين الذين يعرفون أن هذا الوقت هو موعد ولادة الذئاب. انتشروا في كل الأنحاء يبحثون عنها دون كلل. لقد أبكوا الكثير من أمهات الذئاب ومنها ذات الأرجل الثلاث. فهي حين خرجت مع عجوزها إلى الغابة للصيد وجلب الطعام للجراء دخل الوكر الصياد نور علي وزميله وخطفا الجراء الاثني عشر حيث وضعها في الكيس وحملها إلى حديقة الحيوانات إذ باعها إلى إدارة الحديقة بأموال زهيدة.

عادة الأم مع زوجها إلى الوكر فلم يجدا الأولاد. شما بقايا رائحة بني البشر في أنحاء الوكر. عرفت الأم مصير أولادها. نذبت حظها مرة أخرى وبكت بتوجع وملأت بعوائها المرير وأنيبها المؤثر أرجاء الغابة ومعنى الاثنان يقتنيان أثر جرائهما حتى وصلا إلى حديقة الحيوانات التي أسرت فيها بقيا يومين أو ثلاثة خلف السور وهما يعويان دون جدوى- لم يستطيعا اقتحام الحديقة فسورها عال. قللا راجعين إلى الغابة . ويمضي الزمان التعيس ويأتي الصيف وتبسم الطبيعة

بالخضرة والأزهار. وانتشر الناس في البراري والغابات يتنزهون. وازداد الطين بلة حيث أمسك فخ زوجها العجوز قرب أحد الحقول لكنها لم تهتم كثيراً بما جرى له. لقد تبلدت مشاعرها. بل صار الأمر عندها سيان. بل قالت: لا ضير فيما حدث. ليذهب إلى الجحيم. إنه يستحق أكثر من هذا..

الذئبة الأم التكللى لم تعد تعرف طعاماً للفرح أو الاستمتاع بالحياة. تذهب إلى دار الصياد نور علي الذي سبب لها آلامها وتقع على باب داره ليلة كاملة. يخرج كلب نور علي البيتي من الدار ويتبعها. حقاً إنه لغبي فهو لا يعرف من هو الذئب وماهي طباعه إنها تداعبه وتلاطفه وتستدرجه شيئاً فشيئاً نحو الغابة مائحة إياه الأمان. وفي غفلة منه تنقض عليه وتمزقه أشلاء لتتهش لحمه دون رحمة وهو ينظر باتجاه بيت صاحبه الصياد نور علي. ولم يبق من الكلب سوى جمجمته، التي وضعتها على طريق القرية ومقدمتها باتجاه بيت الصياد وانصرفت إلى الوكر.

في الصباح يبحث نور علي عن كلبه فلا يجد منه سوى جمجمته ومن خلال آثار الأرجل الثلاث للذئبة الجانية أيقن بأنها هي فتابعها للفتك بها.

حفر في طريقها حفرة كبيرة وعميقة وموها وعلي فوهتها ربط خروفاً هزياً حصل عليه من الكولخوز وجلس بين الأشجار الكثيفة مترقباً. أتت الذئبة إلى الخروف ودارت حوله كعابقتها عدة مرات وهي تتلجظ وتصك أسنانها وقد سال لعابها وبعد أن توقفت برهة قفزت منقضة عليه فوقعت في الحفرة لوحدها حيث كان الخروف مربوطاً إلى شجرة.

هرع الصياد إلى الخروف وجره وفك رباطه ووقف على فوهة الحفرة المظلمة ونظر إلى الذئبة التي كانت تجري إلى القاع وعيناها تقدحان شراً أخذ خروفه معه ومضى إلى بيته.

بقيت الذئبة وحدها وهي تجري وتدور في القاع بتوتر وعصبية وأيقنت سريعاً بأن لا سبيل إلى الخروج من الحفرة والنجاة من الموت الزؤام المحقق أعيائها الجري وخارت قواها وجلست على مؤخرتها ورفعت رأسها وعوت طويلاً كأنها تشتكي للسماء. سمع نور علي عواءها وهو على مشارف القرية. لكنه لم يدرك معنى هذا العواء.

إنها بعوانها الأخير كانت ترثي حالها وتبكي مأساتها وتتدب نهاية حياة مليئة بالمآسي بلغة الذئاب. كانت تندب حظها العاثر وما آل إليه مصيرها اليوم.

ونظمت الذئبة في تلك اللحظات الرهيبة وهي تتأزع الموت وقد أشرفت على
الهلاك مرثيتها بلغة الذئاب تحكي فيها قصتها وقد ترجمت إلى الشركسية هكذا:

أمشي في الغابة دوماً وأنا أعوي
أمشي دون توقف وأنا أبحث عن صيدي
أشم ما حولي في يوم شتوي
والضباب الدالكن يلفني
أشم رائحة خروف هزيل ربطه أمامي
نور علي.

أجري حوله عدة مرات
وأزحف نحوه على بطني
وأقفز عدة أمتار كي أنقض عليه
فأقع في الحفرة التي حفرها لي نور علي

أحاول أن أخرج منها لكن لا أجدوى
ويدب اليأس إلى نفسي

أتيقن من أنني أتجه إلى حتفي

أضع ذيلي بين فخذي وأنا أعوي

أعوي وأنا في قبضة موتي

الرياح العاصفة تبكي معي

فيا تعصي. غداً سيأتي الإنسان

نور علي إلي وسيملخ ههنا جلدي.

□□□

إذا لم ترتدع عن غيِّك فستلتقي يوماً من يردعك

قصة بقلم الكاتب الشرقي،

كراشه تمبوت

■ ترجمة، نسان نوح شورهي ■

في عصر يوم خريفي، كان قد اجتمع عدد من رجال وشباب الجمعية التعاونية الزراعية، في الساحة أمام مقر الجمعية، ينتظرون قرارات الهيئة الإدارية ليتعرفوا إلى قراراتها وهي طازجة، وكالعادة كان العجوز قامبولات أيضاً حاضراً، حيث كان جالسا على المقعد الخشبي الطويل يصغي إلى الحوار الذي يدور بين الرجال. وقامبولات رغم تقدمه في السن، كان لا يترك مناسبة إلا ويحاول المساهمة بها، إذا كان الأمر يخص شؤون القرية ولو بالنصح والإرشاد. ولقد اعتاد رجال القرية وشبابها عليه، وهم يكونون له الاحترام الشديد حتى أنهم باتوا يعتبرونه واحداً منهم، لذا كانوا يتحدثون أمامه بكل حرية دون حرج، ويستمعون إلى رأيه باحترام وتقدير.

محور النقاش بين هؤلاء الرجال في ذلك العصر كان شخصية رئيس العمال في الجمعية، الذي أقبل من منصبه منذ فترة قريبة.

الجميع متفقون على صواب قرار رئيس الجمعية التعاونية بإقالته. ولكن أحد الرجال تسائل لماذا انتظر رئيس الجمعية كل هذه المدة لاتخاذ هذا القرار؟ رغم معرفته التامة بأن رئيس العمال سيء، لا بل هو أسوأ رجل عرفناه! أجابه الآخر: من يكذب على الله يستطيع أن يفعل أي شيء، هو كان يكذب على الله وعلى الجميع وأصبح شاطرأ جداً في مجاراته لرؤسائه، وتقديم الخدمات الخاصة لهم وبالتالي استطاع أن يسخر الجميع لخدمة مآربه الخاصة.

وبحماس قال رجل ثالث: يا جماعة رئيس الجمعية الحالي يختلف عن جميع الرؤساء الآخرين، إنه يملك رأساً.. ومنذ اليوم الأول لتسلمه مهام رئاسة الجمعية

انتبه إلى مشاكلها وأمنياتنا، واستطاع أن ينظف جسم الجمعية من ذلك الدمل (رئيس العمال) فقال أحد الرجال لمثل هذا قال أجدادنا (إذا لم ترتدع عن غيك فستلتي يوماً ما من يردعك) وفجأة توقف الحوار، وساد الصمت بين الجميع وكأنهم يفكرون بمغزى هذا القول المأثور.

وفي تلك اللحظة بدت من العجوز قامبولات حركة لغت انتباه الجميع، عندما أشاح بوجهه جانباً، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خجول، ثم أطرق برأسه نحو الأرض، متمتماً، وملامح الخجل بادية على وجهه..!

لاحظ الجميع سلوك العجوز قامبولات، وأثار تساؤلهم، لأنهم أيقنوا بأن شيئاً ما هز العجوز، لقد بدا ذلك واضحاً للجميع، وبعد هنيهة سألهم أحدهم ما بك يا عزيزنا قامبولات؟ وساد الصمت بين الجميع ينتظرون جواب قامبولات، الذي بدا وكأنه غاص في بحر عميق من الذكريات، وكان حواراً ما يدور بينه وبين نفسه، وبعد لحظة رفع رأسه ونظر إلى الجميع راسماً على شفتيه ابتسامة باهتة من خلال شاربيه الكثيفين، ثم اصطنع سعالاً وقال: ذلك القول المأثور ذكرني بيوم عظيم من أيام حياتي وبسر ذفين كنت أحتفظ به حتى الآن، لم أبح به لأحد.. لأنني كنت أعتبره عيباً شنيعاً أهنت نفسي به. نعم أيها الشباب لكل منا أخطأه.. ثم عدل من جلسته ومسد لحيته ونظر إلى الجميع بختان وقال: سأبوح الآن لكم بهذا السر العظيم، عليها تكون عبرة للشباب، سأروي لكم قصتي التي تنطبق تماماً على هذه الحكمة العظيمة التي قالها أحد أجدادنا إذا لم ترتدع.. نعم.. نعم (إذا لم ترتدع عن غيك فستلتي حتماً يوماً ما من يردعك عن غيك). وهذا ما جرى لي بالضبط في زمن بعيد كان عمري زهاء الخامسة والعشرين، سن الشباب والحماس والطيش والغرور الذي كان يملأ صدورنا وعقولنا فيمنعنا عن رؤية الأمور بوضوح وتبصر.

ولكي تفهموا قصتي جيداً، سأخبركم عن الحياة في تلك الأيام، وعن أسرتي والتربية التي ربيت عليها حسب العادات والتقاليد حينذاك. نشأت في أسرة تتألف من أخوين وأولادهما، والدي وعمي وهو الأكبر سناً، وحسب العادات كان عمي هو صاحب الكلمة العليا في البيت وهو حينذاك كان في الستين من عمره، سن النضج والرجولة الحقيقية، يتمتع بحيوية فائقة، وملتزم بالعادات والتقاليد الشريفة بصرامة وكان يحظى باحترام رجال قريتنا، ولديه صداقات عديدة في المنطقة كلها، اشتهر بين أقرانه بفروسيته وشجاعته ومروءته، لذا كان بيتنا ومضافتنا، لا

تخلون من الأصدقاء والضيوف، وهذا ما أكسبنا احترام الناس وخاصة لشخص عمي، الذي كان يعتز ويفخر دون غرور، عندما يستقبل الضيوف في بيته، ويقدم لهم واجب الضيافة حسب العادات والتقاليد.

وفي داخل الأسرة يسود الود والاحترام المتبادل بين الجميع وكل يقوم بواجبه، حيث يعمل عمي والدي في شتى الأعمال الزراعية وتربية المواشي لتأمين الرزق للأسرة بكل همة ونشاط وتفاهم.

وكننت الولد الذكر الوحيد ضمن أطفال الأسرة، وأنتم تعلمون قيمة الولد الذكر في ذلك الزمن، حيث كانوا يعتبرونه امتداداً للأسرة، الذي سيحمل اسمها مستقبلاً، ومن خلال ذلك حتماً ستفهمون كيف كانت الأسرة تنتظر إلى الولد الوحيد، وكيف يمكن أن يعامل، ليكون جديراً بحمل اسم العائلة، ولقد اختص عمي بشؤون تربيته تربية تليق بأسرته وسمعته العطرة بين أقرانه وأبناء قريته. وبعد الطفولة الأولى من حياتي التي قضيتها مع والدتي ابتدأ عمي تربيته واضعاً في ذهنه أن يخلق مني رجلاً، يتمتع بكل الصفات الحميدة التي تتناسب مع العادات والتقاليد الشركسية في ذلك الحين.

وابتدأ المشوار وأصبحت الأوامر تنهال علي، هذا عيب، هذا لا يليق بالرجال، لا تكن طفلاً، أنت رجل فتصرف بما يليق برجولتك، احترم نفسك.. الخ وفي الحقيقة كنت أنفذ كل ما يريده عمي العزيز، حيث أصبحت في سن الثانية عشرة قادراً على استقبال الضيوف حسب العادات، حيث أسرع إلى باب الحوش هاشاً باشاً مسترجلاً أمام الضيوف الفرسان مبدياً احترامي، وأقول تلك الكلمة قبيلاشه (التي تعني في اللغة الشركسية تفضل لتصبح قريباً لنا) ثم اقترب من الفارس الضيف فأمسك ركاب سرجه الأيمن بيد وبالأخرى لجام حصانه ليترجل الفارس ثم أقود الحصان إلى المربط، لأعود مسرعاً إلى الضيف لأقوده إلى المضافة، حيث استلم منه السوط والعباءة والأسلحة وأعلق كل واحدة منها في مكانها، وبعد الانتهاء من كبير القوم، أتوجه إلى الآخرين بالسلوك نفسه، وبعد جلوسهم، أنراجع إلى الورا وأقف أمام الباب بكل احترام وتبجيل أنتظر طلبات الضيوف لتبيتها فوراً. إلى جانب هذه الأمور، تعلمت كيف أتعامل مع الخيول، ولوازمها ومع الثياب والأسلحة الشخصية، حيث كنت أملك حصاناً ولباساً مثل الرجال، نعم كنت أملك كل شيء رغم صغر سني لأبدو مثل الرجال ولكنني كنت أفقد عنوبة حياة الطفولة، التي لم أجربها، لم أستطع اللعب بحرية كقتراني، لم يكن

مسموحاً لي بأن أعدو بحصاني كما أريد، أو أن أقوم ببعض الألعاب كما يفعل الأطفال في مثل سني نعم نشأت وأنا أفنقد فرح الأطفال وعفويتهم ومرحهم، كان السلوك المطلوب مني هو السلوك المطلوب من الرجال، حسب العادات والتقاليد ودفعت للسير في هذه الطريق الضيق، الذي خنق عبوة الطفولة وسعادتها، واكتسبت مظهر وسلوك الرجال، في البيت والحي فكنت لا أعدو بحصاني في شوارع القرية، وعندما ألتقي بأحد الشيوخ أو النساء في دروب القرية، أترجل عن حصاني، وأعرض خدمتي عليهم ثم أتابع طريقي تماماً كالرجال.

وهكذا أصبحت مثار إعجاب أهل قريتي والضيوف الذين يأتوننا، وكانوا يبدون إعجابهم الشديد بسلوكي رغم صغر سني. في ذلك الزمان لم تكن توجد مدارس، الأطفال كانوا يتعلمون في بيوتهم قواعد الآداب والسلوك، ويلعبون في ساحات القرية، أما أنا فلم ألعب معهم لأن مهامي في البيت وخدمة الضيوف كانت تأخذ كل وقتي نهاراً وليلاً، ولم يكن مسموحاً لي أن أتعجب أو أن أتهاون في تنفيذ كل ما تتطلبه خدمة البيت، وخاصة المضافة حتى بات عمي العزيز يوجهني بنظرات عينية دون الحاجة إلى إصدار أوامره بالكلمات وكنت أفنذ كل ذلك بحماس وحيوية دون أي تدمير أو تلويح خفياً من أن يقال عني كسول قليل المروءة، وفوق كل هذا كان علي أن أكون منبهاً لكل الأحاديث والأخبار التي تروى في المضافة لكي أستفيد منها، لأنها هي المدرسة في العادات والتقاليد وأخبار القوم من بطولات وانجازات للرجال والشعوب، وفي بعض الأحيان كان يطلب مني أن أسافر إلى القرى المجاورة نهاراً أو ليلاً لاستدعاء أحد الرجال، أو لتبليغهم خبراً ما، فما كان مني إلا أن أبدي الاستعداد بكل همة ونشاط، حيث أسرج حصاني وأنتقل إلى تنفيذ المهمة.

وعندما نذهب لأعمال الحقل مع والدي وعمي كنت أيضاً أحاول بكل طاقتي أن أساعدهم في جميع الأعمال، وعندما يهدني التعب كنت أجالد حتى لا تظهر علي مظاهر التعب، فيقال إنني ما زلت صبيهاً، بل كنت أريد أن أظهر بمظهر الشاب القوي، ولو طلب مني أن أستريح كنت أعتبر ذلك إهانة لي، و أظهر جلدي وصبري وتحملي للتعب مثل الرجال. وعندما نعود للبيت كنت أترك الكبار يستريحون من عناء العمل، بينما أقوم أنا برعاية الخيول والثيران طوال الليل، وهكذا بدأ الناس يتحدثون عني كمثال للتهديب والآداب إلى جانب المروءة والصلابة، وكان هذا الإطراء يدفعني لمزيد من الهمة والنشاط لأبدو كالرجال.

فأمعنت في كبت مشاعر الطفولة التي كانت تضع بها أعماق نفسي، وتحاول أن تجد لها متنفساً ولو للحظات. نعم كنت أعيش في صراع عنيف ومرير، بين أن أبدو كما يريد الناس وعمي، وبين أن أترك نفسي على سجيئتها. هنا توقف العجز قابولات عن الكلام وقام بعدة حركات ليعدل من جلسته على مقعده الطويل ثم تابع كلامه قائلاً ليها الأصدقاء إنني أعتقد بأن تربية الأولاد مهمة صعبة سابقاً وهي اليوم أصعب إذا أردنا أن يكون لنا مستقبل أفضل وهناك مجموعة من القيم والمثل يجب أن ننبتة إليها ونربي أولادنا على الإيمان والتمسك بها، إن حب العمل واتقانه، والتمسك بالعادات والتقاليد، والاعتزاز بالنفس، والتخلي بالشجاعة والصلابة وعلو الهمة .

هي صفات أساسية يجب أن يربي عليها الأطفال منذ نعومة أظفارهم، ولكن يجب أن لا ننسى أن للطفولة حقها.. بالنسبة لي ركز عمي العزيز في تربيته لي على الجانب الأول وهو مصيب في ذلك، ولكنه أغفل تماماً الجانب الآخر لم يدرك روح الطفولة التي حاول بشكل صارم خنقها.. ولكنها كانت تتفاعل في داخلي، وتضطرني للقيام ببعض الأعمال التي تنسم بالطيش والرعونة، كأن أقوم بتصرف غير لائق أمام الضيوف أو أن أعود بحصاتي في أزقة القرية، وأهاجم الأطفال الذين يلعبون فيها لأرعبهم. لقد استطلعت لفترة أن أضبط نفسي وأن أكتف هذه المشاعر الصبائية، ولكنها بدأت تلح علي إلي أن صرخت أترك خدمة الضيوف، وأجوب الشوارع متحرشاً بالأولاد متشاجراً معهم إلى درجة إلحاق الأذى بهم، وفي بعض الأحيان كان الأذى يصيبنني أيضاً. مع ذلك لم أكن أشعر بالحدق أو الغضب عليهم، وهذا كان يثير الاستغراب لدى الأولاد، حتى باتوا لا يصدقون أنفسهم، وعندما بدأت الأمور تتطور، نقل هؤلاء الأطفال، تصرفاتي الرعناء إلى ذويهم، الذين لم يصدقوا ذلك بل كانوا يتهمون أبناءهم بالتحرش بي.. لأن قابولات مشهود له بالرصانة والأدب والرجولة.

أصبح سلوكي الأرعن يطل المحرمات حسب وصايا عمي العزيز، التي كانت تؤكد ضرورة مساعدة كبار السن وإظهار الاحترام الشديد للنساء في أي وقت وفي أي ظرف كان. وفي أحد الأيام قمت بمساعدة امرأة عجوز بإيصال حملها إلى بيتها، شكرتني وأثنت على تربيتي. وفي اليوم نفسه التقيت امرأة أخرى تحمل حملاً، تقدمت منها وعرضت عليها المساعدة ففرحت المسكينة وأنزلت حملها عن رأسها، فما كان مني إلا أن أطلقت ضحكة ساخرة في وجهها وهربت

منها.

انتشر الخبران في الحي، فالعجوز الأولى التي ساعدتها، تتحدث عن مروءتي وأدبي، والثانية تتحدث عن رعونتي وقلة أدبي، وهكذا أصبحت مثار جدل بين هذه وأعوانها، تلك وأعوانها حتى وصلت هذه الأخبار إلى بيتنا، وربما إلى عمي العزيز، حيث بدأ يراقبني، ويتتبع خطواتي ولكن دون أن ينبس بكلمة واحدة تأنيبا أو استفسارا، ولكنني أحسست من نظراته أنه يبيت لي أمرا ما، وأنه لن يسامحني على تصرفاتي تلك، وأيقنت أنني سأدفع الثمن غاليا، لذلك بدأت أنتبه لتصرفاتي، وأكتم ما أمكن مشاعري الخبيثة، وأبتعد عن الأعمال الطائشة الغيبة، وأمارس غيبي بحنكة وذكاء دون إثارة أي شبهة. وبدأت تهفو نفسي لممارسة الأعمال السيئة الأكثر أهمية وخطرا، ففكرت بممارسة السرقة، والتي يعتبرها عمي أحقر الأعمال التي يمكن أن يمارسها الإنسان، ولكن الحمد لله لم أقترف هذه النقيصة، لأنها تحتاج إلى رفاق صادقين، وما كنت لأثق بالشبان الذين هم في مثل سني، وفكرت في أن أمارسها مع رجال معروفين بهذه الخصلة، ولما عرضت عليهم أن أشاركهم سخروا مني لصغر سني، ولكن عندما بدأ هؤلاء يدرسون وضعي وامكانياتي، تعرضت لحادث هز كيأتي وأنقذني من التورط بهذه الأعمال السيئة.

وهكذا بلغت سن الخامسة والعشرين، كان مظهري الخارجي يوحي بالشباب المؤدب المهذب العاقل، ولكن في داخلي شخص آخر قامبولات آخر تتصارع في داخله نوازع الخير والشر، وكنت أمارس الأعمال الطيبة بالوقت نفسه وكلما سنحت لي الفرصة أمارس الأعمال السيئة بحنكة ودراية، ونجاحاتي في هذه الأعمال وسيل المديح الذي يكال لي، أوقدت مشاعر الغرور والإعجاب بالنفس، حتى لم أعد أرى أحدا يمكن أن يضاهيني في كل شيء، ليس فقط بين أقراني بل حتى من هم أكبر مني سنا، بمن فيهم معلمي العظيم عمي العزيز، كنت أشعر أنه لا ينقصني شيء سوى حضان يليق بي، لأن الحصان الذي كنت أملكه، لم يعد يتناسب مع مكانتي وأهميتي... سيما أنني أعرف المثل الشركسي الذي يقول (الحصان مرأة الرجل) لذا كنت أبحث عن حضان يليق بي، واهتديت إلى واحد كان يملكه أحد سكان قريتي، فتعلقت بروحي بذلك الحصان الجميل، وبذلت محاولات عديدة لاقتاع صاحبه بالبيع، عنذئذ أخبرت عمي بأنني أريد أن أستبدل حصاني بأفضل منه، ولكنه كعادته قال: عندما نجد الحصان المناسب، ولما أبلغته

بأنني وجدته، حصاناً مناسباً، نظر إلي ملياً نظرة ذات مغزى، ولكنه أردف قائلاً: لنر ذلك الحصان المناسب! وهكذا ذهبنا لمشاهدة الحصان الذي أعجب به، اقترب عني من الحصان ونظر إليه نظرة بامته، ثم بدأ يتفحص قوائم الحصان، وسدرة ومنخره، ومؤخرته دون أن ينيس بكلمة إعجاب أو اهتمام لجمال منظره وحيويته وعنفوانه، ثم نطق تلك الكلمة التي اشعلت نيران الغضب والحنق في نفسي حين قال: إنني لا أرى فيه أية ميزة تفوق حصانك سوى جمال مظهره، وأعتقد بأن قدرة احتماله ستكون ضعيفة.. يفضل أن نترى حتى نجد لك الحصان المناسب،

هنا أصبحت أشك بأن عمي لا يفقه شيئاً في الخيول ويدعي الخبرة والمعرفة، أو أنه أصبح خرفاً، حصان كالتاوس جمالاً وكالتار حيوية تكني نظرة واحدة إليه لتعرف، أنه لا يقارن بأي حصان في المنطقة كلها، ومع ذلك لا يعجب عمي الحكيم فارس الفرسان! هنا ولأول مرة في حياتي، خالفت عمي الرأي وقلت جملة واحدة محاولاً جهدي إخفاء مشاعر الحقد والغضب والاستهزاء، ولكنها تحمل الإصرار والثبات. لماذا سننتظر، إذا وجدنا الحصان المناسب؟ هذا الحصان أعجبني وأريده.. عندئذ رمقت بنظراته التي بت أعرفها جيداً، والتي تقول أنك ما زلت بحاجة للتعليم... ولكن سنتعلم وأردف قائلاً بكل هدوء وثقة: كما تريد، جرب هذا الحصان، ريثما نتعلم شيئاً عن الخيول.. وقد يثبت في الأعراس لئيباهي به... ومنذ أن امتلكت ذلك الحصان، ازدادت غروراً وغطرسة، وتبجحاً في معرفة الخيول، ورحلت أغمر من قنائة عمي وأقرانه، الذين يدعون الخبرة والمعرفة في كل شيء، ظناً مني أنني وجدت حجة قوية للإقلال من معرفتهم فصرت كلما سنحت لي الفرصة، أتحدث عن ميزات حصاني وأبالغ فيها، سيما بعد أن فزت في سباق للخيول في أحد الأعراس، وهذا ما عزز ثقتي بنفسي بأنني متميز بكل شيء حتى في معرفة الخيول...!

صرت أجوب سهوب التفقاس، وأزور القرى في مناسبات الأفراح والأعياد متباهياً متغطرساً معتدلاً بحصاني ولباسي وامكانياتي، ولم أعد أرى ندا لي في تلك السهوب. حتى جاء ذلك اليوم الذي اهتز فيه كيائي، وقلبه رأساً على عقب.. يا له من يوم لا ينسى أبداً.. أبداً. لننظراً لا يجوز هذه الجملة الأخيرة وهو يهز برأسه ثم خلع قبعته السوداء، ومسح جبهته ورأسه ثم أعاد القبعة على رأسه وتابع حديثه بتأثر واضح. كنت عائداً من قرية (هرذ) وبعد أن مررت بقرية (دجركي) متجهاً نحو قرية (حكورن حبله) التقيت بفارس عجوز، في البداية فرحت أنني

التقيت برفيق طريق، قد يؤنس وحدتي في تلك البراري الشاسعة، فأسرعت الخطى حتى لحقت به، فوقفت على يساره وألقيت عليه التحية قائلاً (ليكون طريقك مباركاً أيها الكبير المحترم) فالتفت العجوز نحوي، وتأملي ملياً من قمة رأسي حتى قوائم حصاني. ولمحت في عينيه شيئاً من السخرية، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة وقال: لتكن محظوظاً أيها الشاب الأثيق.. تلك الابتسامة والنبرة التي فيها شيء من السخرية، أثارت غضبي، وأيقظت كرهى لهؤلاء المسنين الأدعياء، الذين لا يعجبهم العجب.. وقلت في نفسي هذا واحد من أولئك الذين لا أحبهم. التفت إليه بقلب حائق ونظرات فاحصة وتأملته جيداً، ساءني أنني لم أجد في مظهره العام شيئاً غير لائق، لا بل هناك انسجام تام بين زيّه وأسلحته ولوزام حصانه دون زيادة أو نقصان، كما يليق بذلك الزمان، حيث كان يلبس الزي الشرکسي (تسي) الذي يتناسب مع جسمه وسنه بشكل مريح، وأسلحته المفضضة التي أزيل عنها بريقها من النوعية الجيدة، وكذلك لوازم الحصان من سرج ولجام المصنوعة من الجلد المرن المزين بالفضة، إلا أن حصانه كان قبيحاً بغطائه النابتة، يبدو وكأنه ينوء بحمله، ورغم ذلك قلت في سري، هذا واحد من الأدعياء سيما أنني لمحت حزام سرجه مرناً، وكأنه يبدو لا مبالياً بالطريق وأخطاره وبينما كنت أتفحص كل شيء فيه، رأيت في يده اليمنى سوطاً ذا مقبض مصنوع من القصب المزخرفة، وبت أرقب حركة يده لكي أمعن النظر بذلك السوط الجميل الذي سلب لبي والذي لم أر في حياتي أجمل وأدق صنعا منه. ولم أستطع ضبط نفسي رغم معرفتي أنه من المعيب أن يطلب من هو في مثل سني من رجل عجوز غريب أن يعطيني السوط كي أتفحصه.. ومع ذلك أبديت إعجابي بالسوط، وطلبت منه أن يعطيني إياه لأتأمله عن كثب، فنظر إلي نظرة ملوها العجب والاستهجان من وقاحتي، تريت قليلاً ثم مد السوط إلي دون أن ينبس بكلمة أخذت السوط وقلبت بين يدي، ثم سلطته عدة مرات... وهنا تساءلت ما حاجة هذا العجوز لمثل هذا السوط النادر البديع، أنست أجدر به منه، وبدأت أقلب الأمر في خاطري، ماذا لو أخذت هذا السوط وهربت به، ماذا يستطيع أن يفعل هذا العجوز الذي لا أعرفه، وقد لا أتقي به مرة ثانية، ثم إنه لن يفكر باللاحق بي وهو يركب ذلك الحصان القميء، أين هو من حصاني الناري.. وفجأة لكزت حصاني وانطلقت به قاتلاً للعجوز: هذا السوط جدير بالشباب وليس لمثلك! فأجابني لا تفعل ذلك أيها الشاب المحترم، ولما رأى أنني مزعم على غيبي، أردف قائلاً مرة ثانية، لا تفعل ذلك أيها الشاب إنك ستندم على فعلتك هذه... ولكنني أجيته بضحكة مجلجلة ساخرة، وأرخيت العنان لحصاني

فانطلق يعدو في السهوب الرحب.

بعد لحظات التفت إلى الورا، فرأيت العجوز وقد ترجل عن حصانه وشد حزام السرج، ثم امتطى الحصان وبدأ يلكره أملاً بالحقاق بي، وهنا أيقنت أنني كنت محقاً في رأيي حول حمق هؤلاء الشيوخ، تصوروا يزمع للحاق بي بذلك الحصان، الذي لم أر فيه من صفات الحصان إلا اسمه، وهنا رضيت عن فعلتي مع ذلك العجوز، وتابعت طريقي.

وبعد أن قطعت شوطاً من الطريق التفت مرة ثانية ورائي، وإذا بي أرى العجوز يعدو بحصانه نحوي، بكل حيوية ونشاط، لقد انطلق ذلك الحصان القبيء يعدو وكأنه سهم انطلق من قوس شاب قوي، حتى أنني لم أر قوائمه تمس الأرض، بينما انحنى العجوز على حصانه وكأنه قطعة من سرج الحصان وهنا ساورني الشك، ترى هل هذا الفارس الذي أراه الآن هو ذلك العجوز نفسه، وهذا الحصان هو ذلك الحصان نفسه القبيء، وعندما أمعنت النظر، أيقنت أنهما بالتأكيد هما، ولا مجال هناك للشك، والعجوز مصمم على اللحاق بي والأمر ليس مزاحاً.

لكرت حصاني، مستخدماً السوط الجميل أحته على الجري بأقصى سرعته، ولكن عندما التفت مرة أخرى ورائي، عثقتي أن المسافة أصبحت قصيرة بيني وبين العجوز، وأنه مصمم على اللحاق بي وحصانه يعدو بحيوية ونشاط أكثر من ذي قبل، بينما حصاني بدت عليه مظاهر التعب والإرهاق، حتى بات يتنفس بسرعة أكبر وهو يسبح بعرقه، فتسلل الخوف إلى نفسي، ورحت أستخدم السوط بشكل متواتر، والتفت إلى الورا كل لحظة لقد اقترب العجوز مني حتى أنني رأيت عينيه اللتين تقدحان شرراً، بينما حصانه منطلق مثل رصاصة انطلقت من فوهة بندقية، وشعرت بأن الرصاصة تكاد تصيبني.

هنا احترت في أمري سيما وأنني اقتربت من قرية (حكورن حيله) فماذا سأفعل لو رأى أهل القرية هذا العجوز، وهو يلاحقني بهذا التصميم والثبات، لأيقنوا بأنني اقترفت ذنباً شنيعاً، وعند ذلك حتماً سيقتلون بوجهي.. لذا تركت طريق القرية، واتجهت نحو الأراضي المفلوحة قرب نهر (خوراج) وهنا كانت الطامة الكبرى لأن حصاني العظيم... لم تعد لديه القدرة على العدو، وأصبح يلهث مثل الكلب وزبد عرقه يغطي جسمه، حينئذ فقدت الأمل نهائياً لذا رميت السوط اللعين على الأرض عله يتركني. وكم كانت دهشتي عظيمة، عندما انحنى ذلك العجوز عن حصانه والتقط السوط عن الأرض متابعاً عدوه ورائي.. ثم رأيته وقد

توقف قرب شجرة صفصاف، حيث استل خنجره واقتطع من الشجرة غصناً مرناً، ثم تابع عدوه نحو، وعندما اقترب مني انهال بذلك الغصن المرن على ظهري بضربات كانت تلسع جسمي وتشعل النار فيه وأنا غير قادر على إبداء أية مقاومة، سوى محاولات يائسة للتهرب من ذلك الغصن اللعين.

توقف العجوز فجأة وقال: يا بني قل لمن قام بتربيتك إن مثل هذه التربية هي التي تناسب أمثالك.. وبكل هدوء، أشاح بوجهه عني وقاد حصانه متابعاً طريقه.

أما أنا فكنت مثل الكلب، الذي تلقى علفة ساخنة من صاحبه، فأصبح ذليلاً كئيباً مسكيناً، رفعت رأسي لأودع ذلك الفارس.. بنظرة يائسة، فرأيت حصان العجوز يمشي بكل حيوية ونشاط، وكأنه لم يحم بأي جهد، لابل هو أكثر نشاطاً وحيوية مما رأيته لأول مرة، وهنا أصدقكم القول يا أحبائي لقد أثر ذلك في نفسي أشد تأثير، ربما أكثر من تلك الضربات النارية التي انهال بها ذلك العجوز على ظهري، لأنني أدركت الآن، كم كنت غيبياً ومغروراً وقليل الخبرة والمعرفة، حينما حكمت على ذلك الحصان من خلال مظهره العام، وبأن ذلك العجوز لا حول له ولا قوة سوى الادعاء بالخبرة والمعرفة في شؤون الحياة.

نعم لم أدرك معنى العبادات والتقاليد التي تفرض احترام كبار السن، لم أدرك قيمة الخبرة التي يمكن للإنسان النبيه أن يخزنها في حياته، والتي تتجلى في سلوك ومعرفة كبار السن، فشعرت بمرارة الإهانة والخواء التام، فاحتقرت نفسي، وأدركت أنني صغير جداً...

ثم أطرقت رأسي، وفكرت بما جرى لي خلال هذه الساعة من الزمن.. لقد استطاع هذا (الشيخ) للحكيم.. وخلال هذه الساعة أن يعصرني كما تعصر الخرقاة الوسخة. وكبرت في ساعة سنوات عديدة.

تهددت تنهيدة عميقة ثم زفرت زفرة حملت معها كل الخبايا التي عشت في أصاقي نفسي. اتجهت إلى ضفاف نهر اللابا، وترجلت عن حصاني المنهك ثم خلعت ثيابي وبدأت أمسح جسمي المدمى بمياه اللابا.. استرجعت بذهني سنوات عمري الخمس والعشرون، تذكرت أسرتي وأملها الكبيرة التي تركزت حولي، تذكرت عمي الحكيم وتربيته لي ونصائحه وتوجيهاته ونظراته ذات المغزى العميق، وأدركت الآن مدى حكمته وتجربته العميقة، عندما كان يقول لي عندما

تتعلم.. عندما تفهم.. وتذكرت عريديتي وطيشي وغروري واستهائتي بالكبار وخبرتهم، ومحاولاتي للإساءة إليهم إن هذا الشيخ الجليل وحصانه أعطيناني درساً لن ينسى مدى الحياة أخيراً التقيت من استطاع أن يردعني عن غيبي، وبقيت هكذا أقلب صفحات تاريخي.. وأنا أرنو إلي تدفق مياه نهر اللابا الصافية، حتى مالت الشمس نحو مرقدها نهضت متثاقلاً نحو حصاني العتيده.. الذي استرجع بعض قواه، فامتطيته واتجهت نحو البيت كسير الفؤاد هادئاً متعباً خائفاً، من أن يكتشف أحد ما قصتي مع الشيخ ولما وصلت البيت تناهت إلى سمعي بعض الأصوات من مضافة عمي، فاستجيت إليها وما أن وضعت قدمي على عتبة الغرفة ورفعت رأسي لألقي التحية، حتى جمدت الكلمات في حلقي من هول المفاجأة، يا لهول ما رأيت (العجوز) بشحمه ولحمه جالس يتحدث مع عمي.. التفت نحو ي ورشفتي بسهم عيني بنظرة زلزلت كياني، ثم أشار بيده نحو ي وقال: من أرى؟ أليس هو الشاب العجيب الذي نتحدث عنه.. فما كان مني إلا أن استدرت وخرجت مسرعاً من الغرفة هارباً بخزيي وعاري..

وهكذا عشت سنة، لا أستطيع النظر في عيني عمي، والعجيب في الأمر أن عمي لم يسألني عن تلك الحادثة، ولم يتحدث عنها مع أحد حتى مع والدي، ويبدو أن الشيخ أيضاً لم يتحدث عن تلك الحادثة مع أحد، وبقيت تلك الحادثة سرا بيننا نحن الثلاثة.. وهذا أيضاً أعطيناني درساً آخر، فهمت ما معنى أن يكون الإنسان إنساناً بعمله وخبرته ونباهته وحكمته. لقد فكرت كثيراً وأيقنت تماماً أنهم جديرون باحترام العميق.. تهده العجوز قامبولات تهيدة عميقة، وهز رأسه ثم أردف قائلاً للرجال من حوله الذين كانوا يستمعون إلى حديثه بصمت واحترام نعم أيها الأصدقاء منذ ذلك اليوم أصبحت رجلاً آخر، وأدركت أن قيمة الإنسان، هي بقدر مواقفه الإنسانية، وأدركت أيضاً أننا لكي نعيش مع الناس يجب أن ننسجم مع قيمهم وعاداتهم ويجب أن نحترم نفسك، ونحترم الآخرين، وباختصار إذا كنت إنساناً فيجب أن تعيش كإنسان.

عصفور الجنة

تأليف: م. بوريس

ترجمة: سميرة عز الدين أمشوقه

كانت الجدة (لوتسه) جالسة في المطبخ تتأمل يديها النحيلتين الناعمتين كالحرير من كثرة جلي الصحون وغسل الثياب، وذلك بعد أن ودعت بنظراتها كنفها وحفيدها الصغير، فكانت تصغي إلى وقع أقدامهما لتحس به كوخزات في قلبها، إلى أن تلاشى ذلك الصوت، وبقيت مرة أخرى وحيدة في الشقة الصامتة الهادئة، إلا من صوت الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار، وحتى العصفور الصغير في قفصه الجميل كان قد توقف عن تغريده، وكأنه يحافظ على حرمة سكينة البيت. نهضت الجدة مثاقلة، واتجهت نحو النافذة، واتكأت على حافتها، لترشق الشارع الذي يعج بالناس مثل خلية النحل، وبحثت بعينها عن كنفها وحفيدها الحبيب، إلى أن رأتهما في الجانب الآخر من الشارع حيث أمسكت الأم بيد ابنها لتجره جرا وكان قدميهما كانت قد التصقتا بالأرض وهو ينظر إلى الناس من حوله كما لو أنه كان يتمنى أن يبقى في حضن جدته في هذا الصباح الباكر بدلا من أن يُجر إلي حيث كان أقرانه يلعبون في روضة الأطفال. بيد أن والديه كانا قد قررا ذلك رغما عن إرادة جديته التي كانت قد توسلت إليهما من أجل أن يبقياه عندها في البيت، لكنهما كانا مصرين على أن يكون مثل بقية الأطفال، لأن ذلك سيفيده في تحسين لغته ويجعله اجتماعيا. ابتسمت الجدة وكأنها تسخر من حججهم وقالت: كأنني لست أنا التي ربيت والده محي الدين، ألم أجعل منه إنسانا محترما بتفكيره وعلمه وسلوكه.. كما يقول الجميع. ولكن ما العمل هكذا يفكر أناس هذا الزمن. بقيت الجدة (لوتسه) واقفة أمام النافذة حتى شعرت بوخزات أشعة الشمس الحادة في عينيها، فالتفتت إلى داخل المطبخ وجالت بنظراتها في أنحاءه، لتجد أن أعمالا كثيرة تنتظرها.. جلي الصحون.. غسل ثياب الحفيد.. ترتيب المنزل.. وفوق ذلك كله الذهاب إلى السوق وشراء ما طلب منها.. فقالت في سرها يا إلهي

كم بت أكره كل هذه الأمور.. إنني أكرر الأعمال ذاتها بالرتابة نفسها ضمن هذه الجدران الصماء وحيدة دون أنيس أو أوليف يؤنس وحدتي.. كل يوم.. وكل شهر.. وكل سنة الحالة المملة القاتلة ذاتها.

لم تستطع الجدة (لوتسه) البدء بأداء تلك الأعمال.. ونأت بنفسها ضجرة وحزينة.. ثم عادت إلى الشرفة التي تطل على ساحة الحي المليئة بالأشجار الخضراء والأعشاب والزهور، ورأت الأطفال يصرحون في الساحة، وكان بينهم ولد من قريتها ذو شعر أسود، ووجه مقورد، اشتهر في الحي بحيويته ونشاطه.. ومع ذلك كانوا يتحدثون في الحي عن تفوقه في دراسته.. دون أن ينسوا في كل مرة اتهام جدته التي تربي عندها في القرية حتى السابعة من عمره بأنها هي السبب في تنشئته هذه النشأ (شقي وكثير الحركة).. غريب أمر الناس في هذا الزمان.. لماذا يعتبرون حركة الأطفال ونشاطهم عيباً؟!.. لماذا يرغبون في أن يكون الأطفال مثل العجائز.. وفي تلك اللحظة تمنيت الجدة (لوتسه) لو كانت في القرية.. كانت ستعطي هؤلاء الأطفال التناح المحفوظ في قبو البيت.. وسألت نفسها إنني أرى الأشجار في المدينة كثيرة على جانبي الشوارع وفي الساحات، ولكنها غير مثمرة، لماذا لا يزرعون أشجار التناح والإجاص؟ كي يأكل الأطفال تلك الثمار!..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وتذكرت الجدة (لوتسه) حديقتها في القرية تلك التي كانت تحتوي على أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة، والتي كانت مباحة لجميع الأطفال أن يأكلوا من ثمارها ما يشتهون أكله.. أه كم كانت لذيدة تلك التفاحات المجففة.. وكم كانت سعادة الأطفال بها كبيرة.. لاسيما عندما كانوا يبحثون في أواخر الخريف عن بقايا التفاحات المعلقة في الأغصان العالية.. وأضافت الجدة.. أه لو استطاع أن يلعب هؤلاء الأطفال، وبينهم حفيدي، في بساتين القرية كم ستكون سعادتهم عظيمة وصحتهم جيدة.

ولمحت الجدة مقبض غطاء علبه القمامة وكان على شكل ديك فقالت هازئة.. وأنت يا ديك المدينة.. صورة ديك فقط.. الديك هو من يحمي الصيصان وأمهم الدجاجة.. والذي ينبش التراب بمخالب رجليه باحثاً عن البذور كي يدعو أبناءه لانتقاطها. أما أنت فأنت مقبض أصم.. ولا شيء آخر!! وتذكرت الجدة كيف كانت قد اشترت مرة ديكا كبيراً من السوق وأنت به إلى البيت لتشتري بعد ذلك

دجاجة أو دجاجتين من أجل أن تلتقط البيضات الطازجة من تحتها وتطعمها لحفيدها، وخبأت الديك في الحمام، وفي فجر اليوم الثاني استيقظ أهل البيت مع صياح ذلك الديك، وكم كانت سعادتها كبيرة بصوته الذي اعتبرته لحناً رائعاً، ولكن فرحتها لم تكتمل إذ أن ابنها محي الدين ما إن علم بذلك حتى دخل المطبخ باحثاً عن سكين حادة وقال: (نانا)

سأذبح الديك قبل أن أذهب إلى العمل.. فلم تستطع أن تقول شيئاً، وهكذا فشل مشروعها.

بينما كانت لوتسه تستعيد كل تلك الذكريات سمعت صوت بائع الحليب فتذكرت أنه قد حان موعد ذهابها إلى السوق، فحملت الحقيبة، في يد وأقفلت الباب ومضت لتشتري ما يلزمها من حاجياتها، وهي تتمنى في أعماقها لو أنها كانت تزاوُل تكسير الأحجار من أن تقوم بتلك المهمة الشاقة بالنمسية لها، إذ كانت تكره مساومة البائعات من أجل قروش قليلة وتتحاشى رؤية بائعات من نساء قريتها، إذ كانت تتذكر أنها كانت مثلهن، وتتضامن عندما كن يقدمن لها بعض الفاكهة، وتتهرب من الإجابة على أسئلتهم عن أحوالها في المدينة، وتكره أن تقول لهم الحقيقة: أنها غير سعيدة في المدينة، وتقول في سرها: من أين لك أن تكوني سعيدة وأنت تعيشين في قبر من الحجارة دون أن تجدي طوال النهار من تتحدثين معه.

وبينما كانت الجدة لوتسه تمر في قسم الدجاج من السوق أمسكت إحدى النسوة بذراعها قائلة: مرحباً يا لوتسه.. كيف تمرين أمامي وكأنك لم تريني أو أنك أصبحت مثل نساء المدينة لا تذكرين صويحاتك!... وعندما التفت لوتسه عرفت تلك المرأة إنها (فريزات) ذات الشعر الأبيض والوجنتين المحمرتين الممتلئة حيوية ونشاطاً.. وكانت فريزات سعيدة برؤية ابنة قريتها (لوتسه).. فما كان من الجدة لوتسه إلا أن سألت صديقتها القديمة عن صحة أولادها وهنأتها بزواج ابنها الأصغر وأبدت لها رغبتها في زيارة القرية.. ولكنها أوضحت لها أن أعمالها لا تسمح لها بتحقيق تلك الرغبة.. ثم سألتها عن أخبار القرية وبدأت (فريزات) تروي لها جميع أخبار القرية، ولم تنس أن تصارحها بأنها غير مقتنعة بحجة لوتسه بأن مشاغلها لا تسمح لها القيام بتلك الزيارة وسألتها عن طبيعة تلك المشاغل التي تتحجج بها مع أنها مرتاحة في المدينة.. لا تعمل في الحديقة ولا ترعى الدجاجات ولا تقوم بأي عمل متعب كالذي تقوم به نساء القرية.

ودعت الجدة لوتسه صديقتها (فريزات) وعادت أدراجها إلى البيت وقد تعكر مزاجها.. وكان ما أثار شجون لوتسه قول صديقتها لها بأن بيتها القديم الذي كانت قد باعته في القرية.. معروض للبيع من قبل صاحبه.. وعندما وصلت لوتسه إلى الحي نظرت إلى البناء الذي تقيم فيه فشبهته بقبر من الحجارة فتمنت لو أنه يتهدم وتتخلص منه وقالت في سرها إن بنات قريتها يظنون أنها سعيدة وأضافت آه لو كان بوسعي أن أبوح لهن بما يعتلج بصدري لأذكرهن بأنهن يقضين أوقاتهن في الهواء الطلق. تعملان في حدائقك وفي فسحات بيوتكن ومع صديقاتكن وتربين أحفادكن كما تشاؤون، أما أنا فإنهم يرسلون فرحتي الوحيدة التي هي حفيدي إلى الروضة ويتركونني وحيدة في هذا القبر.

بدأت الجدة لوتسه بترتيب البيت.. وعندما وصلت إلى المكان الذي فيه القفص نظرت إلى العصفور الصغير الذي يتنقل من زاوية إلى زاوية وهو يغرد قليلاً ثم يصمت.. فقالت له: أنت عصفور جميل وطيب تغرد من أجل سعادة الناس من حولك.. لكن تغريدك هذا ما هو إلا ألحان حزينة ترثي فيها لحالك في هذا السجن.. فأنت يا حبيبي قد خلقت كي تطير في الفضاء الرحب بين السماء والأرض وحول الأشجار والأزهار مع أقرانك العصافير، لكنك الآن مسجون في قفصك الجميل دونما أولاد أو زوجة تؤنس وحدتك، ومسحت الجدة لوتسه يديها ثم فتحت باب القفص، ودهشت من العصفور الذي لم يغتم الفرصة ليخرج من سجنه كما لو أنه قد نسي الكون والفضاء والسماء، ومدت الجدة لوتسه يدها وأمسكت بالعصفور وحملته إلى الشرفة وفتحت كفها بيد أن العصفور لم يطر!!! فما كان منها إلا أن قذفت به إلى الفضاء وبدأت تراقب سلوكه، فإذا لها العصفور مرتبطاً لا يحسن الطيران بل يقوم بحركات عشوائية وكان الهواء الحر الذي دخل إلى صدره كاد أن يخنقه ولكن بعد فترة من الزمن استجمع قواه وطار في فسحة الحي ثم عاد بعد هنيئة منهك القوى ليحط على حافة الشرفة فشعرت الجدة بقشعريرة تهب كياتها رعباً من أن يكون مصيرها بين جدران هذا القبر الحجري مثل مصير العصفور المسكين. ولكن كان هنالك ضوء أمل خافت.. يضيء حياتها.. بيتها القديم في القرية حيث عاشت ووضعت فيها ابنها محي الدين وربته.. صاحبه الجديد يريد أن يبيعه.. ربما.. من يدري؟!..

□□□

جدل الأرواح

بقلم ، ليقوج نيللي

■ ترجمة ممدوح قوهوق ■

عظمتان تخارجتا وانفلقشت إحداهما عن الأخرى هما الحياة والزمن. يحصي العام شهره كما تفعل آلة كورديون ذات اثني عشر إصبعاً. وفي أعماق موسيقى الزمن تتردد أصداء الريح وهمهمات المطر وهسيس الثلج وهزيم الرعد ودوي البرق، كما تنساب ألحان الفرح وإيقاعات الأحزان والمرثي من آلة موسيقية واحدة.

العالم وحدة متناقضة، كما قوس القزح الواحد ذي الألوان السبعة المتناسقة المتخارجة. وما يحدث في العالم هو نتيجة التضاد والتعايش بين الحياة والموت، الذكورة والأنوثة، الخير والشر، الحرارة والبرودة. هنالك قوتان تمسكان بكل هذه المتناقضات، وتحفظها في حالة من التوازن، وفي مفاتيح عن الاختلاط والفوضى، هما قوة الحب وقوة الروح. هاتان القوتان لا يمكن رؤيتهما بالعين المجردة مهما صفا الجو، ولكن لا خوف من نهاية العالم طالما استمر دورهما في الحياة.

الروح والحب. هنالك من ينكر وجودهما. أمثال هؤلاء لا يستحقون إلا الشفقة. أين بدايات الروح والحب يا ترى؟ لا شك أن هذه البدايات هي في سويداء قلب الأم. ولكن أين نهاياتهما؟ هل صدقنا القول أن الروح خالدة لأننا لا نريد الضياع في العدم؟ أم أننا نبني آمالاً كاذبة انطلاقاً من كونها لا ترى بالعين؟! روعي الثقة على وجودي كله الآن جزء من جسدي، والحب يملأ قلبي، فلماذا يلحان عليّ بالعودة إلى السماء كلما تطلبت الروح الرقي درجة في سلم السموم؟ وكلما سمت الروح، وكبر الحب، فإنهما يسعيان لتجاوزي ولمعانقة كل الأحياء. وخلال هذا كله تنمو روحي وتكبر. وتفتح عيناها وتزيد قدرتهما على الإبصار، وتظنران نحو الأفاق البعيدة مصممة على أن لا تخيب نظراتهما، فينجلي لهما ذلك الجمال الذي لا يمكن وصفه لموطن الأرواح، حيث تسبح الهوينا في النور. انظروا

إلى ضياء هذا النور وتأملوا. إنه يشعُ في وجوهنا، يغشي أبصارنا، ويدغدغ أرواحنا. هكذا نستطيع القول إن كل شعاع من أشعة الشمس هي روح ، روح صافية نقية . من أجل ذلك تتمتع الشمس بكل هذه القوة والقدرة. ومن أجل ذلك هي مستودع هائل للضوء والدفاء، تنتشر أهداب الحياة في أعماق الفضاء. وتهمس لي بأن حياة جديدة لا تدبُ على الأرض إلا عندما تلامس أشعة الشمس قسرتها.

أنصتوا إلى أغنية أشعة الشمس: أه ما أحلى الحياة وما أجملها، أسمعون؟

لا يجدر السماح لعين حاسدة برؤية قرص الشمس عندما تطلُّ من فم السماء كصفار بيضة.. كلما اشتدت أشعة الشمس وانسابت، فإن روحي تتساب من بين أضلعي تاركة جسمي في حالة من الارتخاء، وتحلق في الهواء كخيوط حريري رفيع متجهة إلى الوادي القريب. وأغذ الخطى للحاق بروحي كما في كل مرة، حتى يسدُ النهر الملقى على أديم الأرض كشریان طريقي.

وتندافع أمواجه اللطيفة الزرقاء فوق ظلي. وينساب النهر الذي يتلوى كأفعى محررا نفسه من بين أصابع أشعة الشمس التي تحاول الإمساك به. وتندافع الحصى والزمال على ساطع النهر متأرجحة بين الإقدام على الاندفاع مع التيار أو الإحجام عنه، وكأنها ترقص على أنغام الريح.

ها هو رجل الغابة يراقب من مكمنه بين الشجيرات، حورية النهر التي تسبح نحو الضفة، وهو على أهية الرقص. وتلتف الغابة الشعثاء على خصر الجبال العالية التي تطلُّ وسنى على الوادي من الشمال ومن الجنوب. والأشجار الباسقة تتناجى مستسلمة لأحضان النسيم. وكل ما تراه العين يؤكد لنا كم هو ثري عالمنا هذا بأحيائه، وبشمسه التي تنفخ الروح في كل ما تمسه أسعته.

وأسحب ظلي من فوق صفحة الماء التي تعكس صورتي كالمرآة وأنا أتطلع بعينين ثاقبتين إلى حدود وطني. وأجلس متكئة على يدي أتمرغ في أشعة الشمس ووجهي إلى السماء. يخيّل إليّ وأنا في مكاني هذا كأنني أحضر اجتماعاً للأرواح. يقول أحدها: (لو كنت أملك من راحة العقل نصف ما كان لديّ من شجاعة في حياتي الحافلة، لما انهارت مملكتي. وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت ذلك تحقق. ليت.. ليت..)) ونقول روح أخرى: (كنت شديد المراس في المصارعة، ولم أتوقع خنجرأ في الظهر. لولا الخداع..).

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول روح
ثالثة: (كنت أطلق سهمي فيصيب الهدف الذي أهدده له، ولكن لم يخطر ببالي أن
أخاً يمكن أن يبيعني..).

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت) وتقول الرابعة:
(كنت دوماً في المقدمة عندما ينطلق شجعان الوطن. وعندما نصطدم بالعدو كنت
كالترس، لا أترك عدواً حياً ورائي.

كم كان هلاكنا قاسياً ونحن نقدم أفضل ما لدينا)...

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول
الخامسة: (بالزور والبهتان دفعوا بنا إلى دروب التهجير، فأصبح البحر الأسود
لحداً وماءً للغسول..).

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول
السادسة: (كانت لدينا أفكار عظيمة من أجل الوطن، ولكن اعتبرونا من أعداء
الوطن)...

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليت، ليت، ليت). وتقول
السابعة: (كان أكثر البحاريين أباً وابنه، وبقي الأحفاد يتامى لا يدرون ما
يفعلون)...

وتنهض أشعة الشمس مؤيدة تلك الروح: (ليتهم يستلمعون أن يتحدوا
ويتضامنوا)..

وبعد سماع هذه الأقوال أغضُ بصري وأنظر إلى الأرض بشاقل، وأركز
نظراتي على الدودة التي زحفت نحو قدمي وأخذت تسلق ساقي. وترتجف خلاياي
على إيقاع دبيبها على جسدي وترتعش روحي وتتأرجح. وفجأة يخيّل إلي أنني أفهم
لغتها التي لا تلتقطها أذناي: (يستطيع هذا المخلوق أن يزهر روحي بلمسة واحدة
من يده. ولكنني لو عثرت عليه ميتاً لتقبت جسده وحولته إلى منخل.. تقوده، إن
رائحة الروح تفوح منه، يا لها من رائحة!).

أبعد الدودة عن ساقي متأثراً بما سمعته. وأركض نحو الماء، وألقي نفسي
في أحضانه، وأفتح عيني تحت الماء ببطء وأنظر حولي. ويعاودني الهدوء تدريجياً

وأنا أنظر إلى فراخ صغار السمك التي تتقارب ويصطدم بعضها بعضاً وتتباعده. وأسمع من جديد صوتاً. من سمع في حياته صوت السمك الذي قال إنه أبكم؟! وتألف روحي الكلمات تدريجياً وتهم معانيها: (هل جئت أنت أيضاً لتأكلنا! اخرج من هنا نحن لا نتجاوز حدود الماء لأننا لا نستطيع التنفس على الأرض، هذا هو عالمنا. هذه المخلوقات الغدرة لا تستطيع التنفس في الماء، ومع ذلك لا تتركنا وشأننا. تمسك بنا عنوة ولا تتركنا حتى نخنق بعيداً عن الماء.. مهلاً.. هل كان أجداد هذا المخلوق طعاماً لأجدادنا في يوم من الأيام!.. هيا قدم روحك قرباناً للماء يا رسول حامل الشبكة اللعينة، فنحن نستطيع تدبر أمرك حين تغادر روحك)...

وعندما جعلت هذه الكلمات المرة روحي تأنف الماء، غادرت الأمواج وقطرات الماء تتساقط من فوق جسدي وأنا أجرجر روحي المبتلة. وعندما استسلمت لأشعة الشمس لأريح روحي التي أنهكها الماء والكلمات، خلق نسر من نسور الجبال فوقى وهو يجتف في الهواء بجناحيه وصاح بأعلى صوته من فوق: (إيه يا ابنة من أحكموا سيطرتهم على الأرض وراهم تاريخ غارق في الضباب وأمامك القمة الصعبة المرتقى، لولا أن باطن الأرض مصيرك، ماذا كنت ستفعلين! إنني تواق لأنتر بؤيز عينيك).. وتتناثر روحي التي سمعت كل هذا إلى شظايا وتنترق مذعورة في أنحاء جسدي. كنت سأقبل التضحية بعمرى لو عرفت أن كل الأحياء يمكن أن تتعايش في ونام.

ويهبط المساء ونيذاً. وتمسح الريح أديم البشرة تاركة فوقه قشعريرة باردة لأن الشمس بدأت تلملم أشعتها. وفي حين أقف مطرقة، أحس فجأة بشيء يطير عبر الوادي وهو يرسم خطوطاً في الهواء بلغة لا أعرفها. فأدقق النظر في كل الاتجاهات بحثاً عنه دون جدوى، وتشككي روحي التي لم يعد يطيب لها المقام بجانب النهر. ولكن لا يهدأ لي بال في البيت أيضاً. ولأنني أبحث دوماً عما لا تراه العين، فأبني لا أجد مجالاً للراحة. إن صوته يرن في الفضاء، ولكن أين هو؟ أفتح نافذة الشرفة لنطل منها روحي.

(ها هو!، ها هو!) لقد بدأت أرى شيئاً. إنه يبدو تارة مثل طائر اللقلق محلقاً بجناحيه في الفضاء الرحب. ثم تراه كحصان أصيل ضامر محجل يطير عن جبين السماء. يبدو للوهلة الأولى وكأنه قزم.. ويظهر بعد ذلك كبطل عملاق. وفي كل الأحوال إنه غريب وغريد كأنفتاح أبواب السماء في ليلة القدر.

عرفت روحي أن هذه الأوصاف لا يمكن أن تتطبق إلا على روح، وروح إنسان حي طارت بحثاً عن الأمان لأرواحنا. لولا الحول الشديد واختلال قدرة عين الإنسان على الرؤية، لكان بإمكانه أن يرى الأرواح المزدحمة حوله في كل مكان. لقد اتضح لي كل شيء الآن. أينما كانت الأرض التي جاءت منها هذه للروح الطائرة، فلا بد أن تكون أحد معارفي، وإلا لما شبهتها بالقلق أبداً. إن روحي أخبرتني منذ زمن بعيد أن بيني وبين اللقلق صلة قربي.

وتجلس روحي أمامي توشوشني لتشرح لي الأمر وتريده إيضاحاً. إن الروح التي طارت هذا المساء فيما يبدو هي (روح الحداد) غوكابسة إليه الحديد نفسه (لبش) هو الذي سقاها وهياها للطيران. أما التي ربه، وغنت له أغاني المهد فهي (بسوخو ناناً) سيدة النهر والموسيقى التي رقص حصانه المتوحش على أنغامها هي من ألحان الناريتين القدماء، والشعلة التي بيده، قدمها إليه سوسروقة النارتي بنفسه.

عندما شرحت لي روحي واقع الأمر، جلست بارتياح على حافة النافذة، وأخذت أداري روحي التي لم أترك لها مجالاً للراحة منذ وقت طويل. ولتتحف الليل بيزنسه الأسود ويهدأ دون أن يسبب لي أي إزعاج. أما ذلك الذي ما فتئت روحي تراقبه، فإنه لم يبدأ، ولم يخترق سبيل الراحة، يبدو أن الليلة دورة في العمل، فيها هو يبذر النجوم في السماء كما تبذر في الأرض حبات الذرة. ما فائدة هذه النجوم للإنسان ياترى؟ هل من الممكن أن تكون أبجدية للحياة نقرأ من خلالها حال الدنيا؟!..

ها هو (غو كابسة) يوقد بعض النجوم بعناية فائقة بمشعل سوسروقة الذي يحمله. إنها نجوم سبعة- الأضرة السبعة- نجوم الدب الأكبر. ولكن ما الذي يريد غو كابسة أن يقوله لنا من خلال عمله هذا؟ أي لغز يريد أن يحله لنا، وأية موعظة يريد أن يتركها لنا من خلال الكلمة التي يقول أننا بحاجة ماسة إليها؟! إنها كلمة من سبعة أحرف... أ- ل- م- ح- ب- ب- ة شعلة المحبة، ونور المحبة هو ما يجب أن يبقى ويدوم بين الناس. وهذا ما جعل الشرارة التي في قلبي تتوقد كالنار.

إن غوكأبسة لم يبدأ مهمته الليلة، إنما قضى ليالي كثيرة في الفضاء وهو يوقد النجوم. ولكن من الواضح أن الحياة لا يمكن أن تستمر بكلمة (المحبة) وحدها أو بضياء النجوم. إن مغناطيسية الأرض لا تحتفظ بالإنسان فوقها عينا. ولا تمنح الأرض ثرواتها للإنسان إلا إذا امتدت إليها يده بالخير وإلا فإن من المحتمل أن تزدد الأرض صدى طلقات الرصاص. ومن أجل ذلك يترجل غوكأبسة ويهبط مسرعا إلى الأرض حالما ينقضي الليل، وتضيع النجوم في ضوء النهار، إنه يزرع أرض بلاده دون كلل أو ملل بالغلل والأزهار. وهو يعتني عناية فائقة بشكل خاص بزراعة الشعير والذرة، والذرة الصفراء. ومن الأزهار يعتني بشكل خاص بزهور (ستاي) اليبضاء الجميلة. وعندما يغفو قليلا وهو يرتاح في حضن أمواج الخضرة، يحلم بأنه أصبح مصورا. ويرسم بمهارة فائقة الشمس الساطعة والهلال المضيء. وعندما يصور زهور ستاي الغارقة في خضرة البراري، يحدث له أمر عجيب. فهذه الصورة تبدو من قريب مساحة خضراء. أما عندما تنظر إليها من بعيد فهي صورة لعلمه القومي.. ويتخيل غوكأبسة نفسه فجأة وقد ركب حصاته الذي اعتاد أن يحلق به في الفضاء وتطلق من شواطئ البحر الأسود، يزرع بلاد العالم شرقا وغربا وهو يحمل هذا العلم ليعيد تعريف أعلام العالم بعلم بلاده.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الحلم حلم، ولكن ما هو الحد الفاصل بين الحلم والحقيقة؟. الحلم هو ماتراه وعيناك مغلفتان. أما الواقع فهو ما تراه بعينين مفتوحتين. ولكن الروح، كيف ترى؟ وبماذا ترى؟! وهل ترى الروح الأرواح الأخرى؟! بالطبع، إن روحا فقط هي التي يمكن أن ترى الأرواح الأخرى. الأسئلة كثيرة، ورغم ذلك لا يوجد أي سؤال لا يمكن الإجابة عليه. ولكن الأسرار موجودة، وحتى ينكشف أمر أي سر فإنه بحاجة إلى شيء واحد فقط، الزمن. لا أدري إن كانت روحي تخدعني، ولكنها تقول لي: الوجود حقيقة قائمة بذاتها أما العدم فإنه نسبي وهو مرتبط بالمكان فقط.

ما هو أقسى عيب على روح الإنسان؟ الوحدة! الوحدة كالشوكة تؤخذ الروح بدون انقطاع. عندما بدأ غوكأبسة يؤلمه انقطاعه عن الناس مؤخرا بعد أن قدم لهم خدماته حقبا طويلة، اتجه كغزال متعب صوب النهر الذي كان قد حلق فوقه من قبل. وما هو يرقد بجانب النهر الذي تنساب مياهه بهوء، ويشرب حتى يستعيد قواه الخائرة. وبعد أن يروي غوكأبسة عطشه، يمد يده ويلتقط حجرا بحجم

قبضة اليد ويدقق فيه النظر، فإذا به صلد وقاس. ليت يده كانت تتمتع بمثل هذه الصلابة!، صحيح أن قبضة اليد المضمومة تتمتع بقوة أكبر من قوة اليد المفتوحة الأصابع. إن صلابة الحجر ناجمة عن تماسكه. وهذا شأن الناس أيضاً. إذا تماسكوا وتكاتفوا زادت قوتهم. أما إذا تناقروا فإنهم يغدون كحفنة من تراب. هذه الأفكار هيجت أحزان غوكايسة وأعاد الحجر إلى مكانه. وبرفقة روحه التي قادته، اتجه صوب مسقط رأسه. وهناك وجد الناس وقد أصيبوا بمرض النوم المعدي. طرق غوكايسة أبواباً عديدة وهو يأمل أن يوقظ النيام. وعزف لهم على ناي (أشمر السحري) من طرفه الأبيض في العديد من باحات البيوت. ومن الناي كان ينبعث صوت الوطن مترعاً بالربيع والدفء:

أنا التي أوجه كلماتي إليكم
أنا الأرض، الموطن الأم للشعب الشركسي القديم.
يا أبنائي البررة، وبامهجة الروح، يا من لا حياة لي بدونهم!
يا من لحن الموسيقى كلماتهم!
ويا بناتي معقد آمال الرجال، رمز النقاء!
يا من تربين أجيال الأمة جيلاً بعد جيل.
إنما أوجه كلماتي إليكن أُنن!
انظروا نحن حضن أمكم مرة أخرى يا أبنائي!
وجّهوا أنظاركم إلى حنود الوطن بصون ناثبة!
جمال.. جمال.. في كل زمان جمال لا حدود له.
مياه الجبال، شلالات الفرح، تضيق في الوديان الضيقة.
وتربي نسور الجبال فراخها وفقاً لعادات الجبال
وتربيت غيمة يرتفالية على قمم الجبال بدلال.
وترقص أمواج البحر الأسود على إيقاع العواصف.
جمال..
في انهمار الثلوج جمال، وفي تراقص الزهور جمال.
ومن أجل الجمال إنما يولد الإنسان..
أنا التي أخاطبكم.. أنا..
أرض الوطن الأم للشعب الشركسي القديم..

لقد أسر جمال أمكم ألباب الكثيرين من الأغراب،
وألف الكثير منهم الأغاني من أجلي.
ولكن أديمي مروي بدموعكم أنتم يا أبنائي، ودمعائكم،
وقد أحرقتني الأحزان والأهوال التي عانيت منها،
فأنا أم..

وكلما أعدت النظر في تاريخنا،
تاريخنا المثقوب الذي غدا ما يشبه المنخل
فأنا لا أرى سوى مأسيتكم يا أبنائي،
ولا أرى سوى جراحكم يا أبنائي.
لقد كان رهايتكم ألا تستسلموا أبداً،
للأتراك القادمين من وراء البحر.
وكان رهايتكم ألا أفق فريسة،
في أيدي الأعداء تنار القرم.

وكان رهايتكم الأكبر أن تحموني
من القوى السوداء لجيوش القيصر الروسي.
أخاطبكم الآن، يا أبنائي البررة!
يا من يتحلون بالسمات الإنسانية
فزي قومي لهم!

حافظوا على قواكم وعلى روح المقاومة في أعماقكم.
وإياكم القبول بأن يتحول وطنكم
إلى وطن للأغراب...!!

ومهمائكم صعوبة الحياة علينا في هذه الأيام
فإننا نستطيع مواجهتها إذا اتحدنا بعقولنا..!

صحيح أن نداء الأم أيقظ الكثيرين من رقادهم، ولكن هؤلاء لم يكونوا
قادرين على رفع رؤوسهم. وكان غيرهم قد سبقهم في اليقظة، ولكن هؤلاء كانوا
مسافرين، قد أطلوا السفر ولم يعودوا بعد من سفرهم. وأخذ الكثيرون يشككون في
كل ما أنجزه غوكايسة إلى الآن، وكانوا على وشك توجيه الاتهام إليه رسمياً
بالجنون. وعندما عرف غوكايسة بذلك اتفعل وحزن كثيراً لأن الناس لم يفهموه

(مهما طال الزمن، لابد أن يأتي يوم يفهمونني فيه) - هكذا قال لنفسه، واتجه إلى مجرى النهر. لقد هطلت أمطار غزيرة ليلة البارحة، وإذا كان النهر قد فاض بسبب هذه الأمطار، فقد يحتاج الناس إلى المساعدة لعبوره.. وعندما وصل إلي كتف النهر وقف جامداً لا يصدق ما تراه عيناه. رأى مجرى النهر الذي كان مليئاً بالمياه الصافية الزرقاء، جافاً وغائراً كجرح فوق أديم الأرض، والدماء تنزّ من هنا وهناك ومن الشقوق التي حدثت في الأرض في أماكن متفرقة. كانت الدماء تفور وتندفع إلى الأعلى ثم تختلط أمواجاً كأمواج النهر. وفي بعض الأماكن أصبحت الدماء سوداء وجمدت في أماكنها داخل الشقوق. وكان الشياطين تقيم عرساً وهي تحدث ضجيجاً هائلاً في المكان الذي اعتادت سيدة النهر أن تسبح وتلعب فيه. وكان رجل الغابة يطل من تحت الأشجار بين الحين والآخر وهو يمح رقبته.. وملأت الأبخرة الثقيلة المتصاعدة سماء اللوادي كله.

غرق غوكابسة الذي رأى كل ذلك في هم عظيم. لابد من مساعدة الناس على عبور نهر الدم. ولكن كيف؟. أول ما خطر له هو الكتاب الصغير الذي يحمله في جيبه، وهو على يقين من أن كل ما استطاع إنجازه من قبل في السماء والأرض، إنما تم بفضل هذا الكتاب الصغير الذي لم يكن يضم في طياته الكثير كالقرآن مثلاً. ولكنه كان يؤمن بأن المساعدة التي يمكن أن يقدمها له هذا الكتيب لا حدود لها. ولكن هذا اليقين لم يعد ينفعه في شيء الآن. ها هي أحرف الكتاب قد احمرت وتلوّنت واختلط بعضها ببعض. كما اختلفت معاني كلماته وجمله وتداخلت، ولم يعد الكتيب قادراً على تقديم أية مساعدة. وعند ذلك لم يجد غوكابسة من مخرج لهذا الوضع سوى إقامة سلسلة من الأرواح. (لنربط جميعنا أرواحنا بعضها إلى بعض، ولنبن جسراً من الأرواح. هذه هي الفرصة الوحيدة التي أمامنا، وليس لنا خيار آخر) عندها انتظرت الأرواح بعض الوقت وقد اقترب بعضها من بعض خشية أن يدوس أحدها على الآخر أو يسحقه. ولكنها تماسكت فيما بعد رويداً رويداً. وعندما خلقت الأرواح المتباينة جسراً امتد كتوس قزح فوق مجرى النهر، التقطت العالم أنفاسه، وهو يخشى أن يسبب أي أذى لسلسلة الأرواح دون قصد. وكان من جهة أخرى في غاية السعادة كأم التقى أبناؤها تحت أنظارها.

وقدّم الناس آيات الشكر لغوكابسة الذي وجد مخرجاً ومعبراً للناس. واتفقوا على إعطائه مكان الصدارة في كل مناسبة ومجلس عرفاتاً بجميله. وذات يوم

قروا عقد اجتماع شعبي عام في الخلاء عند سفح جبل (بغه وانه) بقيادة غوكأسية. وبينما هم في طريقهم إلى مكان الاجتماع، تحتم عليهم أن يمروا بالبيت الأبيض الكبير. وعندما وصلوا إليه توقفوا. كان من عادة الناس أن تغشى أبصارهم عندما ينظرون إلى هذا البيت. وكل مرة يصلون فيها إلى هنا وقفوا صفوفًا مترابطة وقد بهتوا لجمال هذا البيت، وزاغت أبصارهم لرؤيته، وأخذوا ينحنون مادين أيديهم ويسجدون قبائلته. ولم تكن المرة الأولى التي يفعلون فيها مثل هذا، والتي يقدمون فيها آيات الولاء والاحترام لهذا البيت، إنما كانوا قد اعتادوا على هذا الاتحناء والسجود منذ مدة طويلة.

كان كبار القوم كلهم يلبسون زياً موحداً، وقد أخرجوا جميعاً أعلاماً رسمت عليها صور للبيت الأبيض الكبير ورفعوها.. كان غوكأسية في مثل هذه المناسبات يضع يده على الكتيب الذي يحمله في جيبه العلوي، ويضغط به على قلبه. وعندما ضغط عليه هذه المرة بيده المتصبية عرقاً، أحس أن جلده قد انزاحت. وبعدما أن وجد الكتيب بهذا الوضع، تطلع صوب البيت الأبيض مباشرة، فلاحظ أن لونه قد تحول من البياض الناصع إلى الرمادي. (كيف حدث ذلك؟ هل زاغت عيناها أم ماذا؟ انظروا معي رجاء، يخيل إلي أن هذا البيت ليس بالبياض الذي كنا نتخيله به.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- لا، لا، لا تفكر بذلك أبداً، إنه أبيض ومضيء ونظيف.
- دققوا النظر إذن في أساس البيت. - قال لهم غوكأسية. ولكن لم يبال به أحد، بل أخذوا يعيدون ترتيب صفوفهم وهم يؤكدون كما كان من قبل، وكما كان دائماً. وينظر غوكأسية بقلبه وروحه وعينه مدققاً، فيرى العجب العجيب. كان أساس البيت مبنياً من الجوامع وعظام ألواح الكتف. وكانت قطرات العرق ذات الرائحة النفاذة المتصبية من جدران البيت قد رسمت عليه بقعاً من الرطوبة. وكان البيت متوجاً بما يشبه رأس خروف مذبح مائل بعض الشيء.

- كيف يحدث هذا؟ ألا ترون ما أراه؟ - يصيح غوكأسية بأعلى صوته.
- كل ما نراه رائع وفي جمال الحوريات - أجابوا بصوت واحد.
ويهديء غوكأسية نفسه، ويدقق النظر في واجهة البيت الكبير، فيبدو له تارة كديك أبيض كبير ذي عرف أحمر قان. وفي هذه الحالة يخيل إليه أن جميع

المجتمعين يحومون حوله كدجاجات. وثارة أخرى يرى في واجهة البيت صورة وجه مألوف، وعندما يندق النظر فيه يجده يشبه وجه صاحب التمثال المنتصب وراءه في مواجهة البيت. ولما تأكد من ذلك بعد النظر مرة نحو التمثال، ومرة أخرى نحو البيت الكبير، جمد في مكانه كالتمثال. وبعد قليل يمد يده ببطء إلى رأسه ويمسك به وكأنه ينفقده، ثم يسأل بأعلى صوته وفراغ العالم حوله يردد صدى سؤاله: (إلهنا الغالي الكلي القدرة، كيف يحدث هذا؟).

وفي خضم ذلك تبدأ الأرض تهتز وكأنها تتأرجح بفعل قوة خارقة، وتتراكم النيران المندفعة من شقوق الأرض وهي تحرق كل ما تجده أمامها. وتتغلغل الأرواح على ذاتها. وتتحبب السماء بلوعة شديدة وكأنها توشك على الانفجار. وتتراقص الزوابع العمودية وكأنها تكتسب التراب نحو السماء. من يدري ربما توصل عينات من قذارات الأرض إلى السماء. ويحمي غوكأبسة وجهه بزعاعيه من الرياح الشديدة التي لا تتوقف. ويتمايل وهو لا يكاد يهدأ على الأرض التي تموج من تحت قدميه. ويتماسك قليلاً ليخرج الكتيب الذي يلي غلافه من جيبه. هذا الكتيب هدية من صاحب التمثال المنتصب في مواجهة البيت الأبيض الكبير. وكان يعتمد عليه لإنقاذه اليوم من هذه المخنة، ولكن أنى له ذلك. فها هو الكتاب يسود في يد غوكأبسة تارة ويبيض تارة أخرى ثم يجمر، ويتسقق كأرض عطشى للمطر وينفلق إلى ثلاثة أقسام، ثم خمسة عشر قصماً ثم يتناثر نتفا صغيرة، ثم يذوب ويتمتع في كفه، ويتمسك من بين أصابعه وهو يحرقها، ثم يسيل كالدم حتى لا يبقى منه شيء. وعندما يرفع غوكأبسة رأسه بصعوبة وينظر حوله فيرى الناس الذين كانوا يقفون صفوفاً متراسية يرقدون أرضاً وقد تناثروا وكأنيهم أوراق الشجر وقد عبثت بها الريح وبعثرتها على الأرض.

كان بعضهم يرقد على ظهره، وبعضهم الآخر منبطحاً على وجهه، وآخرون جاثين على ركبهم، كل يرقد في المكان الذي قذفته به الريح منتظراً ما سيحدث بعد ذلك.. أما الذين كانت وجوههم متجهة إلى السماء، فقد أخذوا يصعدون ابتهالاتهم وتساؤلاتهم واحداً بعد الآخر: (إلهنا العظيم، قل لي من أنا، وما الذي أعيش من أجله على هذه الأرض؟) (ربنا، سبحانه اللهم، لم عمت الفوضى هكذا على الأرض؟) (إلهنا القوي، القادر المقدر، ما الذي سنجنيه من حياتنا هذه؟).

ويبدأ المنبطحون والجاثون على ركبهم بإقامة الصلاة، وتتصاعد منهم بين التقنية والأخرى نداءات يرددونها بصوت عال: (الله أكبر) (اغفر لنا يا الله) (الله الكبير وحده، الله تعالى وحده هو من بيده أمرنا).

ويشرع الذين كانوا راكدين كيفما اتفق بالانهاوض، ويزحفون نحو البيت الأبيض وصرير أسنانهم يزداد بازدياد غضبهم كلما اقتربوا منه. ومع كل خطوة يخطونها يزداد حماسهم حتى إذا وصلوا إليه بدأوا بتهديمه. ويسحب بعضهم عظام لوح الكتف من بين الجماجم ويلقون بها على الأرض. بينما أخذ البعض الآخر يتسلقون الجدار وهم يستندون بأصابع أقدامهم على محاجر الجماجم. ويصعد قسم منهم بصفاته إلى الأعلى، بينما يبصق غيرهم إلى الأسفل. وها هو جمع منهم قد أحاط بالتمثال وأخذوا يضربونه بقبضاتهم.

وقف غوكأسة غارقاً في تفكير عميق. (يا إلهي هل يحدث لنا كل هذا لأننا فارقنا جادة الصدق والصواب؟) وعندما عاد غوكأسة إلى كامل وعيه، لم يستطع القبول بردود أفعال الناس الذين لحق بهم حيفٌ عظيم من قبل. وبدأ ينادي الناس: (أيها الناس! يا من أرجو أن يشملهم الإله بعنايته، أرجوكم، اسمعوني إن كانت لديكم حرمة للمسيح! العظام التي بني بها هذا البيت هي عظامنا. والجالسون في هذا البيت هم من لحمنا والقبضات العارية لا تستطيع أن تفعل شيئاً بحجر هذا التمثال الصلد. إن قوة الكلمات ليست أقل تأثيراً. ونحن بالحوار نستطيع أن نقنع سكان هذا البيت بإزالة التمثال بأنفسهم. لا نريد أن يزيد عدد تلك الجماجم جمجمة واحدة، إذ أننا من غير هذه المشاكل قلة ضئيلة العدد) هكذا خاطب غوكأسة الجموع فأصمتوا إليه.. لو رأى أحد الناس من قبل في أحلامه ما يحدث اليوم لما صدق نفسه.

كان الأوان قد آن لتحرير الناس من قيودهم، ولو كان ذلك على حساب تكسير أيدي العاملين وأرجلهم ليتخلصوا من هذه القيود، كما أن الأوان لتحرير الكثير من الأسر، وربما لوقوع البعض الآخر في الأسر.

وحان كذلك يوم إزالة التمثال. كان نهراً حاراً غائماً كثير الضباب، ووقف غوكأسة ينظر للمرة الأخيرة إلى التمثال الذي طالما صور العديد من الناس أطفالاً وكباراً. كانت هذه الصور مكدسة في اليد كأوراق اللعب، فأخذت تتساقط من بين

الأصابع الحجرية وتقع مترقصة على الأرض، ورغم الابتسامات المرسومة في وجوه هذه الصور، فقد كانت عيون أصحابها تنضج بالحزن، كيف لا وهي إما أسيرة التمثال أو ضحية له. وعندما أزلوا التمثال امتلأت عينا غوكأسة بدموع لا تشبه قطرات المطر التي تجمعت في قاعدة التمثال والتي تساقطت عندما رفعوه، وإنما تلك الدموع التي يقاوم الرجال سقوطها من أعينهم، فتسقط إلى الداخل لتروي قلوبهم وأرواحهم، دموع حارة نقية كتلك التي تذرفها روح الإنسان عند فقدان الأمل والإيمان، ويبتعد غوكأسة ببطء عن الناس ثم يجلس. وأخذت روحه ترتجف لأن قواه بدأت تذوب كشعلة وهاجمته بعض الأفكار بإصرار: (يمكن إقامة بيت أخضر بدل البيت الأبيض، كما يمكن إقامة تمثال لشخص آخر، ولكن من الذي يستطيع أن يخبرنا أيهما أفضل، الكتاب الذي قرأته وتعرفه، أم الكتاب الذي فتحته للتو ولم تقرأه بعد؟! هذا يعتمد على معرفة الحقائق حول الكتاب الجديد).

تتراقص تلك الروح، روح الحداد (غوكأسة) في قمع الحياة كما تتراقص حبات القمح وذرات التبن في الهواء، عندما يلقى بها إلى الأعلى لفصلهما عن بعضهما البعض. وما فتئت العديد من التهم توجه إليها: إنها تتحدى النجوم، إنها تتحدى الغلال، إنها تقوم بتحريض الناس الذين غرقوا في المتاعب في الأونة الأخيرة، ولكن تلك الروح في حقيقة الأمر كانت قد أخذت تردد لحناً جديداً غريباً وغير معروف، وبدأت تحس بالبرودة من جراء ذلك.

وهكذا.. أصيبت روحي بالإعياء لأنني لا أملك أرواحاً سبعة. ولا أدري ما هي الخطوة القادمة التي ستقدم عليها روحي التي كانت تستعد للتحليق فهدأت بعد أن بدأت ترأب غوكأسة.

لا، لا، ها هي ترتفع وتخلق. ألا ترونها؟ آه، يا إلهي! لقد هوت روحي المسكينة التي لم تستد أجنحتها بعد في قلب الظلام وهبطت إلى الأسفل. إنها تصرخ، تبكي، تسود، وتبدأ روحي ترى من خلال الظلام المترام حولها بعض الأشباح. (من هي هذه الأشباح؟) (من أنتم؟! ماذا تريدون؟) وتقرب الأشباح، تقرب، تقرب مني أكثر، ثم تحيط بي من جميع الجهات.

ويقول أحدها: (العالم في بدايته كان غير واضح المعالم مثل روحي. بدأ بحجم حبة التراب ثم أخذ يكبر، وأنت تعلمين أنه أصبح عالماً لا نهاية له في المكان).

وقال الثاني: (لم يكن للعالم قعر ولا حد في يوم من الأيام).

وقال الثالث: (لقد وقعت الأرض من السماء).

وقال الرابع: (لقد اتبعت الأرض من الماء).

وقال الخامس: (خلق الله العالم في ستة أيام).

وقال السادس: (كانت الدنيا في بداية الخليقة حارة تغلي).

وقال السابع: (كانت الدنيا في بدايتها باردة متجمدة).

وقال الثامن: (العالم يشبه فحاحة شويت في قلب فرن حار، إذا أخرجتها بردت وتقلصت فشرتها. أما باطنها فيبقى حاراً).

وقال التاسع: " العالم كالجوزة التي لها قشرة ولها لب لي جني الجوز من السهولة بمكان .

وقال العاشر: (العالم سيستهلك نفسه بعد مليونين من السنوات).

وقال الحادي عشر: (سوف يدمر العالم قريباً بفعل الريح).

وقال الثاني عشر: (سوف يدمر العالم بفعل النار).

وقال الثالث عشر: (العالم باقٍ، وخالد ولن يدمر أبداً).

وبعد سماع هذه الكلمات، أرى عدداً كبيراً من الناس وقد احتلوا الساحة، وأنني لست وحدي. وما هي روح الحداد (غوكبسة) وأرواح الجالسين في البيت الأبيض الكبير، وروح التمثال، وروح سيدة النهر، وروح رجل الغابة، وأرواح الديدان والسمك ونسر الجبال، وغيرهم من المخلوقات التي أعرفها وتلك التي لا أعرفها، وقد اختلطت ببعضها البعض وأخذت تتسامر في العتمة. وبدأت الدنيا تتغير بسرعة كبيرة لا تتركها العين. تارة يشرق النور وطوراً يعمُ الظلام. وهكذا يتداول النور والظلام. وعندما بدأ شعاع وحيد من أشعة الشمس يطل من السماء المظلمة، ارتاحت له روحي الممزقة وبدأت تتناول نحوه من خلال العتمة وهي تهمس، ضوء، ضوء، نور.

عن مجلة اتحاد الكتاب القباردين (أراشحه مأكوة)

العدد ٢-١٩٩٢

الجواد الأسود ذو القوائم الرفيعة

أو المهر الأسود

يوسف غوجل

■ ترجمة ، نديم ميرزا ■

كانت شمس الربيع المتألقة التي تتعش الروح قد بدأت تسطع على الكون ،
لم تنته بعد من تجفيف قطرات الندى على أوراق الأشجار والنباتات حين وصلت
مع جدي إلى قمة جبل رأس الثور ، في ذلك اليوم أيقظني جدي باكراً وقت الفجر
بعد أن أدخلني في برنامج نشاطه اليومي المعد في الغابة أحياناً يصحبني معه
لأساعده في جمع الأعشاب البرية الطبية التي كان مغرماً بجمعها ، وليكسبني أكبر
قسط من النوم تركني في فراشي بعد إيقاظي وغفوتي مرة أخرى دون أن يلح
علي بالقيام ريثما يتوضأ وينتهي جدي من تحضير الزودة وجمعها في الكيس .

ومن الممكن أن يكون جدي قد فكر في أن يتركني أنام دون إزعاجي لا
سيما بعد أن قالت له جديتي : لماذا تجر معك هذا الصبي المسكين إلى الغابة ،
أذهب لوحده واتركه ولكنه كان يعرف تماماً أنه لو تركني وذهب لوحده سيلقى
مني الإزعاج حين يعود ..

وجمعنا الأعشاب الطبية المتنوعة التي كان يختارها جدي عن دراية وخبرة
، ثم يوعز إلي بمساعدته في قطفها وجمعها ومنها نبتة الكاري وشاي الجبل
والحميض وأذن الديب إلخ .. حيث كنا نضعها في الكيس لننقل راجعين ، وصلنا
عند منتصف الطريق ..

وعند قزبرون جلسنا على المرتفع المطل على سهل باخسان الأخضر الفسيح
.. كنا قد أحسنا بالتعب والجوع معاً .. وبالطبع قطعنا مسافات طويلة جديدة في
الجبال العالية بين الأشجار ولم نشعر بأن رحلتنا كانت شاقة إلا بعد أن جلسنا
لنستريح ، وكانت النسمات العذبة تهب علينا لتفتح النفس والشهية للطعام أكثر
فأكثر ..

أخرجنا زودتنا من الكيس ، حيث كانت مؤلفة من الجبن الأحمر الطري

وخبز الذرة الصفراء الذهبي الناضج والبصل الأخضر ..

بدأنا بتناول طعام الإفطار بكل شهية وممتعة ، ثم شربنا اللبن الممدد بماء القشطة ، مألوف الدنيا من حولنا في تلك الساعة حيث كان الهواء نظيفاً ، والمناظر خلابة ومازلت أتذكر الطعام الذي تناولته مع جدي في ذلك المكان حيث مازال طعمه اللذيذ عالقاً في فمي حتى اليوم ..

جلست مع جدي ونحن نطل على سهل باخسان ونمتع النظر بجماله والذي كان أمامنا مثل الكف ..

في أسفل الجبل كنا نرى قطعاً كبيراً من الخيل يرعى العشب في السهل التضخيم وكنا نميز في القطيع حصاناً أسوداً لامعاً جميلاً ..

سألت جدي مستغرباً : من الذي يرعى هذا القطيع الكبير ، كيف تبقى هذه الخيول مجتمعة دون أن تتفرق في أنحاء السهل الفسيح هنا وهناك وقبل أن يجيبني جدي لاحظت خروج فرسين من القطيع فهرع الحصان الأسود إليهما وأعادهما إلى القطيع بحزم وإصرار ..

ربت جدي بدفء على كتفي وبعد صمت قال لي : رأيت يابني هذا الجواد إنه هو راعي القطيع بل هو فعل القطيع لا يجمع القطيع في بقعة واحدة من السهل فحسب بل يحميه ويحرسه بكل حرص .. وحتى إذا دخل وسط القطيع ذئب جائع يهاجمه ويصده بكل شراسة فذهلت لما قاله جدي وفكرت ملياً بشأن هذا الحصان الصنديد متسائلاً في نفسي :

كيف سيواجه ذلك الجواد الأعزل برجله أنياب الذئب الحادة الكبيرة وأثناء ذلك سمعت صهيل حصان يصدر من بعيد ليصنع مع صخب فينان نهر باخسان الغزير الذي كان يرغي ويزبد كالبحر الهائج ليعود إلى أسماعنا مرة أخرى ..

كانت مياه الفيضان الدافئة تجرف الأشجار الكبيرة والأعمدة الطويلة بسرعة فائضة دون عناء ، وكنا نرى الصخور الكبيرة تسبح كالحيات الضخمة مندفة أمام الفيضان بصورة مرعبة وتصدر صوتاً كنوي الرعد وتحس بأن الأرض ترتج من تحرجها وقوة دفعها كالزلازل في تلك الساعة الحرجة ، لم يكن المرء ليتصور نفسه عائماً في هذا النهر الغاضب ، بل إن منظره وحده كاف لجعلك مذعوراً ..

ودون أن أستطيع إبطالة النظر إلى النهر الصاخب أمسكت بجدي ووضعت براسي في حضنه مغمضاً عيني ..

فقال لي جدي : مابك يابني .. انظر انظر إلى ما يفعله ذلك الحصان ..
فلننت أنه يعني فحل القطيع فنظرت باتجاهه فلمحته قد نأى جانباً إلى
طرف القطيع ينظر حوله في قلق واضطراب شديدين أمعنت النظر إليه فأحسست
بجماله الخارق في تلك اللحظة إنه الأكبر حجماً في القطيع وشعر رقبته كثيف
وطويل . جبهته عريضة . يقف رافع الرأس وحين تهب النسيمات الخفيفة بين
الحين والحين كان شعر لبدته يتمايل يمنة ويسرة .. لماذا هو قلق هكذا ، لقد وصل
إلى سمعه أيضاً صهيل الحصان البعيد ، وهذا هو الذي جعله مترقباً في حالة تحفز
وحيطه وحذر .. شعر بالخطر ، وهذا هو الذي جعل أذنيه منتصبين كسيخي حديد ،
وقد فتح منخريه محمماً بزفرات حارة كالأتون ..

لم يكن قادراً على رؤية حصاناً فحلاً غيره يزاحمه على سلطانه في مملكته
المقدسة ، بل لم يكن مستعداً لأن يتصور مجرد سماعه صوت حصان منافس آخر
ولو كان أتياً من بعيد إنه الحاكم المطلق في هذه الأرجاء ولا مجال لأن يشاركه
أحد أو يهود سلطانه أحد في هذا القطيع ..

لاحظ جدي أنني أنظر إلى مكان غير المكان الذي يعنيه فقال لي : أين تنظر
يابني ألا ترى ذلك الجواد الذي يسبح عبر النهر ..

لم يكن ماء الفيضان يصادف شيئاً إلا ابتلعه إنه لا يبقى ولا يذر وهو
كالبحر الخضم المائج فكيف لي أن أرى الحصان الذي كان يسبح فيه .. سألت
جدي : أين هو ، فأجابني : إنه ذلك الذي يقوم بمغالبة الماء قرب الجسر سابحاً
باتجاه الشط عند ذلك رأيته وهو يخرج من النهر منهوكاً ، لقد خارت قواه من شدة
الإعياء والتعب ..

ولو لم يبعد بين قوائمه لوقع على الأرض ، حيث استطاع أن يثبت نفسه
بقي برهة مرتجفاً يشق ويزفر بصعوبة وهو خافض الرأس .

كنا ننظر إليه وقد حبسنا أنفاسنا دون أن نقول كلمة ، وعشنا معه لحظة
بلحظة ، وقد امتلك جوارحنا وأحاسيسنا وهو في ذلك الموقف العصيب مناضلاً
بشجاعة خارقة ..

ثم تنفسنا الصعداء وفرحنا لنجاته حين شاهدناه ماشياً معجبين بجرأته التي
لا نظير لها ، حقاً إنه لجواد جسور لقد كان حصاناً أسود اللون أيضاً مثل فحل
القطيع ، وجميلاً جداً لكنه أصغر منه حجماً كان نحيل الخصر رفيع القوائم ..

استعاد قوته وهم بالمشي لكنه هوى وسقط على الأرض ففلننت أن رجله مكسورة وصرخت باكيا مشقفا عليه كائي بيكائي من أجله قادر على أن أسدي له خدمة ما، لاطفني جدي بحنان وطمأنني بأنه سليم لا علة فيه لكن جدي صاح وهو يهز برأسه الأثيب : ياالله ما أروع هذا الجواد الصغير وما أقوى إرادته ، عجيب كيف استطاع أن يعبر هذاالنهر الجامح وهمقيد سألته عن القيد الذي يتحدث عنه فأجابني : إنهم ربطوا رجليه الأماميتين وإحدى رجليه الخلفيتين بجلد ثخين قام الجواد المتعثر بالتقدم متاثقلا ورفع رأسه قليلاً ثم جال بنظره فيما حوله وهو حزين .. قلت : لعله مصاب بدوار في رأسه ، والله أعلم ثم يباعد بين قوائمه وجال بنظره في الأرجاء بصورة أدق ، ويوجه نظراته باتجاه قطيع الأفراس ، ومن يدري بم فكر ذلك الجواد يلتفت خلفه لينظر إلى مياه النهر الواقعة التي كادت تبتلعه قبل قليل وكأنه يقول لنفسه : أنجوت من قبضتها لتموت الآن على الضفة الأخرى يا ترى ..

استجمع قواه الباقية ثم قفز جامحاً في الهواء وقطع قيده الجلدي الثخين بحركة قوية وانفجرت أساريه بعد هذا الفرج ، قام بحركات دورانية بهلوانية في مكانه ثم هز جسمه ونفضه وفتح منخريه ورفع رأسه عالياً ثم وقف برهة ناظراً إلى قطيع الأفراس ، أطرق برأسه وقد غطته لبدغة كثيفة من الشعر ثم ضرب الأرض بحوافره وانتصب ذيله وانطلق يعدو كالرصاصة مستعرضاً نفسه كأنه يقول بتحذير : أنا هنا ، ناظراً باتجاه القطيع ، حين رأى راعي القطيع ذلك جن جنونه وطار صوابه وبدا كأنه يخاطب نفسه قائلاً : أأصدق ماأرى ، لماذا أتى هذا الجواد الياقاع الصغير المسكين إلى حنقه هكذا ، أكره الحياة الجميلة إلى هذا الحد ليلقي بنفسه إلى التهلكة ..

تعال إلي بسرعة إن كنت تستعجل الموت أيها الأحمق ، ثم حفر الأرض بقدميه بهوء وانطلق يعدو باتجاه غريمه كأنه السهم الأسود الذي كان يطلقه الفارس الأسطوري الشجاع (أنديمرقان) ويتقارب الفحلان الأسودان ، وكلما اقترب أحدهما من الآخر كانا يزيدان من سرعتيهما مستعجلين اللقاء والمواجهة المحتومة ، عندما رأيت هذا المشهد المروع انتفضت من مكائي مذعوراً وارتميت خلف جدي دون وعي وأمسكت برقبته أشد عليها أكثر فأكثر كلما اقترب الجوادان أحدهما من الآخر خوفاً عليهما ..

بالسرعة نفسها ودون أي تباطؤ تصادم الجوادان فإذا بالصغير يتدحرج

كالكرة على الأرض أمام الجواد الصلب الكبير .. ويقوم بسرعة لينقبض على غريمه لكنه يخيب إذ يقع عنقه بين فكي الجواد الكبير ويقطع جزءاً منه .. وبعض الجواد الصغير فم راعي القطيع ويقطع قسماً منه ونزفت الدماء من الجوادين ..

تصارع الإثنان صراعاً مريراً ودامياً بكل ضراوة وأخيراً قفز الجواد الكبير منقضاً على غريمه فتعثر ووقع جاثياً على الأرض ، وفي هذه الأثناء يقفز الآخر عليه ويجري نحو القطيع واتسل إلى وسطه وقسمه إلى شطرين .. ودفع شطراً منهما أمامه بصدرة بعيداً وهو بعض الأقراس .

أما فحل القطيع فإنه عز عليه ما يرى فهم باستعادة الأقراس التي سلبها منه الجواد الغريب عاقداً عزمه على القتال العنيد لاستعادة حقه ..

كان الجواد الصغير في موقف لا يحسد عليه .. لقد بلغ منه الإعياء مبلغاً وكان يقف بصعوبة والزيد الأبيض كالثلج الساخن يتدفق من فمه ممزوجاً بالدم الغزير ، وكان كلما نفخ منخريه يرش الدماء حوله كالمنطر مع أنفاسه اللاهبة ويستعد للمواجهة من جديد ..

ينطلق الفحل الكبير وبعد مسافة قصيرة يسبقه على الأرض ، يقف الفحل الصغير فجأة وينظر إلى غريمه منتظراً وقوفه مرة أخرى ولكن يطول به الانتظار ، وحين يبقى مستلقياً دون حراك يعود إلى قطيع أقراسه ،

يخطفني جدي من مكاني فرحاً .. ودموعي تنهمر من عيني غبطة وسعادة ويهزني بحركات دورانية كأنني في أرجوحة ..



الشراب الممتق

قصة: جورت بيرد

■ ترجمة رياض قات ■

قرينتا لن تحسبها اليوم إلا مدينة ، فقد امتدت البيوت الجديدة على جانبي الشارع الرئيسي وكل واحد منها أجمل وأضخم من الآخر. وتضفي على هذه البيوت طابع القصور أسوارها العالية من الترمين الأحمر ووسائل الرفاهية المزودة بها. ولما أشجار بساتيننا فإنها تنمو معطية قرينتا منظرًا أخاذًا متجدداً على مر فصول السنة.

ولكن هنالك بيت من الطراز القديم غير مكتمل البناء على وشك التداعي والسقوط لا يشبه البيوت الأخرى في وسط القرية تماماً. وهذا هو البيت الوحيد الذي لا نشاهد أسوار قديمة له أو وسائل رفاهية. وبخلاف السورين المشيدين من الجوار فإن السورين القديمين المصقوعين من أفضان الأشجار المضفورة منذ سنوات طويلة قد تداعى بعضه ورس على الأرض، والقسم المتبقى من السور المضفور مائل وكأنه ينذرنا بقراب أجله. وفي الحديقة الواسعة حول البيت لا نشاهد فرع نبات حتى ولو كان جافاً غير شجرة الجوز القيمة الصامدة أمام البيت. ومع أن شجرة الجوز هذه لم تعد تعطي ثماراً منذ زمن بعيد فإنها مازال واقفة ، والعجوز الوحيدة الباقية في الدار تمنع عنها الأذى. إنها الأم قندوز.

قبل عشر سنوات كان الشتاء بارداً جداً، وجاء صهر العجوز قندوز لتتفقد أحوالها فلم يجد عندها أية حطبة لتتدفأ بها ، فأخذ الفأس يريد قطع شجرة الجوز لمنعته قائلة:

- يا عزيزي ، هذه هي الذكرى الوحيدة المتبقية لدي في هذه الدنيا من زوجي وأولادي، فدع الشجرة منتصبة خلال الفترة القصيرة المتبقية من عمري، وعلى أية حال ، إلى متى ستكفيني جذوع هذه الشجرة؟. ولم يدر الصهر بماذا يجيب فوضع الفأس وانصرف خارجاً. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لعدم مواقفة قندوز على قطع شجرة الجوز، فهي تتذكر أولادها المفقودين منذ الحرب "الحرب

العالمية الثانية" والذين كانوا يحبون أن يرتاحوا تحت هذه الشجرة نصف اليابسة كشاهد أبكم على الأوقات العصيبة التي مرت ، ولا يتجرأ أحد على قطعها.

ببزروره صهر قندوز الأوحـد، لا يقدر على مساعدة الأم بشكل فعال لأنه لم يعد شابا ، ولأنه فقد إحدى ساقيه في الحرب الماضية وصحته ليست على ما يرام ، ومع أنه يحس ويتألم لمعاناة حماته فإنه لا يستطيع تقديم المساعدة اللازمة لأنه بالإضافة إلى كل ما ذكر يعيش في قرية أخرى،

تعيش قندوز لوحدها على هذه المساحة الكبيرة من الأرض. فابنها البكر سيق للخدمة في الجيش بعد زواجه وقبل أن يسعفه الوقت للإتجاب. وفي اليوم الذي كتب فيه رسالة لإعلام أهله بإنهائه الخدمة نشبت الحرب . كما سبق والداهما التوأمين معاً للجيش مع اندلاع الحرب. أما ابنها الأصغر فلم يُدع للجيش لكونه راعي غنم في المزرعة التعاونية . وتمكن مع والده يلداز من تخيئة قطيع الأغنام عن الألمان . وتذكر الأم يوم دفن زوجها وابنها الأصغر معا.

كان الوقت شهر كانون الأول ، أشد أيام الشتاء برودة حتى أن البصقة كانت تتجمد قبل أن تصل إلى الأرض . وكان الأب والابن يخيطان الأغنام في أحد المغاور الجبلية الكبيرة ، وقلة الذين كانوا يعرفون مكانهم . وفي إحدى الليالي هبت عاصفة ثلجية شديدة ، فهاجت الأغنام الفرقة من صوت الرياح التي تعصف بالمغارة ، وهدير الثلوج المنحدرة من الجبال فاندفعت خارجة لا تلوي على شيء ولم يتمكن الأب والابن من إيقافها ، فلحقا بالقطيع يريدان إنقاذ الأغنام فغمرتهما الثلوج وبعد أسبوع كامل من البحث وجدوا جثتي يلداز المسكين وابنه.

وصلت رسالة أو رسالتان من محمد أكبر الأبناء بعد بداية الحرب. وكانت الأم في الماضي تؤكد بأنها لم تتلق أية رسالة من ولديها أدلبي وقرابلي، ولكنها اليوم تقسم قائلة: إن أولادي كانوا يرسلون رسالة كل عدة أيام وتؤكد بأنهم كتبوا إليها: "سنعود قريباً"

مر زيدان ، زوجة محمد انتظرت طويلا حتى انتهت الحرب وعاد من عاد، ولكنها ينست من الانتظار فطلبت الطلاق وتزوجت بعد طلاقها بوقت قصير .

عندما غدت العجوز وحيدة، توالى حضور صهرها وابنتها وفي نيتهما اصطحاب الأم للعيش معهما ولكنها لم يتجرأ في البداية على مفاتحة العجوز التي تنتظر عودة أولادها ولا تتكلم إلا عن ذكرياتها معهم ، وعندما لم يجدا مفراً فاتح

ببزرقة الأم بالموضوع قائلاً:

- إنك تتعذبين يا أمّاه ، ونحن لا ننام مرتاحين ، تعالي معنا وعيشي بيننا ،
تسعين إذا سعدنا وتشقين إذا شقينا.

شعرت العجوز بكلمات صهرها تصيبها كالرصاص فقالت من بين دموعها
المنسكية:

- لا قدر الله الأوحى ، إذا رجع أولادي ولم يجدوني في البيت ماذا
سيقولون ، وماذا سيظنون؟

بما أنني انتظرتهم حتى الآن ، فسأنتظر عودتهم بقية عمري ، ومن الأفضل
أن أموت على أن أدعهم يدخلون بيتاً خالياً.

لم يتمكن الجيران والأقارب من إقناع العجوز قندوز . ولما أيقنوا من تشبّثها
بموقفها لم يكرروا المحاولة . ولكن الأم لم تنس كلام صهرها " المستهجن " وكانت
تبرّر لنفسها: " كان يريد أن يأخذني إلى قرية غريبة ، والناس سينقدونني قاتلين:
سكنت مع صهرها ولم تستطع انتظار أولادها " وأمر من ببزرقة حضرت ابنته
الكبرى للعيش مع جدتها قندوز . ولكن بعد مرور سنة واحدة تزوجت البنت
وانتقلت للحياة مع زوجها . والبنت الثانية تزوجت من بيت جدتها ، والابن استمر
في العيش عند الجدة حتى دعيا للخدمة في الجيش . وهكذا عادت العجوز للعيش
وحيدة في البيت .

كانت قندوز تجلس تحت السور المضفور من أغصان الأشجار على
كرسيها الصغير طوال النهار تتحدث مع المارة إن كانوا من معارفها أو الذين
يمرون بها لأول مرة كانت الأم تتحدث أحياناً حديثاً عادياً وأحياناً تسأل عن أمور
مختلفة لا تخصها ، وكانت تضايق الفتيات اللواتي تظن بأنهن قد تجاوزن سن
الزواج حيث تسخر منهن قائلة: - أيتها المسكينة ، إذا كنت راغبة في الزواج
فتعالي لعندي . أنت المقصودة وستخبرين بنفسك صدق ما أقول ، إذا قضيت ولو
ليلة واحدة فقط عندي فسوف يخطفونك قبل شروق الشمس . والبنت العابرات كن
يتحدثن مع الأم وهن مشغفات عليها . وهكذا كانت الأيام تمضي ، الأطفال يكبرون
ويبلغون سن الرشد ، بعضهم يتزوج والبعض الآخر يتابع دراسته ونصف الأولاد
يساقون للجيش . وكانت الأم تشيخ وتضعف مع مرور الزمن . تفرح قندوز أيام
الصحو حيث تحمل كرسيها الصغير وتخرج من بيتها وتجلس تحت السور
المضفور من أغصان الشجر حسب عاداتها ، لكنها تحزن وتكتئب في الأيام

الماطرة وخاصة في الشتاء حيث تنزوي في غرفتها وتشعر بالجدران الأربعة تضغط عليها وتسحقها وتتدافع أحزانها فتبداً بمناجاة ربها. وفي مثل هذه المواقف كان الجيران يعتنون بها ويمضون الليالي عندها أحياناً للترويح عنها. فبعض هذه التصرفات الصغيرة والتي لا معنى لها كانت تعتبرها أحياناً خدمة جليلة، وأحياناً إساءة لا تغتفر، وتبقى حزينه تتحدث عنها أسبوعاً كاملاً وتتسبها إلى وحدتها وإلى عدم وجود من يدافع عنها. واعتادت في الآونة الأخيرة أن تتحدث همساً إلى نفسها. كان البعض يزعم بأن الأم تهذي، والبعض الآخر كان يرفض هذا الاحتمال ويقسم بأن العجوز إنما تردد الذكر "الأدعية". ولم يكن أحد يدري الحقيقة وكانت حالتها تسوء يوماً بعد يوم.

أثار صوت النواح المنبعث من بيت قندوز سكان الحي في صباح أحد أيام الربيع. وترأضت النسوة زرافات ووجدنا إلى بيت الأم وهن يبكين ويرددن ما يخطر على ذهنهن. وإن نبأنا إذا قلنا بأن صوت بكاء الجارة القريبة من العجوز قد سُمع في الأحياء المجاورة.

- أي..بي، انتهت حياتك أيتها المسكينة قندوز وانتهت معها أحزانك وقبل أن تكحل عينك بروية أولادك ثانية.

الجيران الذين جاءوا للبقاء على الأم، وجنوها جالسة وهي تسند ظهرها إلى جدار البيت ورجال الإدارة المحلية في القرية واقفون حولها، وجمد الجيران في أماكنهم لا يفهمون ما يجري ولا يدرون ما يقولون. كانوا أحياناً يمعنون النظر في قندوز وأحياناً أخرى في رجال الإدارة المحلية. ولم تجد محاولات خزر رئيس الإدارة المحلية في تهدئة الأم قليلاً بدأ خزر يوضح القضية للناس المجتمعين وهو يمسح دموعه:

- يا لتعاسي، ما الذي دعاني للحضور وإثارة شجون وأحزان هذه العجوز البرنية؟ وبدون تدخلني فإن أحزانها كانت تكفي، بل تريد. يا لسوء حظي، لماذا أخطأت بهذا القدر؟ ولماذا خطر ببالي مجرد الحضور إلى هنا؟ وما الداعي لاقتطاع الأرض؟ لقد أهدت أحزان العجوز المسكينة مجدداً، فللذهب إلى الجحيم قطعة الأرض! لماذا تورطت؟

شيئاً فشيئاً فهم الواقفون كيف جرت الأمور. كانت أرض قندوز كبيرة، مساحتها نصف هكتار كامل كما كانت قبل الحرب. ولما بدأوا بتقليص مساحات الأرض، تركوا أرض العجوز على حاله لأنهم كانوا يعرفون بأنها لن تستوعب

الموضوع جيداً وأنها سوف تتأثر بذلك . ونتيجة لتأسيس فرع لنقابة العمال في القرية في السنوات الأخيرة ولمطالبة بعض الطامعين من السكان بقطعة من أرض الأم، ولأنه لم يعد أحد من سكان القرية كلها عنده مثل هذه المساحة الكبيرة ، بالإضافة إلى تزايد العائلات الفتية التي تعطي أراضي للسكن . والناس الذين جعلتهم الحرب متسامحين بدأوا يستعيدون أنانيتهم ، ولوقوع القرية بين الجبل والنهر واستحالة التوسع باتجاهها فقد أصبحت أراضي السكن محدودة. الأمر الذي شجع خزر على اقتطاع قسم من أرض العجوز هو عدم مقدرتها على الاعتناء بها ، علماً بأن خزر كان يرسل سنوياً من يفلح أرض قندوز ويزرعها. ولكنها كانت تهمل الأرض وتغطي الأعشاب الضارة على المزروعات ولم تكن تجني منها شيئاً. والناس الطامعون بأرض قندوز اتهموا رجال الإدارة المحلية بالتحيز قائلين:

- ليس لدينا نحن قطعة أرض، فلماذا تشغل هذه العجوز هذه الأرض الواسعة بدون زراعة؟

كان خزر يفهم نفسية العجوز ، ولكن لمن سيشرح وضع العجوز البائسة وما يحمله قلبها من جراحات؟

وما الجدوى من إخبار أشخاص لا يحسون بمصائب غيرهم؟. وكان خزر يعرف بأن الأم سوف تحزن لذلك ، وقد وصلته أخبار متناقلة بأنها تحلم ببناء بيوت متجاورة لأولادها عند عودتهم . ولم يكن ليخطر على باله أن تتأثر الأم بهذا القدر أبداً. كما أنه لم يتوقع أن تفسر كلامه على هذا الشكل.

عندما شاهدت الأم خزر رحبت به كثيراً، وكان من عادته أن يطيب خاطر العجوز كلما حضر لزيارتها ويقدم لها بعض الخدمات ، فقالت فرحة:

- فذاك روحي يا خزر، هل حضرت يا بني؟ وفقك الله لأنك لا تتسائي وتزورني باستمرار يا نور عيني. ضمّ خزر قندوز إلى صدره واستفسر عن صحتها وحسب عادته بدأ بإحداثها:

- لم تعودني تحبينني يا أماه، في السابق كنت تقدمين لي "ما خسة" جيدة ، ولكنك منذ مدة طويلة تتجاهلين.

- يا عزيزي لم أعد قادرة على صنع الماخسة، ولكن عندما يعود أولادي سأسقيكم ! فأنا أخبئ منذ مدة طويلة حصة قليلة لهم . وبعد أن تحدثنا طويلاً وبتمهل

شديد أخبر خزر العجوز بسبب قدمه :

- يا قندوز ، غدا سأرسل من يفلح أرضك ، ولكن وبما أنك لا تقدرين على العناية بكل هذه الأرض ، فإننا سنقتطع نصفها ونعطيه لشخص آخر ليزرعها.

في البداية تلعثمت العجوز ، ثم أجابت وهي غير مصدقة :

- ما هذا يا خزر ! ومالعمل إذا عاد أولادي؟ حسبته عندها

- إذا عاد أولادك سنجد لهم قطعة أرض يا قندوز ، ليتهم عادوا ، الأرض لن تكون مشكلة.

لأول وهلة بدت قندوز وكأنها رضيت بالأمر الواقع ، ولكنها وبشكل مفاجئ أجهشت بالبكاء وقالت برجاء لرئيس الإدارة المحلية :

- أحلفك بالله العلي الأود ، وأسألك باسم الناس جميعاً أن تخبرني يا خزر بما سمعته عن أولادي ، فما كنت لتقتطع قسماً من الأرض لو لم تسمع شيئاً عنهم.

وذهل رجالات الإدارة المحلية عندما انحرف الحديث إلى وجهة غير متوقعة فوقفوا واجمين لا يدرون ماذا يفعلون وما يقولون . حاول خزر استدراك الأمر قائلاً :

- لا يا قندوز ، يجب أن لا يذهب بك الظنون إلى هذا الحد . فقاطعت الأم وصوت بكائها يقطع نياط القلوب :

- لماذا إذا لم تقتطع قسماً من أرضي حتى الآن؟ أقسم بالله أنك سمعت شيئاً ولكنك لا تريد إخباري.

ولما رأى خزر دموعها المتساقطة كحبات الفاصولياء تمثل أمام ناظره محمد الابن الأكبر لقندوز . كانا من مواليد سنة واحدة ، وأنهيا الدراسة سوياً وذهبا للجيش معا وبقياً معا في كتيبة واحدة في السنوات الثلاثة الأولى من الحرب لم يكن قد بقي على تحرير مدينة ستا لينغراد إلا أيام معدودة . وكان جنودنا الملتهبون حماساً يطوقونها . وسرية الضابط الشجاع محمد يسنقوة تقف على برزخ الحياة والموت . ومع أنهم كانوا أقل عدداً من الألمان فقد دوخوهم وأفسلوا كل محاولاتهم للانتشار وأجبروهم على إلقاء السلاح .

كان الجنرال الألماني حانقاً على نفسه وكاد الغيظ يخنقه عندما خرج من دشمته وشاهد قلة عدد جنودنا فصار كالكلب المسعور . والسرية التي كان يقودها

محمد لم يعد من المناسب تسميتها سرية بعد أن استشهد نصف محاربيه في هذه الموقعة. وكان الجنود الألمان يخرجون من مخابئهم ويلقون بأسلحتهم التي غدت كومة مرتفعة ويرفعون أيديهم عالياً ويقفون جانباً. وتظاهر الجنرال الذي كان يسير في المؤخرة بأنه يلقي مسدسه فوق الكومة وباغت الضابط الذي يقف إلى جانبه وأطلق النار على صدره ثم انتحر . توفي محمد بعد نصف ساعة متأثراً بالجرح الذي أصيب به وبعد أن ترك وصيته لخزر . دفن خزر صديقه وكتب رسالة إلى يلدا يصف فيها استشهاد ابنه اليكر ، ولكن قلبه لم يطاوعه على إرسال الرسالة شفقة بأبويه . وكان لخزر بعض الأعداء الأخرى لهذا التصرف . فعلاوة على أن العجوزين يحبانّه ، فإن الصديقين كانوا يستلطفان فتاة واحدة ، وقد تزوجها محمد قبل أن يساقا للجيش ، ولم تتأثر صداقتهما لهذا الحدث ، بل إن خزر كان المشرف على إجراءات الزواج وحفلات العرس . وبعد استشهاد محمد حارب خزر حتى وصل برلين ، وقبل نهاية الحرب بأيام جرح جرحاً بالغا وأمضى في المستشفى العسكري قرابة السنة . ولما عاد إلى القرية في شهر آذار عام ١٩٤٦م كانت قندوز وحيدة في البيت ولم يستطع إعلامها بموت ابنها .

شعر خزر بدوار خفيف فجلس لصق الأُم، متعجباً من تمسكها بأمل عودة أولادها بعد هذا الوقت الطويل ، وإصرارها على تأكيد وصول رسالة من ابنها محمد يعلمها بأنه على الطريق وسوف يصل بعد ثلاثة أيام . ومع أنها بلغت الثمانين من عمرها فإن أحداً لن يستطيع أن يدعي أن فكرها قد تشوش ، ومن العجيب أن عقلها بقي سليماً . والذين يعرفون المأساة التي أصابت العجوز وما قاسته في السنوات الأخيرة كانوا يتعجبون لقوة تحملها وصلابتها . وعندما تتحدث عن أولادها ، كانت تصدق ما تقوله وتتأثر بقلبها ، وكانت تنتظر عودة أولادها وكلها أمل . والمستمع كان يتأثر بدوره بحيثها ويتصور أن الحرب قد انتهت البارحة فقط ، ويتوقع دخول الأولاد ساحة الدار في الحال . كان أمل الأم كبيراً جداً ، وإلا فمن الذي يمكن أن ينتظر عودة أولاده الذين فقدوا في الحرب حتى الآن؟ .

قلة الذين يفعلون ذلك . لم يكن أهل الحي في هذا اليوم ييكون على الأولاد الذين ماتوا في الحرب بل كانوا ييكون العجوز التي جعلتها الحرب بانسة في أواخر حياتها . كانت هي من يندبونها وهي حية تجلس بينهم .

لم يكن أهل الحي وسكان القرية قد فرغوا من تناقل هذا الخبر عندما حدثت الحادثة الأكثر غرابة . يوم حضور خزر لاقطاع قسم من أرض قندوز ، مرضت

الأم ونامت في السرير ، كانت تهذي باستمرار وتتادي أولادها بأسمائهم وبالتسلسل وتخطب زوجها، وكان أهل الحي يحيطون بها ويمضون معها السويقات القليلة المتبقية من عمرها ويتألمون لألمها ويتحسرون عليها. وفي نفس اليوم عاد جاز قندوز الشاب من الجيش في إجازة ، ولما لم يجد في البيت إلا أخاه الأصغر، عزج على بيت قندوز ليسأل عن العجوز وينادي أمه . والنساء اللواتي لم يعرفن سبب دخوله بدأن بالترحيب به وتهنئته بالسلامة. العجوز المريضة التي ضعف سمعها التفتت بعض الكلمات وكأنها الهمس مثل "عاد" هل عدت بشكل نهائي؟ . ورأت لباس الجندي بعينيها الكليلتين والمغشيتين . لأول وهلة حاولت قندوز أن ترفع نظرها ولكن جفونها أطبقت وفي نفس الوقت قالت أم الجندي:

- يا عزيزي ، اقترب من الجدة واسأل عن صحتها ، ألا تري كم هي مريضة. اقترب الشاب من الأم ومسح وجهها بيده وانحنى عليها قائلاً بتمهل:- كيف حالك يا جدة؟

رفعت قندوز نظرها ثانية ثم جلست ، وتناولت قليلاً وحضنت الشاب الذي يقف بجوارها وقالت بصوتها الضعيف:- لماذا تركتني انتظر كل هذه المدة الطويلة يا روعي، وكيف تحملت بعدي كل هذا الوقت ؟ يا حسرتاه ، أنسيتموني يا عزيزي، أين محمد وادليي؟ أتركتم وعدت وحدك ، ألم...

نظر الجالسون في الغرفة إلى بعضهم . في البداية لم يفهموا ما يقوله الجدة ، لكنهم استوعبوا الأمر سألت قندوز : " أين محمد وادليي" فقد حسبت جازها الشاب ابنها "قرالبي" ولجمت السنة الجميع، وكان الشاب واقفاً وكأنه مخدر لا يدري ما يقول ، ينظر مرة إلى أمه ومرة إلى جده ، يبحث عن مساعدة. لم يستطع الجالسون تبادل النظرات . وأخيراً تجرأ أحدهم وأبدأ الكلام

- يا جدة ، هذا ليس قرالبي، هذا...

قاطعه جـد الجندي الذي عاد من الجيش، وكان حزينا وقد جلس خافضاً رأسه بشعره الذي شاب وغدا مثل الثلج- دعوها ، ولتظن أن الشاب ابنها وقد عاد من الجيش، تكلم معها يا عزيزي، تحدث إليها وكأن ابنها يتحدث إليها، ولا تخف ، تحدث إليها . على الأقل سترتاح في لحظاتها الأخيرة. وهذا لا يقدر بمال. ألا ترى، لم يبق من عمرها إلا سويقات معدودة . ومن الجائز أن ما حصل هو الأفضل،

وإلا لمائت معذبة. فقال الشاب بصوت وجل ومتهدج يقرب من الهمس:

- لقد عدت يا أماء لقد عدت.

قالت قندوز تكلم بصوت أعلى يا أحمقي الصغير. أتخسني على حالتي كما تركتموني، فأذني أصبحتا ضعيفتين وغدا سمعي ثقيلًا- ثم أردفت قائلة وهي تمسد شعره بيدها: أين إخوتك يا عزيزي، أين هم فأنا لا أراهم؟.

نظر الشاب إلى جده وقال بتمهل:

- إنهم عائدون، سيصلون قريباً.

تساقطت دموع قندوز وتنفست رثيها ثم تابعت كلامها:

- استغفر الله، من رأى في هذه الدنيا الواسعة تأخرأ كهذا!.

لم يكن أحد يتوقع ما حدث بعد ذلك. وجد الشاب الذي عاد من الجيش لو توقع حدوث ما سيحدث الآن لما تجرأ وما كان يسمح لحفيده بتمثيل دور " قرالبي". كانت قندوز مريضة جدا وشبه عاجزة عن الحركة ومع ذلك رفعت رأسها وجلست في السرير ببطء وليست الثوب المعلق على طرف السرير وحدها رافضة مساعدة للنسوة، ثم أنزلت رجليها عن السرير وبدأت تبحث برجليها عن حذاءها، ثم قالت :

- تعال معي يا روجي، لقد خبات لك شيئاً...

خرجت قندوز من الغرفة دون أن ترد على أحد وخطت عدة خطوات في المشي ثم وقفت مستندة على ذراع "ابنها"، وأمعنت النظر في أرجاء البيت غير المكتمل البناء وتوجهت إلى الشاب تحدثه بصوتها العميق والمبحوح:- البيت على حاله كما تركتموه يا عزيزي، أترى، حتى أرضية البيت لم أجزؤ على تركيبها مخافة ألا تعجبكم.

ابتدأت الجدة تسرد أخبارها بصورة مطولة، كيف حاول صهرها عدة مرات اصطحابها لتقيم عنده، ولما رفضت اقترح عليها إتمام بناء البيت بمساعدة الجيران والأقارب فلم توافق. وكان الشاب يرى أن البيت قد بقي على حاله كما كان قبل أن يذهب إلى الجيش، وكان على دراية بكل المواضيع التي تتحدث عنها. فقد عاش يئدار في غرفتین صغير خلف هذا البيت قبل الحرب. وعندما غدا البيت عتيقاً وشب أولاده باثروا ببناء هذا البيت الكبير، ولكن الحرب اندلعت وبقي البيت غير مكتمل البناء. ولما تهدم المطبخ القديم أكملوا غرفة من البناء

سكنت فيها الجدة . وبقيت الغرف الأخرى بدون إكساء، وخشب الأرضيات والأبواب والتوافذ موضوعة فوق بعضها كما هي قبل الحرب ولكنها لم تعد تنفع لشيء فقد عمل فيها الزمن فعله. وبعد أن أطلعت قندوز الشاب على كل هذه الأشياء قادتته إلى قرب شجرة الجوز وأرته قطعة حجرية كبيرة غير بعيدة عن جذوع الشجرة وقالت له:

- أرح هذا الحجر لم تستطع قندوز تحمّل الحرارة أكثر من ذلك بسبب ضعفها فجلست على الأرض ، فأخرجوا سريرها ووضعوه تحت الشجرة وأجلسوا عليه الجدة ، ولكنها بعد فترة قصيرة وهنت وتمددت على السرير وأخذت تراقب الذين يحفرون ثم قالت: - بحذر يا أعزائي ، حاذروا أن تكسروا الجرة.. كانت الأم قلقة ترفع رأسها أحياناً . وكان كل الموجودين في ساحة الدار ينظرون إليها ولا يفهمون ما يحدث.

وكان الأكثرية يعتقدون أن قندوز قد فقدت عقلها الآن، وإن بدت متماسكة . قالت قندوز تكلم نفسها وهي راغبة : - اللعين خزر ، يأتي ويقول " أريد أن أقطع من أرضك" كم كنت سأندم لو سمحت له بالانقطاع.

بعد فترة وجيزة أخرج الشاب من تحت الأرض جرة من الطراز القديم تزيد سعتها عن عشرين لتراً <http://Archivebeta.Sakhril.com>

واستغرب جيران قندوز الذين كانوا يعتقدون أنهم يعرفون سرها وزدات شفتهم عليها. حتى جارتها ماروسخان التي يعتبرها الجميع أقرب إليها من ابنتها وأرأف بها وقد أخبرتها قندوز بمكان كنفها ومصاريف دفنها ولكنها لم تطلعها على هذا السر. كأن البعض يقولون أن الأم نسيت هذا الموضوع وتذكرته عندما عاد ابنها، والآخرين يرفضون هذا التعليل ويزعمون بأن العجوز خبأت الجرة الممتلئة بالنقود، لذا كانوا يتحلقون حول الجرة ويتفحصونها . وبعد أن مسحوا الجرة وضعوها أمام قندوز فخاطبت ابنها: -الآن، ادع رجال الحي والقرية ليرفعوا الأنخاب بعودتك سالماً يا ابني العزيز، ففي هذه الجرة "ماخسمة معققة".

أزالوا الشمع المصهور على غطاء الجرة بكل حذر وعانوا محتواها، ولما سكبوا منها في كأس ، كان أحمر قانياً بلون الدم. قالت قندوز وهي تجول ببصرها بين الناس:

- المرحوم زوجي وأنا كنا قد دفنا هذه الجرة في السنة التي سيق فيها

الأولاد للجنديّة . ومع أنّها بقيت زمناً طويلاً تحت الأرض، فإنني كنت أعلم أنّني سوف أخرجها في الوقت المناسب . يا عزيزي ادع الجميع ، وليعلم سكان القرية بنبأ عودة ابني ، وأنّه عاد من سيوسنني التراب. وليجزي الله أهل الحي خيراً ، فلم أشعر بالوحدة بترددكم علي. وإذا ما مت فإن ولدي الحبيب لن ينسى الخدمات الجليلة التي قدّمتموها لي.

شيوخ الحي وافقوا قندوز على رأيها فأرسلوا المنادين وجمعوا سكان القرية ، واقترب كبار السن من الأم وهنأوها بسلامة عودة ابنها من الحرب ، وأعطيت الأم أول الأنخاب ، وكانت الكأس الطاقحة "بالمخسمة المعتقة" تتراقص مع ارتجاف يدها. مرة ثانية أثبتت على أهل الحي وشكرتهم وشربت الكأس دفعة واحدة. ثم قالت مخاطبة المرأة التي تتناول العجوز الجالس بجانبها كأس "المخسمة"

- لماذا لا أسمع صوت الأوكورديون يا ابنتي ماروسخان؟.

قال جد الجندي الشاب:

- اذهبي يا ماروسخان ونادي "كولاشة" فيما أننا قد بدأنا الحفلة فلنتممها إلى آخرها ولتطب نفس قندوز.

وصل عازف الأوكورديون سريعا وانتظمت جلبة الرقص في ساحة الدار. فالشباب الذين رفعوا المشروب المعتق كانوا لا يخافون على أيديهم من التصفيق ولا على أرجلهم من الرقص.

ووصل صوت الاحتفالات جميع أطراف القرية . وتناهى إلى سمع قندوز من بين جميع هذه الأصوات صوت يلدرا الأجلش والضعيف وهو يترنم بأغنيته المحببة " أغنية كواشة غاغة" وأي شيء أحب عند العجوز من صوته.

لم يكن قد نقص من " المخسمة المعتقة" إلا القليل عندما توقف الرقص في ساحة الدار وارتفع صوت العويل.



طفل الشمس للكاتب الشركسي نالو زاور

■ ترجمة مارينا قوموق ■

من يذكر أول لقاء له بالشمس ؟

كنت أجلس في حضن أبي ذات صباح على مصطبة أمام البيت ..

وبما أنني ابن رجل متقدم في السن ، فقد كنت موضع رعاية فائقة ، وصار
يسمح لي بمجالسة المسنين منذ نعومة أظفاري خلافا للتقاليد . في صباح ذلك
اليوم ، وقعت أنظراري للمرة الأولى على فراخ الوز وهي ترعى وتلعب في أرض
دولنا ، تشد الأعشاب بمنابيرها ، وعندما تقبلح في قطعها تقع على مؤخرتها في
حركة مرحة ، كان العشب الأخضر غزيراً ، وبدت فراخ الوز فوقه بقعا صغيرة
صفراء ..

- ما هذا يا أبي . سألت مشيراً إليها .

- إنها فراخ الوز يا صغيري . - أجاب أبي .

وتلتقي نظراتي بإحداها وقد تسلفت السماء ، وبدالي فرخ الوز الأصفر
الذهبي في زرقة سماء ذلك الصباح ، بهالته التي ترى العين ، شبيها بفراخ الوز
الأخرى فوق العشب الأخضر ، فهتفت وأنا أشير إلى السماء :

- فرخ وز صغير آخر ..

- تلك هي الشمس .

- الشمس !!

و هكذا تعلمت كلمة جديدة أخرى في طفولتي المبكرة ، ومع ذلك فقد بقيت
زمناً طويلاً أخلط بين منظر فراخ الوز الصفراء فوق العشب الأخضر ، وقرص
الشمس الذهبي في زرقة سماء الصباح القاتمة . ولما كبرت قليلاً وجدت صنواً
آخر للشمس في زهرة عباد الشمس الكبيرة اليلانة التي رأيته في بستان دارنا
تحقق مأخوذة مثلي بقرص الشمس ، وخيل إلي أن الشمس تحضنها بنظراتها

وتبتسم لها ، كانت زهرة عباد الشمس التي لم أعرف اسمها إلا فيما بعد ، بصفتها الذهبية الناصعة وأهدابها الصغيرة التي تتطاير مع النسمات ، شبيهة بالشمس تماماً فسميتها " طفل الشمس "

وهكذا تم التعارف بين الشمس وبينني ، وقضينا معاً أوقاتاً ممتعة ونحن نلعب سوياً ، فقد اعتادت أن ترافقني عندما أذهب إلى النهر ، وتصحبني إلى الغابة ، وكل مساء كنا نأوي إلى الفراش سوياً ، لم أعرف الملل قط وأنا بصحبة الشمس ، وقد اعتدت في تلك الأيام أن أنهض مبكراً وأناديها :

ياشمس يااحمرء الوجه ،

ياذاث الثوب الحريري الأحمر .

اخلعي ثوبك واخرجي ،

اخرجي واشترقي لنا .

ابعي الدفء في مياه الجداول ،

وانضجي ثوب الأرض في البراري .

وانبتي لنا البطيخ الناضج

والعقي جبين جديتنا الصغير

وما أنهي ندائي هذا للشمس حتى تشرق والبسمة تعلو وجهها ، وتقف مرفوعة الذراعين فوق غابة السنديان العتيقة ، وعلى هذا المنوال قضيت أيامي مع الشمس حتى كبرت ، لفحت جسدي كله بأشعتها ، ومازال قلبي الذي لفحته أيضاً لم يبرأ تماماً ، ويذكرني بين الحين والآخر بوخزاته كلما امتدت يد الزمن لتمحو الذكريات .

♦♦♦♦

ما حدث ، هو أن فتاة جبلية من منطقة الأستين حلت ضيفة في بيت جيراننا ، وعندما رأيته للمرة الأولى خيل إلي أنها بشعرها المائل للحمرة ، والنمش الخفيف المزروع على وجهها ، فتاة لا تتمتع بجمال غير عادي ، وإلا لغابني الحياء على أمري وما أقدمت على زيارة بيت الجيران بوجودها للسهر في الأمسيات ، ففي تلك الأيام ، مامن شيء كان يمكن أن أنتشي أمامه سوى الجمال .

كنت قادراً على القفز في مياه نهرنا " أروك " حتى في عز أيام فيضانه وقطعه سباحة ، وإذا تشاجرت مع أقراني ، كانوا ينهزمون أمامي باكين ،وما كان

لأي صبي في قريتنا أن يغلبني في مصارعة ، وعندما دخلنا إلى المدرسة ، لم يستطع أحد أن يتقدم علي في الدراسة ، وهذا ما حصل أيضاً لما بدأت العمل في الحدادة بعد ذلك ، ورغم أنني فقدت الأب والأخ في سن مبكرة ، فقد استطعت القيام بأعباء البيت برجولة ، أما الشيء الوحيد الذي كنت أقف عاجزاً أمامه ، هو الجمال ، ففي طفولتي أيضاً ، وبعد أن بلغت سن الرشد ، كنت ما إن أقابل فتاة جميلة حتى تخونني أعضاء جسدي ، أفقد السيطرة على ذراعي أولاً ، وتصيحان زائدين لا أدري ماذا أصنع بهما ، ثم يغلبني الشعور بأن قدمي مكبلتان ، وتؤدي بعد ذلك شفتائي ، ودون إرادتي ، حركات تشنجية لا أدري أي مشروع ابتسامة أم شروع في بكاء ، ومن أجل كل هذا ، كنت لا أطيق مقابلة الفتيات الجميلات ، بل أخشاهن و أهابهن ، وكنت لا أحتمل فكرة أن تظن إهداهن أنني أصبحت أسير جمالها .

وهكذا ، لما قررت أن الفتاة الأسيتينية بشعرها المائل للحمرة والنمش الخفيف على وجهها ، ليست فائقة الجمال ، لم أجد حرجاً من التردد على بيت الجيران بوجودها ، بل ومن توثق عرى المعرفة بيننا .

ذات يوم ضاع عجلنا المذل ولم يعد ليلاً ، فالتفتوني فجراً وذهبت أبحث عنه في البراري ، وفي طريق عودتي رأيت الفتاة الأسيتينية عند مطبخة المزرعة الجماعية القديمة على مشارف القرية جالسة القرفصاء وهي تجمع أزهاراً برية ، ماالذي أخرجاها في هذا الصباح الباكر - قلت في نفسي متسائلاً ، ولما اقتربت منها رفعت نحوي رأسها المائل للحمرة ونظرت إلي وعلى ثغرها ابتسامة اهتز كياني كله وأنا أرى في وجه " أزه " قرص الشمس ، تحيط به هالة من شعرها الذي تملأ مع هبات النسيم القادمة مع نهر " أوروك " فبدت خيوط شعرها المائل للحمرة كاشعة الشمس الذهبية ودون أن تنتبه " أزه " للزلزال الذي يحدث في أعماقي أخذت ترفع صوبي باقة الأزهار البرية التي جمعتها ، كان في يدها الممدودة نحوي عشرات من " أطفال الشمس " أقراص صفراء ذهبية ، بأهدابها الناصعة البيضاء .

-خذ هذي " أطفال الشمس " - تقول الفتاة .

إذا كانت هذه " أطفال الشمس " فأنت الشمس الأم - يقول قلبي . نظرت في أعماق عيني " أزه " ، فإذا بهما ملونتان برأقتان وكأن في قاعهما مكن لخيط الذهب المجذولة لا قرار له ، أما أهدابها الطويلة فقد بدت لي كأهداب

شمس الصباح التي عشقتها في رؤى طفولتي المبكرة..

تمردت شفتاي فجأة وتسنجتا بحركة لا أدري أهى مشروع ابتسامة أم مشروع بكاء .. ثم احترت بما أفعله بيدي اللتين أحسست أنهما أصبحتا زائدتين عن الحاجة ، وتبين لي بعد ذلك أن ساقتي مكبلتان وخارج نطاق قدرتي على التحكم بهما ، ازدادت البسمة على ثغري " آزه " شروفاً ، أما أنا فقد جمدت في مكاني متلعثماً ..

- ٦ -

.....تناولت فطوري وذهبت إلى محل الحدادة ، فوجدت رئيس مجموعة حاصدي الحشيش بانتطاري ليكلفني بصناعة سندان لتجليس وسن المناجل الطويلة لحاصدي الحشيش في السفوح الجبلية العليا .

وضعت قطعة جديدة في النار وقلت :

-انفخ !

فقال الرئيس معترضاً بحدة :

- يا أمة محمد ،- أيمكن صناعة سندان من حديد طري؟

!-؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هذه قطعة حديد طري ، ألا ترى بعينك ؟

واتبرى له أحد الحضور :

- لماذا تتدخل أنت في هذا الأمر ، أتعظن أنه لا يعرف ، طالما اختارها

بنفسه فلا ريب في أنه سيصنع لك شيئاً غير عادي .

انهمكت في عملي وكان هذا الحوار الذي خيل إلي أنه أت من بعيد لا يعنيني في شيء..

تركت قطعة الحديد في النار حتى غدت بيضاء كالشمس ، ثم بدأت أطرقها ، وغمرتني السعادة وأنا أحس أنها أصبحت طوع مطرقتي ، وتملكني شعور طاغ بأنني أقادر على الفعل وأن قدرتي على الخلق غدت لا حدود لها ورحمت أعمل فخوراً بطاقة الإنتاج الكامنة في ذراعي منتشياً بحدة الإبصار المتجلية في عيني . ولم يعد يخامرني أي شك في أن قطعة الحديد هذه أمامي ستتحول بين يدي إلى شيء خارق هاهي تتوهج كالشمس ، ولم يبق سوى أن أصنع لقرصها أهداباً حتى

تغدو واحدة من أطفال الشمس التي وهبتها لي " آزه " ولكن يجب إتجاز كل شيء دون أن تسمح للبرودة بأن تتسلل إلى أوصالها ، وإلا غدت سوداء . وهل توجد شمس سوداء ؟ أه ليتني وجدت طريقة لإبقائها متوهجة أبداً .

-آزه شمس "آزه" قمر - تابعت مطرقتي أنشودتها المعدنية ، ياإلهي !! ألا توجد طريقة لإبقائها دائمة التوهج ؟ كيف ستبدو ياترى بعد بردها بمبرد ناعم ، أو ترصيع قرصها بحجارة براقه ؟

لا ، سيكون ذلك مجرد لمعان زائف بينما المطلوب هو أن تبقى متوهجة كالشمس الحقيقية .

لم تتوقف مطرقتي ولم تهدأ أو تتمهل ، ومن شدة وجدي بعملتي يبدو أن سيلاً من مفردات ثمانم سحرية طالما رددتها قدماء المعدنين الشرکس جيلاً بعد جيل في مواقف مماثلة ، اتبجست من أعماقي وأخذت أرددتها بصوت عالٍ دون أن ألقى بالا للحضور ، فسمعت صوتاً وكأنه قادم من أعماق الأرض يقول :

- أخشى أن مسأً أصابه ، ماهذه الكلمات الغريبة التي يرددتها؟

- والله إن ما يصنعه أيضاً قريب كالكلمات التي يرددتها .

- ماهذا الذي تصنعه يامنون .

- نعم ؟ - قلت كمن يفيق من حلم ونظرت إلى الحضور ، فإذا الرئيس يكاد يمزقتي بنظراته الغاضبة ، بينما أخذ أحدهم يضحك .

-قلت لك مالذي تصنعه ؟ أداة زينة للنساء أم سندناً للناس الذي ينتظرون في سفح الجبل؟! مالذي تصنعه أنت الآن إذا لم تكن قد أصبت بمس في عقلك !!

وعنما عادت نظراتي إلى ما تمسكه يدي بالمقطع رأيت " طفل الشمس " ، طفل شمس كذلك التي قطعتها " آزه " صباح اليوم الباكر لقد صنعت زهرة بدل السندان ، فكيف حصل هذا ؟ مهما يكن الأمر فقد أوشكت على إتجازها ، ولكن أليس من الأفضل أن تصبح أوراقها أرق وأكثر استطالة ؟

- تابع نفع الكير !

رغم الإحتجاجات أمضيت نصف نهاري في صناعة " طفل الشمس " وحصل الرئيس بعد ذلك على ما أراد .

ودون أن أعرف شيئاً عن المتاعب التي تنتظرني من جراء ذلك ، حملت

"طفل الشمس" مساءً وقدمته لـ "آزه" وبدأت تقلبه بين يديها وتنتظر إليه مأخوذة ، وكلما أمعنت النظر فيه كان وجهها يزداد احمراراً ، انتبهت لذلك فاشتعلت في أعماقي نار أخذت تحرقني . ولاحظ أفراد العائلة تغير وجهينا وارتباكنا فبدؤوا يتبادلون النظرات ويتخامزون ويتهامسون .

كانت "آزه" أول من أفادت فانطلقت هاربة من الغرفة ، ولما أدركت ما حصل غلبنى الخجل والتردد فسألت دون أن أدري كيف ولماذا :

- في أي يوم نحن ؟

- الجمعة ، - أجاب أحدهم فانفجر الجميع ضاحكين ، أما أنا فقد تصببت عرقاً وخرجت متهللاً وأنا أحس به بارداً لزجا يسيل على ظهري .

بقيت الضيفة بعد ذلك شهراً كاملاً في بيت الجيران ولكني لم أجزؤ على العودة لزيارتهم ، أو على النظر إلى وجه الفتاة ثانية . خوض نار مشتعلة كان أسهل علي من فتح باب دارهم ودخوله ، وكان أشد ما يتقل علي هو تصوري أن جيراننا يتهامسون ساخرين : من يظن هذا الحداد الصغير نفسه حتى يفكر بضيفتنا؟

وتذوق نفسي العذاب : "أليس هذا صحيحاً؟ من أنا بالفعل حتى أسمح لنفسي بالتمادي في حبب آزه؟" مجرد شباب أشبه بحداد صغير قذر الديدن وخجول ، وهكذا رحلت "آزه" دون أن نلتقي مرة أخرى ..

جاء الخريف حاملاً معه نبأ زواج "آزه" .

وقع النبأ عليّ وقوع الصاعقة ، وفقدت الشمس هالتها الذهبية في ناظري ، ولم أعد أرى "أطفال الشمس" في البراري التي خيل إلي أنها غدت كالحة جذباء ، وكان أشد ما يؤلمني هو إصرار ابنة الجيران على غرس سكين في قلبي :

- ألم تسمع بزواج "آزه" ؟

وكلما رأيته في دارهم أو في دارنا أو في الشارع أو في أي مكان آخر كانت تمنعني في تعذيبي :

- ما رأيك بما فعلته "آزه" ؟

- وبعد زوال آثار الصدمة الأولى ، تركز اهتمامي كله على الإنتقام ، وهكذا عدت إلى المدرسة لمتابعة ما انقطع من دراستي ، وانصرفت للعمل

المضني لتعويض مافاتني من أسباب العلم متخيلاً أن " آزه " ستندم أشد الندم إذا أصبحت " بروفيسورا كبيراً " ، أو شاعراً مشهوراً يشار إليه بالبنان .

و أخذت أدرس بإصرار وغضب لتحقيق هذه الأمنية ، وكنت أرى في أحلامي " آزه " جالسة تغلب أحد دواويني الشعرية التي صدرت في طبعة أنيقة مزخرفة بماء الذهب ، وقد انهمرت دموعها مدراراً وهي تتدب حظها العاثر : " ياإلهي ! لماذا تخليت عن مثل هذا الرجل ؟ لماذا لم أترج هذا الشاعر الكبير ؟

ولكن ماهو الذنب الذي كانت المسكينة قد اقترفته حتى أعذبها في أحلامي كل هذا العذاب !

لم أدرك هذا إلا في وقت متأخر ، لأنني في تلك السن كنت أعتبر " آزه " عدوة العمر كله ، وأنها اقترفت بحقّي إثماً لا يمكن أن يغتفر ، لذلك تابعت دراستي بعزم وإصرار لا حدود لهما ، واصلت الليل بالنهار ، عاقدا العزم كل العزم على المضي في خطة الانتقام حتى نهايتها .

وهكذا أنهيت دراستي الثانوية أنا وابنة الجيران سوياً ، وذهبنا معاً إلى الجامعة ، وأمضينا معا ثلاثة أعوام دراسية لم تكفّ خلالها عن تعذيبني بتذكيري بما فعلته بي " آزه " وكان أن ذهبنا في أمسية من أمسيات السنة الرابعة إلى السينما وحدنا سوياً ، وفي طريق عودتنا وجدت نفسي أقبلها دون أن أدري كيف حدث ذلك فتغير مصيري كله وغرقت في بحر من السعادة ، كانت ابنة الجيران سمراء دافئة كالشمس تلعب بأهدابها للريح ، وأنجبت لنا أطفالاً ، شمساً سمراء صغيرة تشبهها .

دعيت إلى مدينة " أوجينيكيذزة " لحضور مؤتمر هام يعقده العلماء المتخصصون في " ملاحم نارت " حدث ذلك في العام الماضي ، وهناك أصرتُ زميلي العالم الأسبيني الذي أمضيت عشرة أعوام في جدال ومباحكات علمية معه حول هذه الملاحم والأساطير دون أن نتوصل إلى قناعات مشتركة على اصطحابي إلى منزله وجرتني معه جراً ، وفي الغرفة التي أدخلني إليها بانتظار عودة زوجته ، رأيت طاولتي مكتب ، ولما لاحظت دهشتي قال :

- لاتعجب ، أحد المكتبين لزوجتي فهي عالمة كبيرة ..

وفجأة جمدت عيناها على " طفل الشمس " الذي كنت قد صنعتّه ، والذي سبب لي ما سببه من آلام ومعاناة ، كان مستقراً هناك على طاولة المكتب ، مثبتاً

فوق قطعة خشب سديان أنيقة ، ولما رأى زميلي اهتمامي وانفعالي المفاجئ قال :
-حسبما يؤكد زملائي ومعارفي ، فإن " طفل الشمس " هذا لابد أن يكون
من انتاج منطقة القبردي - ثم حملة وأخذ يتحدث عنه وهو يقلبه بين يديه بلهجة
عالم في الحضارات .

وعادت ربة البيت في هذه الإثناء دخلت علينا " آزه " وكأنها تخرج من
الماضي السحيق ، كان شعري أنا قد شاب كله ، وأحمل ألاماً مزمنة في كليتي
والأم المفاصل ، " الروماتيزم " لا تفارقني بينما وفتت " آزه " قبالي شابة كعهدي
السابق بها وكأنها فتاة لم تتزوج بعد .

وقلت في نفسي وأنا أناقش الأمر بموضوعية : " لابد أن زواجها ناجح
، وأن زوجها عطف ومفهم " ثم أسمع صوت زميلي العالم السعيد متابعاً شرحه :
- أنا في الحقيقة لا أعرف شيئاً عن هذه القطعة ، إلا أن الجميع يسمونها "
طفل الشمس " أيمن أن تعرف شيئاً عنها باعتبار أنها صنعت في منطقتكم كما
يؤكد البعض ؟ ..

نظرت إلي فاحمر وجهها ، وعظما رأيت وجه " آزه " الذي تغير لونه بدأ
وجهي يحمر بدوره وأخذ زميلي يسأل في خيرة :
- مالذي حدث ؟ <http://Archivebeta.Sakhril.com>

-نظرت إليه نظرة بلهاء ، ودون أن أدري كيف أو لماذا ، أجبت به سؤال
آخر .. - في أي يوم نحن ؟ - ثم أدركت مدى حماقة السؤال وشعرت بالإرتباك
، وبالغرق يتصعب مني ..
-اليوم هو الجمعة ، ولكن لماذا تسأل ؟

وفي هذه اللحظة تسأل ظل صاحب وامتلاً ليحجب أشعة الشمس في يوم
صاح ، كان ذلك بفعل شعاع انساب من أيام شبابي أيعرف العلماء ياترى أن أشعة
الشمس تصبح شاحبة كالظل إذا عبرت أزمنة سحيقة ؟ أما شمسي الحقيقية فقد
كانت تشرق الآن في مدينة أخرى ..

من مجموعة " اللقلق الوحيد "

نشرت في ١٩٨١

□□□

القلق الوحيد

للكتاب الشركسي نالو زاور

ترجمة عدنان قالمق ■

لولا النيك المتباهي الزاهي المنتقل في محل حدادة ، المزرعة التعاونية لغدا المكان خالياً وموحشاً كالمقبرة ، هذا النيك المنزل الجسور ، كثيراً ما كان يقترب من السندان الذي ألق خلفه ، ويمد رقبتة محملاً كأنه يريد أن يترك سر ما أصنعه .. وتتعبني صيحاته الموزونة فأترك عملي وأطرده و أتوجه نحو كومة نشارة الخشب الرطبة الطرية ، لأشمد وأرتاح قليلاً .

أهل القرية كلهم خارج دورهم منتشرون في الحقول ، فالقرية خالية من سكانها ، في أعلى شجرة التوت المزروعة في بيت بيتو همدد ينادي المزارعين بلا ملل : " أو .. أو أو أو أو .. أخرج يا فلاح ، أخرج يا فلاح !! " ألا يمل هذا الهدد أو يكل !! فإن صوتة اللخوخ يتعب الروح . خلال الشهر الذي يتوقف فيه العمل ، يغلق النجارون والخدائدون محلاتهم ويطرقون أبواب الرزق في الغابات لقطع الأشجار ، أو يتوجهون نحو بازار مدينة " تزلكا " للتجارة ، كل مكسبه حسب قدرته ، الحياة كلها في إطار السلام بعد الحرب المهلكة .. المزرعة التعاونية لها متاعبها والإحساس بالجوع يعم الجميع ، حتى الأبقار التي ما اعتادت يوماً جر المحراث ، صارت تهاب رؤية رئيس المزرعة التعاونية الأمر بقسوة في تكديهم .. الكل في البرية يشتغلون بدون استثناء .

يفلحون ، يحفرون ، يعشبون ...

من شجرة تفاح جارنا تنطلق شتى الأصوات المتداخلة كخلية نحل ولكن ربما يسمع الإنسان أزيز الذباب أو تصويت الدجاج بعد أن يبيض أو نداء الهدد ، فحسب بالوحشة والكآبة لأبد أن يسيطر عليه .

...أنا في انتظار عكاشة الذي عرج للتعزية أثناء مجيئنا معاً ..

كل ما أريده الآن من هذه الدنيا ، هو أن أصبح في نهر .. وروخ وهو في فيضانه الأهوج الآن . نقول نساء القرية أن نأماشوقا سمعت البارحة صياح

عروس النهر : تعداد صغيراتي لم يكتمل بعد " وقد كررت نداءها ثلاث مرات .. قال أهل القرية : " عروس النهر تطلب القربان " عندما أسمع هذه الأقاويل ، يقف شعر رأسي فزعاً ومع ذلك أحب الغوص في أعماق أعماق النهر ، المتعلمون لا يصدقون تلك الأقاويل ، أما أنا فأحبذ تصديقها ، لماذا ؟ لا أعرف كثيراً ماتخيلت عروس النهر أثناء الفيضان بشعرها الطويل يغطي وجه الماء حتى اللانهاية ، و أسراب السمك الملون تتساب من بين ساقيها مندفعة نحو النبع على سفح الجبل البعيد .. الله أعلم بكل ما يجيش في قلب شاب في الرابعة عشر ..

عندما رجع عكاشة كان عابساً ، ماذا حدث ؟ هل سيفجر غضبه علي الآن؟ لكنه لم يرعد ولم يزيد .. بل ظل يزرع ساحة المحل جينة وذهاباً . هكذا طبعه - عندما لا يجد مايعمله تنكشف شمسهِ ويحس أن ساعديه عضوان ليسا في مكانهما الطبيعي .. جنى على نفسه ! لماذا لم يذهب إلى البازار كما فعل الجميع ؟ فلو ذهب لكان ذلك من صالحه ، ولكن الآن أصبح في نهر " وروخ " مسروراً ، لكنه بدلا من ذلك وقف في الصباح الباكر أمام باب دارنا منادياً :

-بلوط !.. بلوط !..

-تفضل ، عكاشة!

- أي .. تفضل .. الآن يارجل ! اليوم يوم عمل !

- أستاذي يظهر معلّمته .. يقولون أنه صاحب علم ، ولهذا أدعوه بأستاذي .. منذ نشأتي ، وعكاشة معلّمي بالحدادة .. في الحقيقة لا يوجد في قريتنا حداد يناقسه ، لكن هذه الحقيقة لايعرفها هو ..

-اعكاشة ! لا يوجد عمل في المحل يجب إنجازه فماذا نفعل هنا ؟

-أنت أعلم بما في المحل من عمل ! هيا ! .. هيا ! .. الناس في البراري والعرق ينضج من أجسادهم و أنت قابع في البيت تحتسي الشاي كالأمير ! فعلاً كنت أشرب .. ولكن ماأشربه لم يكن شاياً بل هو منقوع بعض الحشائش البرية المجففة ، فمنذ أن بدأنا نكون البقرة ضمير ثديها ونسينا إحتراس الحليب - ... حسناً، لنفرض أن أحدهم طرق بابنا لكي يصلح معزقه فماذا تعمل ؟ ألا يخلجك هذا ؟

أجيبه بقحة جريئة على غير عادتي : - ولم الخجل ؟ يخلج غيرنا ..-ماذا أرى ! " ديكاً يصيح من البيضة .. أيضاً ديك من البيضة " !

ها نحن الآن في المحل .. وقد دفعني الملل إلى امتطاء صهوة عجلة عربية ،

وهو يبحث عن أي شيء يشغله .. هل هذا أفضل ؟ و هذا الهدهد اللعين مازال ينادي .. " أو .. أو .. أو أو أو .. أو .. أو .. أو .. أو .. أو .. أو .. متى كان المزارع يفلح في عز الصيف ياحمار ؟! لا طارق لإصلاح معزق أو فأس ، والنار في الموقد حالت إلى رماد بلا حياة .. " انفخ بابلوط ! " يناديني عكاشة عجباً ، ماذا يريد أن يصنع ؟! سوف يصنع ملقطاً أو أي شيء آخر .. الدواعي كثيرة لإزعاج الآخرين ، لو كنت مديراً للمزرعة التعاونية لما دعوت الحدادين للعمل صيفاً ، ولكن هل يوجد مديرٌ طيب القلب يفكر هكذا ! .. يتملكني الغيظ لعدم قدرتي على الذهاب إلى نهر " وروخ " . بين يدي عكاشة قطعة حديد يتأملها ، وبعد أن تحمصها ملياً وضعها فوق النار بعد أن أجبها و انفرجت أساريه ..

....عكاشة رجل أسمر ضخم الجثة ، بشارين جميلين وخطهما الشيب عندما يلتفت انتباهي بساعديه المقنولين ، أخالهما جذعا سندية ، الشرايين ناتئة على عضلاته .. أثقل مطرقة ترقص في قبضته بخفة ورشاقة ومع أنه لم يمسك في حياته سلاحاً غير المطرقة فقد كنت أشبهه بالعملاق النارتي سوسروقة .. هل ذلك لأنه أسمر حديدي ! أم لأن جسده سوسروقة الفولاذي سقي في محل آلة الحديد.. " ليندش أحياناً كنت أرى في أحلامي : محل حداة آلة الحديد لشب ، " !

وأنا بداخله واقف بجانب السندان الضخم .. وإذا بالعملاق النارتي سوسرقة على صهوة جواده وبين يديه رصحه ذو الرأس المزودج واقف أمام الباب ونور الشمس يسطع كتاج فوق خوذته ، وعندما يرفع خوذته ، يظهر وجه عكاشة - لاسوسروقة .. عندما تراه يعمل يراودك إحساس بالسمو والرفعة ، فمطرقة ترقص وتغني على إيقاع دقيق رتيب ، يتعامل مع الحديد كما يتعامل الخباز مع العجين أو المثال بالطينة ، يقولها كما يريد: تلك القطعة الحديدية التي كانت مهمة في إحدى الزوايا ما أن يتناولها حتى تتحول إلى قطعة حية ، فبقدره خفية تتحول إلى حذوة حصان لها طبيعتها على الأرض التي يدوسها الحصان ، وبعد أن يكتمل ماصنعه ويقلبه بين كفيه ، ترسم على محياه بسمة النصر السعيدة ، ويشع نور الشمس فوق رأسه ، ويظهر بريق أسنانه البيضاء الناصعة في تجويف فمه المنفرج ، ثم يتوجه نحوي قائلاً : - بلوط : الحداد يعمل برأسه ، بعقله .. راقب طريقة العمل ، هذا يفيدك في المستقبل .

بعضهم يتصور أن عكاشة رجل عصبي المزاج سيء الخلق ، أما أنا فلم تفرغني نزواته ، فقد عرفته جيداً : إذا حدقت ملياً في عينيه وهو في أوج غضبه

تراه يلين ويهدأ ، ولكي يخفي ضعفه يهيج أولاً ، ثم يتراجع نادماً وتعود ملامح الطيبة ترسم من جديد على وجهه ، ثم يتسم قائلاً : " يالعين ! " ويدير ظهره في مثل هذه الحالة ، بإمكانك أن تطلب منه أي شيء ، فعنفوانه قد تحول إلى لين وأصبح غير قادر على الرفض إطلاقاً ..

عندما يصنع عكاشة شيئاً مهماً يتحول إلى إنسان دقيق الحركات .. فالملقط الذي بيده اليسرى يمسك قطعة الحديد ، وباليمينى ملقط يلملم به الجمرات ، فلا شاردة منها ولا واردة ... عيناه الآن معلقتان بنار التتور تخترقهما وتلحظان سريان حرارة النار في الحديد .. وعندما يطرق الحديد في اللحظة المحددة يتناثر الشرر نجومًا في السماء ويتبعثر .. طالما راقبته ، وكثيرًا ما حاولت معرفة ما يريد صنعه ، لكنني لم أتمكن من ذلك يوماً .. تلتمع عيناه ، وترسم البسمة على شفاهه : -هلوط ! .. ما معنى هذا القول ؟ : " ياليتي كنت صبيًا مرضعًا " وأتم جملة طويلة باللغة العربية الغربية على سمعي ، كثيرًا ما سمعته يتكلم بالعربية ، كان يجيب على سؤال أحد المسنين بالعربية ثم يفسرها له بالشركسية ... بعد أن فكرت قليلاً أجبتة : - ماقلته قد يكون ذكراً .. يجيني : - ولماذا تظن أن كل مايقال بالعربية " ذكر "؟! وهل أفقه شيئًا بالعربية أنا؟! .. أنا أعرف شاعرنا المحبوب علي شوجن تسك ، ميرمنتوف ، بوشكين ، جوتييه ، شيلر ..

اتبسطنت أسارير عكاشة ونظيخته الوجيئة في المزاج ..

- إذا أغضض عينيك واسمعي جيداً ويترجم ما قاله بالعربية إلى الشركسية ثم يسألني : هل سمعت مثل هذا القول سابقاً يابلوط ؟ .. لو عرفت أن حسناء سوف تقبلك إذا بكيت ، ألا تبكي يابلوط ؟

ويضحك عكاشة ... ماذا تقول ؟ مارأيك ؟ .. لو كانت تلك الروسية التي تسكن في بيت " بيترجوج " تحتضنك كلما بكيت ، لبكيت دون توقف يابلوط .. أليس كذلك ؟ احمر وجهي ، وأطرقت برأسي خجلاً .. الحقيقة ، كلما رأيت " إيرّا " كانت تجذبني وتلاحقها عيناها رغم كوني في الرابعة عشرة من عمري وإيرّا فتاة ناضجة ، أعلم عكاشة هذا ، أم أنه قد اكتشف أيضاً أن عيني " إيرّا " الكرزيتين الغامقتين مغمستان في الشهد ؟!

أندمد لأخفي خجلي و أقول " وهل في القرآن مثل هذا القول ؟ - لا ، في القرآن لا يوجد مثل هذه التلاعبات ، هذا شعر ، كالشعر الذي يكتبه لكم " علي شوجن تسك "

-ومن أين لك هذا العلم ؟

- إيه .. بلوط ، بوط ! قصتي مع العلم طويلة ... في البداية توجهت نحو منطقة " جلا خستي " لأدرس المنطق والجغرافيا وعلم النجوم على يدي الأستاذ فنزي مجيد ، الأستاذ فنزي مجيد كان عالما فذا ، لكنه في المدة الأخيرة ابتعد عن الدين والقرآن .. أثناء الدراسة كنا نحضر له الطعام بالتناوب ، وجاء دوري وجهاز له مائيسر ، لكنه لم يأت .. انتظرتة و طال انتظارني ، وشعرت بالملل وبدافع الفضول تناولت أحد كتبه .. كان عنده الكثير من الكتب في الكتاب الذي تناولته قرأت أقاويل لم يسبق أن سمعت بها عندمارجع فنزي رجوتة أن يعيرني الكتاب " طبعاً ، سوف أعيرك الكتاب على أن تقرأه ثم تعيده إلي " .. كلما احتجت كتاباً خذه و أقرؤه ، سوف أكون مسروراً .. للكتاب الذي أخذته كاد أن يسلب عقولنا نحن طلاب علوم الدين ، كل منا رمى ماكان بين يديه من تفسير ومنطق وغيره وانكب يلتهم الكتاب التهاماً .. قصصنا مع الكتاب دوت في أذان معلمي الديانة وهاجت ألسنتهم بالقال والقال " و أداروا لنا ظهر المجن " واتهمونا بالكفر والحقيقة لو طالعت صحبتنا مع مثل هذه الكتب لانقلبنا إلى ملحدين ... " الحياة العربية يابلوط ليست كلها قرآناً و نقها ، للعرب حضارة عريقة ، لديهم " ألف ليلة وليلة " ولديهم " كليلة و دمه " ولديهم الكثير ، أما الكتاب الذي جذبني أنادون غيره من الكتب فهو مجنون ليلى

-وماهو هذا ؟

- إيه .. إنه كتاب عجيب كنه شعر ، وهو عن اللهو والصبا والشباب ، منذ عام و أكثر عمل مع عكاشة ، لكن عكاشة اليوم غير الذي أعرفه ، كنت أنظر إليه مندهشاً ، عكاشة بين أصدقائه تراء يتحدث عن الرسول " صلى الله عليه وسلم " كأنه رجل دين ، ويتطرق إلى بعض العلوم بحذافة وتراه يهتم بالزراعة ومستقبلها ، ويتناول أساطير النابرتين بعلمانية مذهشة ، لكن الموضوع الذي يتحدث عنه اليوم لم يتناوله أبداً بين أترابه ، مايتحدث عنه اليوم أمامي خلته كالذهب في الصندوق المخبأ بعيداً عن الأنظار ، محظوراً على الناس ، لم أر وجهه واضحاً هكذا وضوح الشمس مثل اليوم ، وقلبه مرآة وجهه بهذا الصفا ، أبداً ، عكاشة اليوم بعيد عن عكاشة الذي عرفته في السابق بعد السماء عن الأرض ..

- " مجنون ليلى " أعطائي إياه " حاج بارا " أفندي من قرية " قوغولقوي "

- معلم المنطق ..

- أهالي " قوغولقوي " مشهورون بالكذب ، فكيف يمكن أن يدرسكم المنطق واحد منهم ؟

- ومن قال ذلك ؟ - سألتني والابتسامة التي كانت على محياها قد غابت تماماً ، وابتعدت حاجباه عن عينيه القلقتين ..

- " زوبجيل " أقسم لي بأنه لا يوجد أحد في هذه القرية لا يكذب ..

صمت عكاشة عن الكلام ، إلا أن يديه تابعتا برتابة تفريق أو تجميع الحجرات الحمراء بملقطه الحديدي ، وقد غطت وجهه كآبة مريرة ، بعد صمته الهائج التمتع عيناه ببريق عجيب وسألني :

- ما تقصده ذلك الرجل الذي يعمل في المدرسة ؟.

- نعم ، هو .. زوبجيل ..

- أوليس هو أيضاً من قرية قوغولقوي ؟

- نعم و أنا أستغرب كيف يتهم أبناء قريته بالكذب افتراءً ..

- أنت مخطئ يا بلوط .. وتفرج شفتاه من تحت شاربيه مبتسماً -

أنت تغالط نفسك ..

- وكيف ذلك ؟ <http://Archivebeta.Sakhril.com>

- عندما تتهم أبناء قرية قوغولقوي بالكذب و أنت أيضاً واحد من سكان القرية فتلك مغالطة كبيرة ، ومن الخطأ تصديق المدعي - ويزورني عكاشة بإحدى عينيه ..

- ولماذا ؟

- هل يدعي زوبجيل أن أهالي قرية قوغولقوي منافقون !- نعم

- إذا فزوبجيل أيضاً منافق لأنه هو واحد من سكان القرية ، ولا يمكن تصديقه أليس كذلك ؟

.....لم أجد جواباً له ..وتابع عكاشة .. أما إذا كان أهالي القرية كلهم لا يمكن صادقين فزوبجيل أيضاً صادق وزوبجيل إذا كان صادقاً فأهالي القرية كلهم لا يمكن أن يكونوا منافقين لأن زوبجيل كونه صادقاً وهو من أهالي القرية تنفي التهمة القائلة بأن القرية كلها منافقون .. صحيح ؟ أنعتق من دهشتي و أجيبه : - كأنه صحيح .

- إذا كان سكان القرية صادقين فزويجيل أيضاً صادق .. إذا كان زويجيل صادقاً فسكان القرية يجب أن يكونوا منافقين مافولك في هذا يا بلوط ..؟

- غريب !! تملكنتي الحيرة وانغلقت صامتاً ، في مسيرة حياتي لم أسمع أعجب مما سمعته من عكاشة - صعوبة إدراك موقع الصدق والكذب عن الإنسان .. كنت واقفاً أحملق في وجهه ، وعينا عكاشة كانتا مثبتتين في نار الكير يوججها ، و حالما حرك رأسه مثبّثاً عينيه نحوي أدركت مدى انتباهه لأثار مداعباته في نفسي - عيناه الملونتان تتقدان وشفاه تنفرجان : - ممالك ، بلوط ؟ هل وقعت في شباك حبال الكلمات ؟ ثم يقهقه عالياً ويتابع : - بلوط - كم شعرة يجب أن تسقط من رأس الإنسان لكي يصبح أصلعاً ؟

- سبحان الله ماهذا المزاح ؟ الآن توضّح لي لماذا يقول الناس عن عكاشة أنه صاحب علم ، أيقنت الآن أن لعلم المنطق وعلم النجوم عند عكاشة نتائجها الباهرة ، لكن ما استغربه رغم هذا العلم ، لماذا يعمل عكاشة حداداً ولا يعمل معلماً مثل محمد سرخ عندما فتحت فمي لأريد أن أسأله ، توقفت فور سماعي صوت غليان الماء كان قد رمى قطعة الحديد في الماء البارد وانتشلها ثم رامها أمامي قائلاً : - خذ هذا يابلوط

القطعة الحديدية التي رنبت أمامي نوت في عالمي كترينة مدفع. ماصنعه عكاشة لم يكن ملقاً ولا فخاً ولا مسدساً ، ماصنعه .. كيف تصدقني ؟ إذا قلت لك أنه كان لقلماً ؟ عندما كان يعمل لم يخطر ببالي أن أوجه انتباهي لما تصنعه يده ، كنت منجذباً إلى حديثه المبهر .. مارماه أمامي لم يكن متوقعاً أبداً ... وناقصاً لساني..الذي عقد لساني هو عكاشة ، رجل الدين القارئ القرآن ، يصنع لقلماً حياً ويطير ، وأنا أعرف أن الإسلام يحرم التصوير - هكذا سمعته يقولون ، وها أنا أرى حامل العلم رجل الدين المحترم يصنع ما حرم الله صنعه .. كيف هذا ؟ وكيف لم يخف من نار جهنم ؟ هو ذا عكاشة يلف سيكارة بكل هدوء وكأنما لم يقرّف ذنباً ، و كأنما هو غير عالم بما اقترفت يده من حرام ..

- ممالك يابلوط ... ألا يشبهه ؟

- يا عكاشة يقولون أن تصوير المخلوقات حرام ..

- لا تبال ، أنا أدري بالحلال والحرام ..

بعد فترة ، ازداد انتباهي لجمال اللقلق الذي صنعه عكاشة .. كان اللقلق يررف بجناحيه في الهواء ، وساقاه ورقبته ممدودتان مداً ، الغريب أن رقبة اللقلق

كانت طويلة ، طويلة بشكل غير عادي والساقان ايضا ، والجناحان بالنسبة لحجم الجسم كبيران ومنفردان أيضاً . طريقة التواء الجناحين توهم الناظر أنهما يتحركان ... فكانما التلقّ يسبح في الفضاء منساباً ، عندما أعدت الكرة و أعملت فكري ، اكتشفت أن التلقّ لو كان بحجمه الطبيعي .. لما أحسست أنه حي ويطير في الفضاء كيف هذا ؟ من أين لعكاشة علم نفخ الروح في الأجساد عكاشة الذي لم يرسم قط ، ولم ير رساما ، لست متيقّنا ..

إنني أستطيع أن أجيبكم على هذا السؤال ..

- هذا ما يقال عنه التلقّ الوحيد يا بلوط - قالها وهو يمد يده ليتناوله من بين يدي ، التلقّ في كف عكاشة الضخمة جاثم و كأنما قد مسه قلق مخيف ..

وهل يطير التلقّ وحيداً ؟ .. يطير التلقّ دائماً مع جماعته حبلاً طويلاً ..
- لو كان التلقّ يطير وحيداً ، لما قالوا " التلقّ الوحيد " يا بلوط .. أتعرف ماذا يقول العلم في هذا ؟ .. ويتأمل التلقّ الذي في كفه كأنه يبحث عن عذر في خلقه ..

- ماذا يقول العلم ؟

- .. إذا رأيت التلقّ وحيداً فهو تائه " ..
عندها أدركت سبب قلق التلقّ الجاثم في كف عكاشة .. كنت قد حدثتك عن الضجة التي حصلت من جراء قراءتنا للكتب غير الدينية - مجنون ليلي وغيره . في ذلك الحين أذكر مقاله لنا مجيد " لا تستعجلوا " .. كل في أوانه المناسب جميل " وعندها سمعته يقول : " التلقّ الوحيد في الفضاء تائه ، والرجل في الوحدة كالطفل الصغير " ومنذ ذلك الحين علق هذا القول في رأسي ..

عكاشة يقلب التلقّ في راحة كفه وعلى محياه مسحة من الكأبة يفكر : " هذا ما كنت أراه في أحلامي .. وحيداً في الفضاء ، أنادي رفيقي بلا مجيب ، الخوف يغلبني والقلق يأكلني كثيراً مارأيت هذا في أحلامي "

بعد أن أعطاني عكاشة التلقّ ، أخذته وعلقته فوق باب المحل كعلامة مميزة خاصة بالحدادين ، في اليوم التالي عندما وصلت محل الحدادة ، كانت الحركة غير عادية ، حيث أن كل الحدادين و النجارين كانوا مجتمعين في الحائوت يتجادلون في أمر مهم ، أنقبت عليهم التحية ببشاشة وبساطة ، لكن ردهم لم يكن بالمثل بل اخترق الجمع النجار المربوع القامة وقال :

- هذامن صنع يدريك يالعين ، لا غيرك ؟ أمثالك الفاسقون فقط يتجرؤون

على مخالفة أوامر الله!

- ماذا جرى ؟ ..ماذا فعلت ؟

- انظروا إلى هذا الفاسق ! .. من غيرك يستطيع أن يصور اللقلق ويعلقه على الباب كأنه يقول : " بلطوا البحر ! " ... من ؟

- هذا ليس له علاقة .. أنا الذي صنعت اللقلق ..

التفتت ، وإذا بعكاشة ورائي ، قال النجار المربوع القائمة متوجهاً نحو عكاشة :

- يا إلهي ! .. وكيف هان هذا على روحك ؟

...تناول عكاشة اللقلق ، ووضعته على السندان ، وهوى عليه بمطرقة ضربات متلاحقة ثم رماه جانباً ، وأدار ظهره وخرج دون أن ينبس بكلمة .

منذ ذلك الحين تعاقبت سنوات عديدة ومع ذلك ، لم تمح من ذاكرتي صورة لقلق عكاشة ، وكلما تذكرت حادثة القتل - تهشيم اللقلق -

انتابتني رعشة كأنما سكين يقطع أوصالي ، وقبل وفاة عكاشة بفترة قصيرة حينما رأيته صدفة في القرية ، ارتسمت على وجهه ابتسامته العريضة - " رحمه الله " - وعندما ذكرته بما كان يقول لي " التلّلق الوحيد في القضاء تائه ، والرجل في الوحدة كالطفل الصغير " رفع رأسه مثبتاً عينيه الغائرتين في وجهي وقال : أتذكر هذا إلى الآن يا بلوط ؟ .. وكانت ابتسامته المعتادة ترقص على شفتيه من تحت شاربيه الكثيفين الأشيبين .

من مجموعة " التلّلق الوحيد " نالنتشك ١٩٨١

□□□

من مجموعة " دموع الرجال "

نالتش ١٩٩٢

تأليف: قارموقه محمد

■ ترجمة نظير شوق ■

المنتصر على أجله

لم يبق لـ (أبرج) إلا اسمه ، ذلك الذي لجأ إلى الغابة الكثيفة منذ سنين عديدة ، و أضحى واحدا من كائنات تلك البيئة .

كان أعداؤه يرهقونه ، وكان سندا قويا للضعفاء والأبرياء ، صارما شديداً على المتجبرين ، كما كان مستعداً لبذل دمه وروحه في مقارعة الأمير ورغم كل المحاولات الفاشلة للقبض عليه فقد بقي وصول ويجول في الغابة بأنفة وكبرياء .

وبعد محاولات كثيرة تمكن رجال الأمير من قتل حصان (أبرج) وكذلك كلبه ، كما جرح (أبرج) شخصياً ، وتمكن (أبرج) من الإفلات منهم بالرغم من جرحه البالغ الذي تفاقم أثره فصار بحاجة ماسة إلى ملاذ له في الوقت الذي شدد فيه أعداؤه البحث عنه .

وكان طبيعياً أن يقبض على الرجل المثخن بجراحه عند أول إنسان يلتقي به خارج الغابة وقتلوا قدميه ويديه .

عولج (أبرج) من جراحه تمهيداً لإعدامه ، ولقد بحث رجال الأمير في اختيار أشجع الطرق المطروحة لإعدامه ، منها :

الإعدام شنقاً ، أو حرقه بالنار ، أو تعليقه من قدميه حتى الموت والمهم في ذلك هو الإرضاء الأمثل للأمير .

وحينما استحال فيما بينهم الوصول إلى قرار رفعت القضية للأمير ، كان

الجميع يعترفون بشجاعة (أبرج) و منهم الأعداء وفي مقدمتهم الأمير ، لذا حكم الأمير بإلقاء (أبرج) فوق تلك التلة المسيجة وإطلاق أشرس النمر عليه بعد تجويعه ، ليفترسه النمر على مرأى ومسمع من الجميع بسرعة وبدون رحمة ، ولعل ذلك المنظر كان يبهج الأمير ويسليه بعض الوقت .

كان (أبرج) في السجن مقيداً بالأغلال حينما أبلغ بأن الحكم عليه سينفذ غداً ... لكنه لم يفاجأ بذلك ، وأمضى ليلته القاسية على السرير المكون من دفتين خشبيتين لا قوائم لهما .

واستطاع (أبرج) كسر إحدى الدفتين والحصول على قطعة خشبية قاسية لا يتجاوز طولها الشبر كثيراً ، وعمل على تدقيق طرفيها بالنحت ثم قام بإخفائها في كتمه ، كما وضع حفنة من التراب في جيبه . في الساحة الكبيرة التي أحيطت بالناس ، اتخذ الأمير لنفسه مكاناً مرتفعاً وقد أحاط الحرس به من كل الجهات ، متعجباً من أمر الرجل الذي ينتظره الموت وهو لا يبالي بشيء . ووجهه في اتجاه المكان الذي سينطلق منه النمر ، وقد استعد لملاقاة حنقه بجرأة وثبات .

أشار الأمير بيده فأدخل النمر في الشباك الحديدي حيث زأر بشدة وحنق بعينيه في الذي سيصرعه . وصار النمر يمشي ببطء وتوثباً تمهيداً للانقضاض .

استعرض (أبرج) حياته كلها بسننه الأربعين في تلك اللحظة إنها المعاناة .. والعذاب .. والكفاح .. كل تلك الآلام تطارد (أبرج) يتقدم النمر ببطء شديد ، ولكن سبق أن تعرض (أبرج) لمخاطر الموت المحقق مرات .. ومرات . حتى مع تلك الغابة .

لا يعرف الحاضرون أن للغابة قوانين تجب مراعاتها . وقد كانت الشجاعة كفيلاً بانتصار (أبرج) دوماً ، كما كان بارعاً في الرماية ، حتى أنه يصيب الطائر في الجو ، وبرصاصة واحدة فقط على جبهة أقوى الوحوش في الغابة يوقعه صريعاً دون حراك .

توقف النمر وارتد إلى الخلف قليلاً وشد أطرافه مع تقويس ظهره مذعوراً ، رغم ضخامة وزن ذلك الوحش الهائل .

كان (أبرج) يعرف مايعنيه الوحش ، كل حركة من حركاته .. لذا كان ثابتاً في مكانه ينظر إلى النمر بحذر شديد .

استمر مرير النمر وصار يزأر زفيراً مدوياً تمهيداً للانطلاق فالانقضاض

على (أبرج) الذي يترقبه مدركاً ذلك ...

وثب النمر عالياً نحو غريمه المتأهب حيث ألقى (أبرج) بنفسه أرضاً فهو النمر على أنفه أرضاً .. ثم تقابلا ثانية وجهاً لوجه .. وقد استنفذ النمر كثيراً من قوته بهذه العملية ، لذا فخر فاه الواسع وصار يزأر وكأنه يريد التهام ذلك المتحدي الصعب ، تصدى (أبرج) للنمر بمهارة ، فأدخل الخشبة المخبأة في كفه في فم النمر ، فأراد النمر قضم يد (أبرج) الذي أوقف الخشبة القاسية ذات الطرفين المدببين في فم النمر ، وحينما حاول النمر إطباق فمه اخترق طرفا الخشبة فكي النمر وزاد صراخه ..

أمسك (أبرج) قاعدة لسان النمر تماماً ، وباليدي الأخرى ذرقي عيني النمر للتراب الذي كان في جيبه ، دُهل الجميع .. وقاد (أبرج) النمر إلى القرب من موقع الأمير المرتفع والمتميز ، ودق رأس النمر بقوة على صخرة قاسية كانت عنده ففارق النمر الحياة ، وألقى (أبرج) النمر المقتول أمام الأمير .

سحب يده المضرجة بالدم من فم النمر ، ورفع رأسه مخاطباً الأمير :
أيها الأمير المبهجل ، الآن وقد صرعت النمر ، عليك سلخ جلده وإدواءه لأمرتك الحسنة . واسألها إن كان المحكوم عليه بالموت أقوى أم الذي كان سيفذ حكم الموت .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
اتبهر الأمير بشجاعة وقوة (أبرج) كما غاظ من التعليقات الخفية التي توجه من بعض الحاضرين وصاح بأعلى صوته :

يا قوم .. مالي أراكم خائبين ؟ .. إن (أبرج) تمادى في عدوانيته عليكم .. أطلقوا عليه أشرس النمرات . هنا صارت الاحتجاجات بادية على الحضور وتعلت عبارات تقول : الحكم يكون مرة واحدة .. والعقوبة نفذت .. ولكن أمر الأمير كان هو الأقوى بالرغم من ظلمه الشديد ، حيث جال الظلم وعلا على الحق إرضاء للأمير في ذلك العهد .

وتمنى (أبرج) لو أنه احتفظ بالخشبة القاسية من فم النمر المصروع قبل قليل .

هنا تبدأ المفاجأة الكبرى الذاتية .. انقض النمر وتوقف فجأة وشمش مزجراً ، وضرب بذيله بعنف جنبه ، وصارت عيناه بارقتين تنتظران شيئاً ما .. وفخر فاه بشدة بين الحين والآخر متلماً ريقه وفجأة بدأ النمر بحك رأسه على جنبه (أبرج)

وكأنما يدعوه ويرجوه للسلم ، ثم نظر في وجه (أبرج) الحائر من تصرفات النمر ، رفع النمر رجله اليمنى ولوح بها .

ذهل المتفرجون ، وخيم الصمت عليهم مما يرون ، حتى الأمير حار بين ما يراه وما يجب أن يقوله أو يتصرف به ..

وهكذا تنقشع السحب الثلجية الباردة لتظهر بينها الشمس الدافئة بأشعتها الذهبية التي تداعب أديم الأرض .

إن بعض الأمور تكون حقيقية وإن بدت كالأساطير ، ويتذكر (أبرج) حكاية من تلك الأشياء التي صادفته حينما كان في الغابة :

"بينما كان رجل يجتاز الغابة ماشياً بحذر شديد وخاصة من النمر الذي تتسمر كائنات الغابة حينما يزار ، ظهر أمام ذلك الرجل نمر ذو أقدام غليظة ، ولم يعد هناك مجال للترافع أو اللجوء لبندقية المعلقة على كتفه ، وفي هذه الأثناء لاحظ أن إحدى يدي النمر متورمة كثيراً نتيجة شوك قاسية استقرت فيها ولربما كانت ملوثة وأنحبس القيح في تلك اليد ، ولاحظ الرجل كآبة في عيني النمر ، فسحب الرجل سكينه من جنبه وجرح يد النمر بحذر وصار القيح ينزف واستمر الرجل في سيره دونما توقف .. لاشك أن الإنسان والوحش قد تفاهما روحياً .

في هذه الأثناء ارتفع صوت الأمير وصارخاً : أطلقوا أشد النمر شراسة .. وهنا لم يعد الأمير يستطيع مواجهة الجمهور الكبير الذي برأ (أبرج) . لذا اضطر الأمير لإطلاق سراحه .

وأهديت الأميرة جلد النمر ، ورويت لها كل الأخبار عن النمر فطلبت بالإحاح إحضار (أبرج) لمشاهدة ذلك الرجل الشجاع الفذ ، لكن الأمير عارض ذلك .

وبعد فترة من الزمن ، سافر الأمير إلى بلاد بعيدة ، وضاق صدر الأميرة ، وتذكرت قصة (أبرج) ، وأصررت على مقابلة ذلك الرجل الأسطوري .

ويحكى أن الأميرة أخرجت من صندوقها الخاص بالحلي والجواهر خاتم الزواج المرصع بالجواهر الثمينة وقدمته هدية للفراس (أبرج) .



الممر الجبلي

تأليف : سفر بن حه

■ ترجمة : روزا قرموقه ■

الطرق الجبلية تلك التي يسلكها المشاة ليست كغيرها الموجودة في المدن الكبيرة ، فطرق المدينة مستوية تأخذ لونها الأسود من الإسفلت المغطاة به والذي يمارع إلى إصلاحه و ترميمه مباشرة إذا أصابه أي ضرر كما وأنه يعتني بنظافتها وجاهزيتها تماما ، أما طرقنا الجبلية فليست معبدة ولا مدعمة بالبيتون فهي شبيهة بوجوهنا النقية بدون زينة ، وهي متقوّرة في الطبيعة تسير في الوديان والجبال وعبر الغابات والمستنقعات ، و تزحف في السهل و الدغل و تقودك من الأرض الجرداء تحت الشمس الحارقة إلى الغاية تحت الأشجار حيث تقيك حر أشعتها و تضطر أحيانا أن تحني رأسك أمام أغصان أشجارها المتكئة على جانبيها ثم ترجعك إلى الأحجار الساخنة من حر الصيف أو تمررك تحت شلالات الماء حيث تضطر لرفع ثوبك حتى لا تغوص فيها أحيانا أخرى ، وطريقنا هذه تتمايل و تتلوى حسب الطبيعة العنراء لجبالنا لكنها توصلك أخيرا إلى هدفك ، إلى حيث يعيش أحبائك و أهلك وأقربائك ، فهي طريق الخير واللقاء السعيد والمتعة .

وبالمقابل فإن هذه الطرق الصغيرة الضيقة الحنونة توصلك إلى الطرقات الجديدة العريضة المعبدة اللامعة تحت ضوء الشمس إلى عوالم أخرى وبلدان أخرى من هذا العالم الرحب الواسع ، لكن ليست كل الأماكن التي توصلك إليها متشابهة كما أنه ليس كل الذين يصلون ويسировون على هذه الطرقات متشابهين فكثيرون هم الذين لا يستطيعون أن يحافظوا على واقعهم وأصالتهم وطبيعتهم البريئة في تلك البلاد البعيدة و بين الأقوام الغربية ، و هناك مئات الآلاف من المسافرين ركبوا هذه الطرقات العريضة و منهم منذ سنتين فقط ركبت هذا الطريق صبية صغيرة جميلة ذات صغيرتين سوداوين وعينين لامعتين سافرت إلى مكان بعيد .

وبقيت هذه الصببة في خاطر وتفكير الطريق تسأل يوماً أيمكن ألا تعود لأن كثيراً ممن ركبوا هذه الطريق لم يعودوا أبداً معتقدين أن وطنهم هو المكان حيث يجدون ما يفتنون به ناسين أهلهم وقومهم ووطنهم وممراتهم الجبلية الحنونة تلك التي قادتهم إلى الطرق العريضة ناسين ما قدمته لهم من المحبة والخير والسعادة لهم ولأجدادهم ولأزالت تقدم لأهلهم وقومهم .

وهناك بعض العائدين إلى قراهم وأرضهم كزوار مغيرين زيارتهم وطبائعهم جالبيين معهم نوعاً من الغرور والتكبر على أصلهم وقريتهم ، ولكن سريعاً ما يعودون من حيث أتوا لأنهم يشعرون بالغربة في وطنهم ، لأنهم ليسوا هم من خرج من قشرة البيضة هذه ، إنما هم من غير لغته وطبعه وزيه وعادته ، وطرقنا الجبلية كانت ستقول لهم أشياء كثيرة عن واقعهم وحقيقتهم لكنها تعمل صامتة لا تريد الكلام ، ولا تعرفه لقناعتها بأن من يتقنون فن الكلام المنمق ويتاجرون به هم أنفسهم سبب المشاكل وليس سببها من يعمل بصمت ويتكلم عمله ويجيده ، وأنهم ينظرون للوطن كما ينظر الطفل للعبته ، يلعب بها متى يشاء ، ثم يهملها .

لكن طرقنا الجبلية الضيقة غير ياتسة وغير حزينة لأنها تعلم أنه ليس كل من أوصلته إلى الطريق المستوي العريض مثل أولئك الناس قوميتهم ووطنهم ولغتهم بل فيهم الكثير ممن درس وتعلم وأصبح عالماً كبيراً أو مثقلاً مناصب رفيعة وبقي على طبيعته ولم يزل طريقه الجبلية الضيقة أو قريته أو أصله بل ازداد أصالة وتعللاً ونبلًا .

وطريقنا الجبلية الضيقة ، تعرف القادم من المسافرين من النظرة الأولى من مشيته ولباسه وكلامه هل نجح أم فشل وتتمنى لو أن جميع الخارجين نجحوا ولم يمت بعضهم رغم استمراره في الحياة ، ولكانت عندها قد اعتبرت نفسها قد ضمت ولاقت .

وذاث يوم عادت الصبية الصغيرة الجميلة التي بقيت في بال طريقنا الضيق منذ أن أوصلها إلى الطريق الكبير وللأسف لم يتمكن من التعرف عليها رغم شوقها لها ولمعرفة أخبارها .

عرفها صبية صغيرة يشع النور من وجهها المدور الأبيض بعينين سوداوين تلعبان كطائر سنونو في الفضاء ، وهي تحمل حذاءها الصغير بيدها حين وقفت حافية على الحد بين طريقنا الجبلي والطريق العريض الجديد وقالت يا

صديقي يا طريق الأجيال لا أجمل ولا أحب منك يا طريقنا الصغير الضيق فقال طريقنا: ستسبني عندما تقابلين غيري يا إلهي الكبير ! أي حياة عشت ومع أي بشر تعاملت من خطف بريق عينيك ومن امتص رحيق جمال جسدك البض وأي مأساة مرت بحياتك القصيرة .

تألم الطريق الجبلي وتشنّج ، وجعلت العصافير تغني للعائدة الغريبة خائفة القوي فاقدة الجمال. وتساءل هل فقدت جمال الجسد فقط أم فقدت جمال الروح أيضاً . وحاولت القادمة أن تبسم فظهرت أسنانها المرممة وقالت : ألم تعرفني أنا الصبية الجميلة التي غادرتك قبل خريفين فقط .

هنا عرفها طريقنا الجبلي إنها الفتاة التي كان بانتظارها ، الفتاة الجميلة الياقة لكنها كانت كمن عصرت في ماكينة للغسيل .

وسيقى طريقنا الجبلي على عادته خيراً معطاءً وسيوصل من يريد من أبنائه إلى الطرق العريضة ويودعهم داعياً لهم بالتوفيق وراجياً ألا ينسوه يوماً وألا ينسوا أصلهم ووطنهم وقومهم ويقولوا هنا خلقنا وهنا حبونا وهنا قلنا نانا(١) وعلى هذه الطريق سرنا ووصلنا إلى حيث نريد .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrjt.com>

□□□

مختارات من الأدب

القبارد في الشركسي المعاصر

من ديوان " رقصة الغجر " نالتشك ١٩٨٥

شعر ، ورزائي أفليك

■ ترجمة ، ممدوح قوموق ■

تاڤيخ



" حفنة سوناتات "

الريح الغاضبية تطرق نافذتي
وتفتح بابي بغضب

هاقد أصبحت غرافتي مركزاً للعلنون
<http://Arg>

وبدا رذاذ الأرملة الغابرة يتساقط

...

لا أستطيع أن أوقد مصباحي

مع أن النوم قد جفاني

وأسمع صوتاً يناديني تهتز له الغرفة،

أعدو هو من ينادي أم صديق؟!

...

الزمان لا يحمل ديناً لأحد ، إنه يمضي

يمضي و ينقضي دون أن يداري أحدا .

لقد سقطت حبات الكرز قبل نضجها عن الشجرة

وهاهو جذعها يذرف الدموع سراً ..

...

و من بعيد يصل صدى غناء شجي متواصل
يعيد إلى الذاكرة ماغرق في بحور النسيان

أسمع أغنية من بعيد ، أسمعها متواصلة
و أجلس خائفاً ، مطرقاً برأسي
وفي الرأس تدور آلاف الأفكار
دون أن تترك لي لحظة للنعاس

كلما نظرت عبر دروب التاريخ
التي قطعها شعبي أزداد يقيناً من شيء واحد :
يا شعبي لست أنت من يشبه بالقولاذ ،
إنما القولاذ هو ما يمكن أن يشبه بك
إذا صدئ القولاذ يمكن إعادة البريق إليه
أما إذا اسود ، وجه الإنسان فلا يمكن تنظيفه أبداً .
أيتها الريح لم كل هذا الضجيج الذي
يراكم الأفكار السوداء على صفحة الزواجر ؟

تلهدي ما شئت أيتها الغيوم السوداء فوقي
فمن سمائي يطل هلال مضيء

يطل هلال مضيء من سمائي
وتزدحم غرفتي بمائة قرن .
أحدها يحصد سنابل القمح بمنجل
ويصوب آخر نحوه بندقية

لماذا يحدث مثل ذلك فوق الكرة الأرضية
على رقعة ضيقة من هذه الأرض الواسعة ؟
لماذا يأكل الجشع قلب الإنسان ؟

مع أن حياته قصيرة بهذا الشكل الفاجع ؟!

أحدث ذلك من قلة الحب ، الدفء ،
الكلمات العذبة ، الإنسانية ، الشجاعة على هذه الأرض ؟..
لماذا يشعل الإنسان الحرائق على الأرض
لماذا يحاول أن يطفى ضوء النجوم؟!
تهوي من السماء وهي تحرق ظلمات الليل
دون أن يستطيع أحد الإمساك بها

أشرقت شمس الصباح بحنان
وهي تحرق ظلمات الليل بأشعتها
وكانت الذكريات قيداً تحررت منها
ونفضت أستقبل نهاراً وليداً
أجوب برارك ، ضفاف أنهارك يا وطني
وبنصت القلب لأغنيات الفرح التي ترزدها ،
وبعد أن اغتسلت عطورك بندى الصباح
أخذت تتشررت تحتها بلحاء

والقلم التي كانت صامتة منذ الأزل
بدأت تجلو أصواتها بترداد الصدى
وارتفعت التالق في السماء وكأن حبلاً يشدها ،
تقطع أشعة الشمس تارة ، و أخرى تعيد وصلها .

لو كان لي جناحاً لقلق
لارتفعت هونا وحلقت في السماء

كنت ارتفعت هوناً وحلقت في السماء
لو عرفت أن الريح تقبل بي فارساً مرافقاً
وكنت جيت فياقي السماء المشدودة

و أنا أبحث عن الطرق الضائعة

...

أبحث عن معازل الأبطال الذين لم يعرف الخوف
طريقه إلى قلوبهم حتى في مواجهة الموت.
يا أبناء شعبي ، من الذي غدر بكم و طعنكم من الخلف ،
دون شفقة ، عند مفارق طرق الحياة!؟

...

إن ظلالكم مازلت تتأرجح فوق هاوية الجبال الشاهقة ،
ومن الوديان السحيقة تتطلق أصوات صراخ .
إن أمجاد أولئك الذين قاتلوا من أجل ضوء الحياة
ستزئ بيارق مستقبلي إلى الأبد

...

لوعرفت أنني أستطيع أن أعيد إليكم شبابكم
لحقت بعيداً ، بعيداً ، بهذا الأمل وحده

ARCHIVE

<http://Archive.org>

لحقت بعيداً بهذا الأمل وحده ،
بحثاً عن بدائل حياة الإنسان
فليس بين القرون من لا يعرفني ،
وليس بينها من لا يستطيع أن يقدم لي المشورة

...

لكن الضباب ، الضباب المنتشر في كل مكان ،
هذا الضباب ينوخ بقله بدلال فوق صفحات التاريخ
وتشرق الشمس فينأ شاحبة ،
وفي صفحاتها يرتسم قلق كبير

...

ويخيل إلي أنها تقول لنا : " حان الوقت "
أيها الناس ،

لأن تعقلوا و تلقوا بأسلحتكم ،
فأية مصائب هي التي تبحثون عنها

دون أن تجدوا وقتاً لزراعة الحبوب؟

...

و ازداد عجباً من هذه الشمس التي تشرق منذ الأزل ،
أية روح جميلة ، و أية طفولة استطاعت أن تحملها إلى اليوم .

...

أية روح جميلة ، وأية طفولة يتمتع بها إلى اليوم ،
عمي الذي انقصف عمره في الحرب الأخيرة .
ضاع قبل الأوان ، قبل أن تتحقق أحلامه
ضاع في الحرب ولا أحد يعرف مثواه

...

كم من الناس يرقدون تحت الأرض متجاورين
بالرغم من أن قروناً طويلة تفصل بينهم ،
و أقف مطرقاً مجفلاً من هذه الفكرة
و تجمد اللمعة التي تجمعت على صفحة العين
صامتة هي السماء ، الأرض ، وتقف شهادة القبر
حارساً فوق قبوركم دون أن تذرف دموعاً .
وتتبت الكروم حولكم في الغياقي ،
والعين التي تجذرت هناك ماؤها سلسبيل

...

ولأن ماء العين السلسبيل هدية منكم
فإن بطولاتكم ستكون شواهد لي وعلامات للطريق

...

إن بطولاتكم علامات تضفي دربي
ومن سخاء نفوسكم تغتدي روحي ،
و كلما قصفت الرعود و أضاءت البروق
أحس أن الكون لا يذرف دموعه إلا من أجلكم

لنا لم أخض حرباً ، وطوال عمري
لم أصوب بندقية صوب إنسان

ولكنني أفكر في الخفاء أنني
ضحية حرب لم تعرف معنى الرحمة
...

سيكتسي العريان يوماً ،
ولا محالة من يوم يأتي ، يشبع فيه الجائع .
أما إذا وقع شعب بأكمله عند السفوح
فإن آلام الجراح تدوم قرناً كاملاً
...

كم كنت أيباً يا شعبي .. ولكن ،
رصاص العدو أصابك غدراً فهويت.
...

أصابك رصاص العدو غدراً فهويت
ومع أنك لم تكن تريد الأذى لأحد
فما أكثر الذين كانوا يبحثون عن ذلك ،
مضرين على إزقة دمايك على أنهم الأرض
...

سيأتي يوم تنزول فيه الأسلحة على الأرض
وستحرق نار البشرية كل أنواع الظلم
ولا بد أن تأكل شمس أولئك الذين ،
لم يعرفوا معنى حب الإنسان للإنسان
...

ستزهر الأشجار عندها دون أن تخشى الأدخنة السوداء
وستبقى ثلوج الشتاء بيضاء نظيفة حتى تذوب في الربيع
ولن تضيع آثار أقدامكم من درب التبان
ولا بد من يوم نقطع فيه هذا الدرب معاً
...

عندها لن يستطيع أحد منكم أن يقول
أنني لم أعش معكم في تلك الأيام
...

لم أكن أعيش على الأرض في تلك الأيام
ولم أكن حاضراً عندما جردتم السيوف .
الجبال التي رأيت كل ذلك صامتة
مع أن صوركم هي التي جمدت على جدرانها
...

أنظر إليك أيها الجبال ، فتتظيرين أنت نحو السماء
و أنظر إليك ثانية فأراك مطرقة تتظيرين إلى الأرض ..
انطقي أيها الجبال وقولي لي أين كنت ،
عندما وقع كل هذا الظلم بشعبي؟!
..

جبالنا العالية صامتة ، أنظر نحوها من جديد ،
فلا أرى على جدرانها سوى آثار طعنات التواريخ .
إذا كثرت الطعنات على إهاب الجبال
فقد تتفجر براكين في يوم من الأيام
يُخيل إلي أن السفن بانتظارى منذ زمن بعيد
وهاهي الأمواج تتقاذف زورقي
ومن أعماق البحر يتردد صدى أغنية
مفعمة بالحب والعنفوان :

" سترتاح أرواحنا أكثر إذا رقدنا هنا ،
في هذا البحر الذي تزفده أنهار الوطن ،
لن تعتب علينا الأجيال القادمة ، فحياتنا الحافلة
أنهيناها هنا بعد أن فعلنا ما قدرنا عليه "

يُخيل إلي أن كلماتكم الأخيرة ، كانت من هذا القبيل ،
و أنكم لم تعلقوا بالوهم عندما سدت الطرق في وجوهكم .
وكان ذلك جزءاً من شجاعتكم اللامتناهية
وكان ذلك آخر ما يستطيع أن يدافع به الإنسان البريء عن كيانه
وحبه ..

وها أن الآن أجوب في أنحاء البحر
من أجل أن أعيد إليكم اعتباركم

••

من أجل أن أعيد إليكم اعتباركم
أبدأ رحلتي أيها الجنود المجهولون .
فمن أجلكم أنتم الذين لم تخفضوا رأساً للعدو ،
مازال ينبض قلب الوطن ..

أتمشى في أرض الوطن على شارع الربيع العريض ،
كل شيء يضحك ، وهائد أزهرت أشجار الكرز .
وهاهو طفلٌ تقجرت ضحكاته ،
وهو يناغي على صدر أمه

الريح تضرب مرة أخرى نافذتي
وتفتح باب الدار تباديني للرحيل
•••

الريح المتعبة تفتح بابي ، تباديني للرحيل ،
من يدري ربما كانت تعدو دون أن تسترجل
عبر القرون وعبر السنين
وقد وصلت إلينا للتو تحمل شيئاً من أخباركم

عندما تصفر الريح بعنفوان عبر الأسلاك المغلفة بالجليد ،
و المشدودة إلى أعمدة الطرقات ،
فإنها إما تخاطبنا نحن بكل جدية ،
أصتوا ، ألا يشبه صوت الأسلاك صليل السيوف !

تتلاحق أصوات دوي القطارات
وتصغر الكرة الأرضية عندما تتطلق الطائرات .
ومع ذلك فإنني أحس أن هذه الأرض لا تهتز ..

إلا من أصوات سنايك الخيل

إن جراح الأرض مازالت مترعة بالملح
ومازالت تؤلم صفحات تاريخنا .

••

التاريخ نخب بطولة بالنسبة لنا، ولكن الزمان
كم غصناً قصف من صفحات تاريخنا؟
وكل غصن كالقولاذ المسقي كان بطلاً لاثنتين له قناة
ولكن من الذي استطاع أن يروض الزمان

لم يستطع أحد أن يروض الزمان
ولكن عجوزاً شركسياً قال منذ سنوات طويلة :
"عاقِل من يستطيع أن يساير عصره"
و أصبحت كلمات جباغ مضرب الأمثال إلى اليوم .
بمثل هذه الطريقة كان يفكر الأجداد
ولو لم يسرج أولئك الأجداد خيولهم ،
ولولم يبذروا النجوم في درب القبان
هل كان بإمكان الطائرات اليوم أن تخترق الغيوم ؟

وتضرب الريح الغاضبة نافذتي بقوة،
وهي تذكرني بكل هذه الأشياء دفعة واحدة

••

غاضبة تضرب الريح نافذتي بقوة
و أسمع صوت غناء متواصل لا ينقطع
ومن سمائي يطل هلالٌ مضيء ،
يحرق بنوره النضي ظلمات الليل .

كنت سأطلق الهوينا محلقاً في الفضاء ،
بهذا الأمل الوحيد الذي يقوم مقام الجناحين

مازالتي بطولاتكم شواهد الطريق على دربي
وهي ملء العين وملء الأسماع وفي نقاء الطفولة

عندما انهمر رصاص الأعداء عليكم يُجندلكم
لم أكن أنا على الأرض في تلك الأيام
وها أنا الآن أبحث عنكم في قاع البحر^(١)
محاولاً ما استطعت ، أن أعيد اعتباركم

ويفتح تاريخنا البوابة ، يناديني للطريق
إن التاريخ بالنسبة إلينا نخب بطولة

••

مازالتي قصيدتي لم تكتمل بعد
ومازالتي أغنيتي بدون لحن
الأمل هو رفيق دربي الوحيد
وهو وحده لياستي وهندامي
وإذا لم أستطع أن أضغ السراج إلى الآن
على هذا الأمل ، الحصان الجامع .
فأنا لألوم الحصان الأصيل " الألب
لأن القدرة على ركوب الخيل منوطة بالرجال .

■ ■

^١ - يقصد الشاعر البحر الأسود الذي غرق به آلاف المهاجرين

صخرة الدموع

شعر ، غوبجوقة ليوان

من ديوان " ألحان العصر " نالتشك ١٩٨٠

■ ترجمة ، ممدوح قومهوق ■

من ديوان " ألحان العصر

نالتشك ١٩٨٠

في الشمال من مدينة طوابسة ، وعلى شاطئ البحر الأسود ، تنتصب
صخرة عالية اسمها " صخرة الدموع " وبها يرتبط الكثير من ذكريات
التاريخ التركي

ARCHIVE

كم من القرون عذرت وأنت تتنصين هناك

شاهدا على تاريخ شعبي ؟

وكم من مرة ارتطمت بك الأمواج

غاضبة ، صاخبة تحاول النيل منك

" يا صخرة الدموع "

" يا صخرة الدموع "

ويقولون أن الدموع التي تنساب منك باستمرار

هي دموع امرأة تركسية

ومهما بلغت حدة أشعة الشمس المساطة عليك

لا تستطيع أن تجفف منها دموع واحدة

" يا صخرة الدموع "

" يا صخرة الدموع "

يخيل إليّ تارة أنك مرآة للبحر الأسود
و أخرى يخال إليّ أنك ترس لشاطئ البحر
أيتها الصخرة التي لا تكف سياط الأمواج الغاضبة عن النيل منها،
هل سارك يوماً وقد توقفت عن البكاء ؟
" يا صخرة الدموع "
" يا صخرة الدموع " ؟

كم من السفن تساقطت ظلال أعلامها السوداء
على مرآة جبينك المشرق
وكم من الليالي سهرت وأنت تعصرين قلبي
وتذرفين للدموع يا صخرة الدموع
" يا صخرة الدموع "
" يا صخرة الدموع "



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sa...>

عند ذفة شابس
أيها النهر الجبلي الصغير
ياغزالا سريع الجريان
متمرداً كحصان شركسي لم يعرف القيود بعد ،
ماالذي جعلك بهذه الحال التي لا أستطيع معها
أن أعرف ما إذا كنت تضحك أم تبكي

يخيل إليّ أنك إنما تتبع من صدر الأم ،
فما الفرق بينك وبين حليب الصدر ؟
هل أعطاك أجداننا هذا الاسم
بعد أن سقوا خيولهم من نمير مائك

ثم قَدّموا لك غابة السنديان هدية
لقاء الاسم الذي منحوك إياه
إنها تذكر من الأجداد لا أملٌ منه ،

وعندما تتلاعب الريح بأغصانها
يُخيل إلي؟ إنها إنما تتناجى بلغتنا الشركسية

أُيراودك الحنين إليها النهر
للفرسان الشراكسة الذين كانوا يرتاحون عند ضفافك
أو للشركسيات اللواتي كنّ يأتين للأنهال من مياهك
وهن يتهادين بشعورهن التي تصل إلى الأرض ؟
يُخيل إلي أنها النهر أنك مازلت تجري وراءهم
وأنت تصهل كمهر فقد أمه
ويخيل إلي أنها النهر أن أحزانك ،
تصبح بلا نهاية عندما
لا تجد أحداً منهم في طريقك

وعندما يلقي البحر الأسود بأمواله العالية عليك
كحبال مجدولة لتقييدك وكبح جماحك .
تتوقف عن البحث عن الفرسان في أسى
وتعوض على أحزانك في صمت
<http://Archive.uta.ac.ir/>

□□□

دروب التاريخ مقتطفات من القصيدة للشاعر باتلي بالقز

■ ترجمة ، فيصل جلاح ■

كانت الأمواج تتقاذف السفن الهرمة

وهي تنن مترنحة.

وينشد البُغدوغ ١ مراثي حزينة،

تقطع الأوصال.

يُردد الوبوخ ٢ والشابسيف ٣

كلمات المرثاة،

ودموع النساء المرأة

تزيد الأغاني ميراثاً، <http://Archivebeta.Sakl>

يلقي الشراكسة على القفقاس

نظرة الوداع الأخير بحزن عميق،

ودموع الرحلين

تذرف بلا توقف.

تلمع صفوف (الخزر)؛ ، نجوماً حمراء

على صدور الأردية المتناسقة

١ - قبائل شركسية. والبيخ من القبائل التي تم قتلها بالكامل.

٢ - قبائل شركسية. والبيخ من القبائل التي تم قتلها بالكامل.

٣ - قبائل شركسية. والبيخ من القبائل التي تم قتلها بالكامل.

٤ - الخزر : عبارة شركسية ، يُدل بها على عبوات صغيرة للبارود ، لها غطاء لضي ، تثبت

مترافقة داخل جيوب خاصة بها على صدر رداء المحارب.

١٤٢ - الأدب الأجنبية - ■

وتمنطق الذواتبُ الخصورَ النحيلة
بسيوف ماضية.
تعدو الخيول الأصيلة مضطربة قبالة الشاطيء،
تناجي الشعب المهاجر بصهيلها
فكانها أدركت هول المأساة
وأدمت من الفم قلوبها.
يتلوى.. البحر الجامح،
ينتفض نحو السماء ثم يرتمي بضراوة.
وأثار الفواجع
تدفنها الأمواج.
يلعق اليمُ أصوات النحيب
كانها دموع اليتامى
وما يبتلعه البحر من السفن
تتخاطفه الأغوار السحقية.
أولئك الذين جعلوا لك
من السفن الزائفة ومن السفن المنقبة صهوة،
أولئك الطامعون بأرضك
كانوا يتعجلون موتك.
الضقة المقابلة - مصير أليم.
زرائب الأتراك الحقيبة في الانتظار
والموت جوعاً للآلاف هناك
طريقة قتل هادئة.
لا، لا تقولوا بأن الشراكسة
افتقاراً للشجاعة قهروا !
أو تخلوا عن الوطن الغالي
وبمحض اختيارهم رحلوا.
إن كثيراً من الأمراء، زعماء القبائل، ظنوا
أنهم على درب الصواب.
وأوامر الشيب دوماً نافذة،
لا تقبل الاعتراض - كما لا تعود الرصاصة بعد انطلاقها.

لقد اقساموا بالله أنهم
ينقذون البشر من موت محقق.
وللأمانة - كانوا بصدق حريصين.
على إنقاذ نسلهم من الفناء.

فِي بِلَادِ الْإِتْرَاكِ

إيه يا " غربة"
بمرارة أحتسيها
إلى يومنا هذا ،
كلما ولجتُ بابها.
أيا تركية المترامية الأطراف!
حتى وإن لم تسطع في سماكِ شمسِ الوطن،
ولا كان صدرك
كصدر الأم للشركس دافئاً،
حتى وإن عاش على نير الفيلخوة لي،
يتلهفون للغة الأم شوقاً
فلك مني التقدير
لأن أبناء أمتي كثير لديك.
سواء بعيداً عن البحار أم بجوارها،
حيثما يعيش الشركس في العالم أشتاتاً
لكم من القلب التحية يامن
غدوتم لأبناء جلدتي بصدق أهلاً.
عجلة التاريخ تدور،
والعالم يتبدل
أبناء الشركس إلى وطنهم
تباعاً يعودون .
لو أن حياته توحدت

شعب النارئين، العريق،
وعادت لأجياله
سهوب القفاس،
لا يمكن البتة، نحن الإخوة، أن ننسى
جميلاً أسدي إلينا.
دأبنا دوماً، نحن الشرکس، أن نساوي
الخيز والملح بحليب أمنا.
ألا فلنشد لكم، يا بلدان العالم الصديقة
جسور أخوة أبدية
ولكم منا تقدير، يليق بكم
عرفاناً صادقاً بالجميل



البحث عن السعادة

للشاعر ، بوريس أو طيخ

من ديوان حبيبتي داكنا غوه - نالتشيك ١٩٨٧

■ ترجمة ، فيصل جلاح ■

هادئة.

ليلة شتائية هادئة.

لكأن العالم غارق في سبات عميق،

وكان عباءة الثلوج الناصعة

تلف جسد الأرض المقرورة.

يطقطق الحطب في الموقد الشررشي.

رائحة الدجاج المشوي تملأ أرجاء الغرفة.

تتهكم أمي بظهي الطعام.

وعيناها المفعمتان بالبركة تغمرهما البهجة...

السعادة تملأ البيت!...

لكني

سأمضي غداً ، باحثاً عن السعادة...

تلك هي طبيعتنا نحن البشر:

نغفل عن السعادة التي نكتنفها

ونجوب العالم بحثاً عنها.

لكننا ، في يوم ما،

وقد بلغنا من العمر عتياً،

وأنهكتنا السنون،

ونال منا القدم،

نعود أدرجنا،

دون أن نجد ماكننا نحلم به؟!
ونلتقى:
للموقد الشرکسي وقد خبت ناره،
ورحلت الأم الغالية من الحجرة الدافئة ،
وغدا كل شيء بارداً ، مملاً ، شاحباً،
وسرق الزمن سعادتنا...
غداً، سأمضي باحثاً عن السعادة.



مرآة

رياح باردة . ضباب . طين خريفي .
حُجرة مقفرة . ضجر لا متناهي...
إلى ما وراء بوابة الدار تقف عيناى ،
باحثة عن العالم الذي ضاع منى...
لقد رحلت من كائنات ترعّب بي مثل هبة <http://www.egyptology.com>
لم تعد في هذه الدار .. أمي .
بيتنا ، الذي كان في وقت ما
نشوان في أرجوحة السعادة
يغمره الحزن الآن .
تروي عبتنا مرثاة حزينة ،
وتذرف النوافذ المظلمة الدموع .
تزمجر العاصفة في الموقد ،
وتمزق الجدران المتجلدة نفسها..
تُرى .. من يكون بحاجة لأحزاني _
إنها لي وحدي ، فلتبق لي .
ودون أن يحس بي أحد
أسترجع لحظات السعادة الغابرة:

مثل عش بلابل جميل، تلوح الآن أسرتنا أمام ناظري.
 يظهر والذي في قلب الضباب ، محلقاً كفرنوق عملاق،
 وتجلس أمي ، كحسون بديع،
 تحدثني بالكثير.
 وأخي الذي، بأسي عميق ، ارتحل عنا
 يرجع مثل سنوثة.
 وكمامتين ناصعتي البياض تبزغ شقيقتاي،
 وقد عادتَا إلى ريعان الصبا.
 لكن - وفجأة ، يخفتي عالم الذكريات الرحب في ضباب المساء؟!
 ترى .. من ذا بحاجة لأحزان قلبي؟
 إنها لي وحدي ، فلتبق لي.
 ودون أن يشعر بي أحد
 أدفن السعادة الغابرة..
 ربح باردة - ضباب . طين خريفي
 حُجرة مقفرة . ضجر لا متناهي...
 العين لا تتخطى البوابة:
 فهناك ينتهي هذا العالم.

□□□

الحسناء والربيع

للشاعر ، زبير تحه غزيت

من ديوان " الأعمال الكاملة " - نالتشيك ١٩٩٤

■ ترجمة ، فيصل جلاح ■

إلى السماء اللازوردية:
" ياه ، ما أعلاها!"
تُطلُّ السماءُ
على الحسناء الشهباء:
" بالصفاء عينيها!"
تُحدِّقُ الحسناء في الجبال
المتوَّجة بالثلوج:
" ما أنصع بياضها!"
تتفرس القمم الشاهقة
في وجه الحسناء
" ما أبدع نقاءه!"
تُمعن الحسناء النظر
في البراري
المجدولة بوشاح من الورود:
" يالروعتها!"
يتأمل الربيع
ثوب الحسناء
المطرز كالعنقود:
" يالفتنته!"

ينساب الهواء عيلاً
وتتجلي زرقة السماء.
تظهر في سهوب الربيع
حسناؤه في عمر الزهور،
استيقظت
مع بواكير الضياء
تُرى الحسناء
صورتها
في جمال الربيع.
يرى الربيع
حُسنه
في جمالها.
يطير الربيع الفتي فرحاً
فتتاجيه الحسناء ابتساماً.
تُلاطف النسيمات وجنتيها
فتردُّ،
بلا كلمات:
على المداعبة بمثلها.
تتظفر الحسناء

يتبادل الربيع والحسناء
نشوة الفرح
يتفاخران في أوجه الخير لديهما.
يتباريان في الحُسن ،
دون أن يحسد
أحدهما الآخر.
وأنا أرنو
وأسائل نفسي: أيهما أحلى؟
" من الربيع منهما،
وأيتهما الحسناء؟"
يختلط عليّ الأمر في كل مرة...

تُغني الحسناء
" يا أرقط العينين "-
الأغنية التي أسرت قلبها.
يردد الربيع
لحن الأغنية
بأصوات الطيور الشادية
تغمر السعادة
الحسناء
لاحتفاء الطبيعة بها.
تهلّل بالفرحة
المروج - الأم
لافتتان الحسناء بسحرها.



للشاعرة : فوست قبردني

من ديوان : القمّة التي لم تقهر -

نالتشك ١٩٩٤

■ ترجمة ، فيصل جلاحج ■

شكوى المال

يقولون - " إنك، أيها المال أصل كل بلاء!"

لكن من أوجد مصائب الدنيا

هو أنت ، أيها الإنسان ، - فاسمعي!:

بداية للويلات خلقتني،

وأسميتني "مالاً"،

وسيان ذهباً كنت ، أم فضة ، أم أوراقاً نقدية

فأنا من يزلزل حدود هذا الكون!

إنني الشقاء لكثيرين!

من لا يملكني يضنيه القمّ،

ومن يملكني يجفوه النوم!

فقد الخير والجمال وماء الوجه

مكانه في حياتهم، وغدوت محطّ

أنظارهم الوحيد!...

لا، أنا لست حراً -

السيادة لك أيها الإنسان،

فأنت من أوجدني !

لكني سأخبرك الحقيقة الآن،

مادمت قد استدعيتني!...

كم يسعدني

أن يضمّني إلى صدره

إنسان شهم قوي

فرح، مرخ

نألفي لقاء كذّه

أخال أن هناك بلاداً

أناسها متأخون،

وحياتهم رغيدة،

وهم لا يسرقونني..

تأمل إنساناً في الحقل!

ينهض مع أذان الفجر ،

يفلح الأرض ويزرعها، -

ويستبّت من الغابة الدُرر...

وذاك من قعر المنجم

معقراً بالغبار ، ينشّ الفحم

وأخر يغزو الفضاء ،

ومن يمتطي البحر،

أيها البَطْرُونِ التَّعَسَاءِ،
 سَتَدْمِرُكُمْ شَهْوَتُكُمْ لِي!
 سَتَقْرَعُونَ الْعَالَمَ مِنَ الْوُجُودِ،
 وَتَخْتَفِي الْأَعْرَاسُ مِنْ حَيَاتِكُمْ!
 وَإِنْ لَمْ تَبِيدُوا أَكْدَاسَ الْقَنَابِلِ،
 فَانْتُمْ مَعَهَا بَائِدُونَ!
 يَامَعْشَرَ الْبَشَرِ، بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ،
 حَكُمُوا، حَكُمُوا عَقُولَكُمْ!
 وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَعِيشُوا بِسَلَامٍ
 فَعُودُوا لِإِنْسَانِيَّتِكُمْ!-
 اصْنَعُوا مِنْ حَدِيدِ الْقَنَابِلِ مَحَارِثَ،
 وَزَعُوا عَلَى بُنَاةِ الْأَرْضِ!
 وَمِنْ سَبَائِكَ الذَّهَبِ
 صَوِّغُوا لِفَتَيَاتِكُمْ خُلِيًّا مِنَ الذَّهَبِ!
 تَحَرُّوا مِنْ مَدِيمِ الْمَالِ،
 وَدَعُوا الشَّمْسَ تَلْفَحُكُمْ بِحَرِيرَةٍ!
 اجْعَلُوا عَالَمَكُمْ مَوْطِئَ سَلَامٍ
 وَعِيشُوا حَيَاةَ لَا يُشْبِعُ مِنْهَا!..
 فَإِنْ لَمْ يَحْدَثْ..
 فَانْتِ، أَيُّهَا الْكَائِنُ الْبَائِسُ،
 مِنْ سِيكَابِدِ الْوَيْلِ،-
 وَأَنْتِ مِنْ سِيْفِنِي!...
 وَيَبْقَى الْعَالَمُ الرَّحْبَ رَمَاداً،
 خَالِياً مِنْ كُلِّ حَيَاةٍ!

وَمَنْ يَشْحَذُ الْفِكْرَ،
 وَمَنْ يَقْهَرُ الصَّخْرَ،
 وَمَنْ يَخْتَرِقُ غَيَانَ السَّمَاءِ..
 فِي أَكْفٍ هَوْلَاءِ
 أَوْضَحَ أَنَا أَجْراً لَكُدْحَهُمْ.
 وَتَعَبيراً عَنْ فَرْحِهِمْ بِي
 يَفِيضُونَ بِالْخَيْرِ،
 وَيَمْنَحُونَنِي لِلْفُقَرَاءِ،
 وَيَتَعَالَى الْمَرْضَى،
 وَيَعِيشُونَ فِي سَعَادَةٍ
 بَعِيداً عَنِ الْمَكَائِدِ وَالشُّرُورِ
 وَلَكِنْ،
 فِي أَمَاكِنَ عَدِيدَةٍ
 يَتَجَبَّرُ الثَّرِيُّ بِقُوَّتِي!
 وَيَنْزَوِي مِنْ لَسْتِ بِخُوزَةٍ
 فِي بَيْتِ خَاوٍ، تَعَبْتُ فِي ثَنَائِهِ
 الرِّيحَ
 لِأَوَّلِكَ الْمُسْتَبِدِّينَ
 أَشْحَذُ أَنَا أَسْنَانِي:
 لِمَنْ بِأَلْفِ الْمَلَائِكِينَ يَكْدُسُونَنِي،
 وَفِي الصَّنَادِيقِ الْحَدِيدِيَّةِ ذَهَباً
 يَمْلَأُونَنِي.
 يَكْسِبُونَنِي ثَمَناً لِمَاءِ الْبَشَرِ،
 لِلْأَنْفُسِ الَّتِي تَقْتُلُ بِلَا رَحْمَةٍ.
 وَكَلَّمَا أَسْرَفُوا فِي صِنَاعَةِ السِّلَاحِ
 أَزْهَقُوا مَزِيداً مِنَ الْأَرْوَاحِ.

الشاعر القبرديني

علي أسعد شوجن سكو

حياته - وأشعاره -

■ ترجمة: نديم ميرزا ■

إن الأدب القبرديني الذي شهد ميلاداً جديداً في بداية القرن العشرين ، ونبت بجذوره الضاربة في أعماق الأرض وكذلك من ضمير الشعب ووجدانه بدأ ينمو في هذه الحقبة ، منطلقاً من الثقافة الشعبية والرعي القومي الذي أعطى للأدب زخماً وغنىً وتطوراً ، والأديب الشاعر الذي أبدع في عطائه الأدبي ونتاجه الشعري والذي كان من رواد النهضة الأدبية القومية هو (علي شوجن الصغير) الذي يعرفه شعبه جيداً ، حيث عشق أمته التي أنجبته بكل جوارحه دون تصنع أو رياء ، من هنا كان نتاجه الشعري الثمر خالداً لا يعرف الموت ، وتترك عمقه ومعانيه الخالدة كل شعوب الاتحاد السوفيتي سابقاً

<http://Archive.sukhmi.com>

إنه الشاعر الكبير الذي يعتز به الشعب الشركسي بأسره حيث ينبض بالحب والإنسانية ويبرز أفكاراً عظيمة عن الحرية ، ناضل بشعره مع الكادحين والمقهورين من أبناء الطبقة المسحوقة وكانت كل كلمة من قصائده الشعرية تمتلك قدرة كبيرة على التأثير في القلوب والعقول معاً حيث تصدر عن روحه الصادقة الطيبة وقلبه الدافئ الكبير بكل صدق وعفوية .

ومن خلال سبر أغوار شعره تراه مشحوناً بالقلق والتوتر والإحساس المرهف العميق بالواقع وبالمعاناة المريرة منه .

علي أن عمر الشاعر علي شوجن لم يكن طويلاً ، لكنه أعطى لشعبه شعراً غنياً مفعماً بالوفاء وتفاني في إبداعه وعطائه من أجل وطنه القومي .

لقد بث الروح القومية القبردينية في الأدب و أرسى له قواعد الأصيلية وغرس جذوره وشق له الطريق القويم وبذلك اعتبر من الرواد الأوائل للأدب

القومي القبرديني ، حيث نظم القصائد بلغة شعبه المعذب الصغير وبألفاظ موحية و معبرة استطاعت أن تعبر عن أفكاره القومية بصدق ووضوح وأن تؤثر في اتجاهات الجماهير من أبناء أمته .

إن نتاجه الأدبي الرائع المكس لوطنه ومستقبل شعبه هو الذي جعل مجلس الشعب القبرديني يمنحه وسام التقدير من الدرجة الممتازة لأنه وضع حجر الأساس للأدب القومي الكلاسيكي القبرديني .

وكان واقع الحياة الشعبية هو مصدر عطائه مع الإستعانة بالتاريخ حيث يمزج دوماً بين الماضي والحاضر ليسلط الضوء على المستقبل ، وليس من السهل أبداً أن يستحوذ المرء على حب الشعب ، ولكنه حين يفتح قلبه لك فإنه سيكون مخلصاً في حبه وسيخلدك في ضميره إلى الأبد وهذا ما حدث بين شاعرنا الكبير وشعبه حيث تبادلوا الوفاء ، وليس من نصيب كل أديب هذا ، ولكن علي شوچن من الشعراء القلائل الذين خطوا بهذه الميزة وهذا الحب الخالد من شعبه الوفي ، ومازال يعيش في فؤاد شعبه الدافئ حتى يومنا هذا وسيبقى هكذا إلى أمد طويل .

وبالطبع إن موقعه الذي احتله في صدر شعبه يماثل موقع أي شاعر وطني هام بحب أرضه وتراث أجداده وعاش مع آلام قومه وآمالهم فاستحق بذلك كل الحب والتقدير .

ولد الشاعر علي شوچن الصغير بن أشعد عام ١٩٠٠ م في قرية (جمكة كوشمز قوي) القبردينية .

وبولادته في أسرة فلاحية كبيرة ازداد فم جديد يبتغي الطعام ونما الصغير وأبوه وإخوته الكبار يعلمونه أعمال الفلاحة حيث الحقول تنتظره بشغف ، ولكن الطفل الصغير النبيه يحظى بمن يشرف عليه ويقوم على تنشئته وتوجيهه، حيث شاء القدر له بذلك أن يتجه باتجاه الأدب والشعر بدل الزراعة ، عندما اكتشف جده العجوز ببصيرته النافذة وخبرته الواسعة موهبة حفيده وملكنه الشعرية، انتقاء من بين إخوته ليعنى به ملقناً إياه اللغة و الأدب والحكمة ، مما هياً للطفل فرصة التعمق في الأدب القديم أخذاً بيده وهو يشرح له المعاني والأفكار ويطلعه على أخبار الشعراء القدامى والأغاني الشعبية ومبادئ اللغة .

ويدخله جده الكتاب الذي كان يقتصر على تعليم الكتابة والقراءة فحسب ، وبعد أن أنهى الصغير تعليمه أراد جده أن يكمل هذا الطفل الذكي تعليمه عام

١٩١٤ م في المدرسة الوطنية الوحيدة في بلاد القبردي و الكائنة في عاصمتها نالتشك ، لكن هذه المدرسة التي كانت قد افتتحت لأولاد النبلاء وذوي الدماء البيضاء النقية أوصدت أبوابها في وجه ابن الفلاح الفقير فعاد خائباً إلى القرية .

ولكي لا يحرم من إتمام تعليمه يدخله جده المدرسة الدينية الإسلامية التي افتتحت في مدينة باخسان المجاورة ليعده فقيها وإماماً للقرية .

لكن الطريقة التقليدية المتبعة في التعليم وجهله باللغة التركية حالت بينه وبين الحصول على العلوم التي يود الحصول عليها ، لكن التلاميذ في هذه المدرسة كان أملمهم الوحيد هو المعلم (نوري ساغوة) الذي كان رائداً لهم يسرون إليه بخفاياهم ويذكرون له معاناتهم فأحبهم وأحبوه وهذا هو الذي غرس فيهم محبة اللغة القومية ومن بينهم شاعرنا علي شوجن الذي أصبح قريباً من معلمه ملازماً له في المدرسة والبيت. وبفضل هذا المعلم يتعمق علي شوجن باللغة القبردينية القومية والتاريخ والأساطير الشركسية القديمة . وتعود تذوق أدب قومه وصار يدرك معنى الأمة و تاريخها وأجادها ولغتها وأبها وعلومها من خلال ارتشاقه مناهل العلم والمعرفة على يد هذا المعلم الوفي والمربي الكبير .

ويزداد إلمامه في هذه الفترة باللغة التركية أيضاً وينتقل بعد ذلك إلى المدرسة الدينية التي افتتحت في بلاد الداغستان عام ١٩١٥م ويخرج منها عام ١٩١٦م ويوفد إلى دار المعلمين ببلاد القرم ويتابع تحصيله العلمي فيها ويتوسع في علوم اللغات والأدب وتقوم الثورة في روسيا عام ١٩١٧ ولم تعطه الثورة شيئاً في البداية رغم ما توقع أبناء الكادحين من منجزات إثر إنتصاراتها ، حيث الحرب الأهلية استمرت والحرية بقيت أملاً ، فخاب أمل علي بالثورة لأن البورجوازية كانت قد بدأت تسيطر عليها وتغير مسارها والدم والجوع كانا يزدادان يوماً بعد يوم ، ولم يستطع علي أن يعود إلى وطنه القبردي لأن الطريق إليها لم تكن آمنة حيث نار الحرب الأهلية تأكل الأخضر واليابس .

وفي هذا الوقت الصعب وهو في بلاد القرم يغرر بالصبي اليافع علي ويرحل بالباخرة عبر البحر الأسود إلى تركيا ليلحق بإخوته المهجرين لعله يجد هناك الملاذ الآمن ليكمل تحصيله العلمي الذي يسعى من أجله دون كلال .

وهناك في الدولة العثمانية يكابد الفتى الغريب آلام البعد عن الأهل والوطن وهو بين أنياب الزمن القاسي حيث الجوع والعسر الشديد وقسوة الحياة - ورغم ماكبده من أسى فإنه لم يترك دراسته التي سافر من أجلها ، فينتسب إلى المدرسة

حيث يعمل أعمالاً شاقة في الليل ليكسب قوته ويدرس في النهار ، ويتعمق في اللغة التركية وآدابها وكذلك يصبح ضليعاً باللغة الفرنسية .

وبعد مدة يتعرف على بعض المتقنين والمتعلمين من الشراكسة المهاجرين إلى الدولة العثمانية ويطلع على مؤلفاتهم وآرائهم ويقدمون له العون من أجل متابعة تحصيله . ويبدأ علي شوجن سكو بنظم الشعر أثناء وجوده في تركيا ، حيث تتفتح قريحته وتتضح تجربته ويختمر وعيه أثناء معاناته لمحنة الفقر والغربة فرأت باكورة قصائده الشعرية النور في تلك الفترة الحرجة من حياته .

بالطبع إن قسوة حياته في تركيا ومعاناته المريرة وخبراته القاسية التي اكتسبها طبعت شعره بطابع الألم وأغنت تجربته بالكثير من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية وتفتت موهبته الشعرية في تلك البيئة التي ينطق فيها الصخر والجماد .. رغم حنينه لوطنه الأم كإباردينا فإنه يمكث في تركيا ويجمع حوله عدداً من الشباب الشراكسة المهتمين بلغة آبائهم وأجدادهم ويصدرون صحيفة الشرارة باللغة الشركسية.

نشروا فيها مواضيع عن التاريخ والأدب والأساطير الشركسية القديمة ، وقد لعبت هذه الصحيفة دوراً بارزاً في ربط مشاعر وأفكار القفقاسيين الجبليين المهجرين إلى الدولة العثمانية بالوطن الأم ، وقد ناضل الشارع الكبير علي شوجن سكو من أجل غرس حب الأمة ولغة الأجداد والوطن الأم في نفوس الشراكسة بتركيا .

ويستمد الشاعر القوة في نضاله ممن حوله من الباحثين والمهتمين بالمواضيع التي طرحها عليهم هناك ويتابع منهجه في سبيل اليقظة القومية وعودة الشعب الشركسي المشرود إلى وطنه . ويعبر الشاعر علي شوجن بأشعاره التي نظمها في ذلك الوقت عن واقعه الذي عايشه بكل جلاء ليكون نتاجه الأدبي شاهداً حياً على معاناته ومعاناة شعبه المشرود في أرجاء الدولة العثمانية .

وقد أدرك تماماً أن الحياة القاسية والمحن التي يعيشها القفقاسيون الشماليون الجبليون المهجرون إلى تركيا هي بداية نهايتهم حيث تهدم كياناتهم وشخصيتهم حالة التشرد والضياح خارج وطنهم .

وقد أورث الشاعر هذا الواقع الأليم إحساساً عميقاً بالمرارة والأسى حيث كانت قصائده مصبوغة بالوان الحزن والقنامة المعبرة ، كان يرى بألم عينه كيف

يسير شعبه نحو الفناء بضياح لغته وهجران عاداته وتقاليده وقيمه واتصهار تراثه وثقافته وتغير مجرى حياته وأنماط تفكيره وزوال هويته القومية ووعيه شيئا فشيئا مع الزمن .

وكان الشاعر يعود باللائمة في ذلك كله على السلطة العثمانية الحاكمة البغيضة آنذاك حيث كانت تسعى إلى إياذتهم بتوطينهم في أرجاء الدولة العثمانية مبعثرين هنا وهناك ومنع المدارس باللغة القومية عنهم والاستبداد بمصيرهم وحرمانهم من الحرية والعدالة والمساواة .

فتألم الشاعر من هذا الوضع ألماً شديداً وهو يرى مصير شعبه المحتوم وهو يسحق بأيدي السلطات العثمانية بقسوة ووحشية دون رحمة في إطار سياسة التتريك الجائرة التي اتبعتها إزاءهم .

لن الظلم الذي لحق بشعب هذا الشاعر جعله شقياً باتساً وأورثه همأً دفيناً صار هاجسه في كل أشعاره التي نظمها في تلك المرحلة من حياته .

ويبرز الشاعر ألمه ومعاناته القاسية حين كان في استانبول من خلال قصيدة له بعنوان (في الحديقة التركية) إذ يقول فيها :

في أمسية صيفية حارة

كنت أجوب أنحاء الحديقة التركية في استانبول

واضعاً رأسي المنفل بالهموم بين يدي

وأنا أفكر ملياً بمصير شعبي الشركسي الضائع

هنا في بلاد الغربة .

أصادف أمامي جماعة من الصبايا الملاح

ساحبات في الحديقة كتعابين البحر

أترن فضولي ، فتابعتهن لأتعرّف عليهن

فإذا بهن أخواتي الشركسيات : سنتاي ،

وجان خوت ونفن .

أقترب منهن بشوق وأنادي

أختي سنتاي - ياتور عيني

وأحييها بالشركسية مقضياً إليها بسري

فترد علي لغتي الشركسية الدافئة

بنغة العثمانيين الأتراك

حينئذ تشعربي بالغربة والإحباط

إن هذا الموقف الصغير أثار في نفس الشاعر مشاعر سلبية كثيرة وعزا السبب إلى النظام العثماني الذي يمارس الضغط والقهر والإذلال على المهجرين الشراكسة إلى جانب عدم التزام القفقاسيين الجبليين بالحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وطباعهم بشكل حازم وقوي .

وطالبهم بأن يبذلوا قصارى جهدهم بإرادة قوية من أجل الحفاظ على شخصيتهم المهددة بالزوال حيث صاروا على شفا حفرة من الفناء إن بقيت حالتهم كذلك . إنه اعتبر مستتاي وجان ونفن وأمثالهن رمزاً لهذه الشخصية الشركسية المهددة بالتهديم ابتداء من زوال اللغة القومية عن الألسن لذا فهو يوبخهن على ذلك ويوجه اللوم والتفريع إلى سلوكهن اللامبالي واللاقومي حين قال لهن :

أخواتنا الحوريات الجميلات

أشعر بالمذلة وأنن لا مباليات

أشعر بالمهانة

وقد أهملن لغة الآباء والأجداد

وأنن في أحضان العثمانيين الأوغاد

وتعبلن بأن تجري فيكم دماء الغرياء

جائبات العار لأمتكن

أتذكر اليوم أجدادنا وشبابنا في القفقاس

الذين عرفوا بالأنفة والكبرياء

الذين ستفطر أكبادهم ألماً على ما حل بك

لذا فإني سأبقى حاتفاً على ما بدر منك

ويتذكر الشاعر هنا الماضي والوطن ويعتز بشعبه الممزق الصغير الشجاع الذي يرفض الرضوخ للغزاة المارقين قائلاً :

إن العلم الأسود لجنكيز خان

لن يكون يوماً ظللاً حاتفاً للشراكسة

وإن شمس تيمورلنك الحارقة

لن تذيب الثلج الدائم على قمة جبل

أوشحه مأكوه

وقد عاش الشاعر بنفسه مجمل المشكلات التي كان يعيشها الشراكسة في الدولة العثمانية كالفقر والمرض والجهل والقهر والإذلال ، وكان حنينهم المشبوب إلى وطنهم الذين اضطروا إلى تركه يستعر بين حنايا ضلوعهم وأشواقهم إلى ديارهم التي نزحوا عنها لاهية تحرق أفئدتهم ، إنهم يعيشون حياة العذاب والحرمان والاضطهاد في بلاد الغرب ، وفي قصيدة له بعنوان (أمي) يبين الأسى الذي يكابده الشركسي من خلال حياته في العهد العثماني والحنين إلى الأم التي ترمز إلى الوطن البعيد إذ يقول :

أمي الغالية ، آه نوتدرين بما حل بولدك الصغير

في بلاد الغربية البعيدة

إنه واقف على شط البحر مطرقاً لا حول له ولا قوة

واقف على أرض الغربية بلا آب ولا أم

وهو يلقي بروحه المتلهفة إليك على متن

الأمواج المتلاطمة

ليعود إلى حضنك الدافئ

أمي لا يوجد أحد هنا اليوم يستطيع

أن يريني قعة جبل أوشحه مأكوه

أمي ، لا توجد هنا أم واحدة مثلك

تمسح على رأسي بدفء وحنان

ثم يصف الشاعر حياته في مدينة استانبول التي تمثل حياة كل شركسي

شريد ومهجر حيث يقول :

مدينة صاخبة تطل على البحر الخضم

والسفن الصلافة تزحف للشط كالحياتين

والحمالون يفرغون حمولتها وهم يمسحون جباههم

المتعرقه بظر إبيشهم المتسخة

أمي ، هؤلاء الحمالون هم الذين يمنحونني اليوم

الأمل والحنان

حين يمسحون بأيديهم الخشنة على رأسي

قاتلين : مسكين هذا اليتيم الغريب الشريد
أمي : رغم أن أيدي هؤلاء الحمالين
خشنة جدا ، فإنها تصبح ناعمة طرية
حين تمر على رأسي
ورغم أن يدي بعيدة عن صدرك الدافئ يا أمي
فإنهم يفرجون عني الهم والضيق
وماذا يفعل الشاعر أمام المحنة ، وأمام هذه الغربة القائلة وهو بعيد عن
الأهل والوطن لا حيلة له سوى أن يتضرع ويتمنى قائلا :

أمي : لبيك لم تلدينني
ولم أجعلك بانسة بين أنياب الفراق
لبيتي مت ولم أعش هكذا تتقاذفي صروف الدهر هنا وهناك
ويتوجه بالأتين والشكوى إلى وطنه الذي يرمز إليه بالألم قائلا :
ماذا أفعل يا أمي
لا أحد هنا يفهمني

لا أحد هنا في استقبول يخص بما أعاني
أنام بين القمامات على رصيف المعياء جائعا
ويسخر مني المارة من المتكلمين حين يروني
وأنا في هذه الحالة المزرية

ورغم المحنة الشديدة وآلام الغربة والضيايق فإن الشاعر لا يفقد الأمل
بالعودة إلى الوطن الأم ، بل إنه مصر على العودة واللقاء بأرض الأجداد حيث
يقول :

أمي الحبيبة لا تجزعي ، أنت ذخري في حياتي
سوف تصنع اللطعات من ابنك رجلا قويا .
وسيعود إلى حضنك الدافئ عزيزاً
لينعم بدفء شمس الوطن

ليعيش قريب العين في ربوع قبردينا الغالية
وبعد عذاب طويل يحقق الشاعر حلمه الذي ترقبه كثيراً ، ويعود إلى
قبردينا وطنه الحبيب الذي أحبه حباً شديداً عام ١٩١٩ ، وينضم إلى صفوف

الكادحين من أبناء شعبه في بناء الوطن ، وينتسب إلى الكاكية السياسية في مدينة
باكو بأذربيجان ، وبعد تخرجه منها يعمل في الداغستان ، ثم يصاب بمرض خطير
يعود إثره إلى قبردينيا ، ويشفى ثم ينتسب إلى دار المعلمين في العاصمة نالتشك
حيث يتخرج منها بامتياز ويعمل معلماً في مدرسة قرينته حيث يحقق أمنيته في أن
يكون مربياً مخلصاً لأبناء وطنه الغالي حيث كان يقول دوماً : ليس أعظم وأجل
من أن تبني الإنسان ، وتصنع به المستقبل .

إن الشاعر علي شوحن كان من أسعد الناس وهو يرى وطنه المتعطش
للحرية وقد نالها وعادت له حقوقه المغتصبة ، وهاهوذا يحث شعبه الجريح علي
مزيد من النضال في سبيل إتمام مسيرته المظفرة نحو الحرية ، إذ يقول مخاطباً
شعبه في قصيدة بعنوان (الحرية) :

شعبي الأفيغة ، قم وانتفض فقد قديم النهار
قم واحتضن حرية الوطن الحبيب بلا انتظار
بوركت يا شعبي فأنت لحن الخلود
دم عزيزاً في ديارك مثلاً عاش الجدود

ويتوجه الشاعر إلى المعلم صانع الأجيال الذي يحمل بيده شعلة العلم ونور
الفضيلة على طريق المستقبل المشرق المنشود وهو قدوة للأجيال الصاعدة فيحييه
قائلاً :
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

عش خالداً أيها المعلم
يا من رفعت شأن هذا الجبل
بالحلم المنير
يا من وهبت النور للأجيال
بالجهد الكبير
يا من تبدد ظلام الجهل المخيم على جبهة الشمس
بالحلم والصدق والحق
دمت لنا ذخراً للوطن

ويغضب الشاعر من المتشدين الذي يكثرون الكلام دون عمل ويحمل بشدة
على ذوي الشعارات الجوفاء دون تطبيق ويمجد العمل الجاد من أجل تحقيق
المبادئ السامية فيقول :

ما رأى أحد أن الكلام المصقول
دون عمل قد بنى وطناً
ما رأى أحد أن الشعارات الجوفاء
قد منحت أي شعب مكسباً
فقتل من الكلام وكثير من الصل
سوف يزيد المكرمات ، سيزيد المنجزات
فهل أحب الفلاح يوماً أصوات الرعود
المدوية في السماء دون مطر
والشاعر علي يستشرف لشعبه آفاق المستقبل ويدرك بحسه المتميز ماذا
سيحدث غداً .

فتوقع النصر على الفاشية المعتدية حيث يستحيل على الغزاة أن يهزموا
شعوباً قد اتحدت من أجل الحرية والحق والعدالة ويبين كل ذلك في قصيدته بعنوان
(بيارق النصر) التي نظمها أثناء الحرب الكونية العظمى التي شارك فيها مقاوماً
في صفوف الأنصار ضد جحافل هتلر النازية إذ يقول :

أيتها الحيتان ، إن تسع بطونكم مهما كبرت
مياه البحار والمحيطات الكبيرة
ولن تستطيعوا أن تغرقوا الأمواج المتلاطمة
فيها مهما حاولتم
خيالكم العدواني ينسج لكم أحلاماً
خيوطها أوهى من خيوط العنكبوت
إنكم تحفرون قبوركم بأيديكم
لتدفنوا فيها أجسادكم السمينة
ويحلم الشاعر بزمان الحرية لشعبه ووطنه قبردينا بعد الحرب ، حيث يأتي
النور من الظلمة وينبثق الفرج من الضيق فيقول :
إن الشعوب التي عاشت مكبلة
بقيود الغزاة
تحررت اليوم وصعدت بسلم العزة للسماء
وبدأت تغطف النجوم وتمسك الرعود

فهل سيكون شعبي الصغير منها ياترى
وهو يناضل من أجل المجد والحريّة
ويبحث الشاعر عن قائد مخلص شجاع يقود وطنه قباردينا إلى الحرية
والمستقبل العزيز فيقول :
ليس شعبي عقيماً
سينجب قريباً هذا القائد المرتقب
لا أريده نظيراً للإقطاعي الجائر مخشوفة
منبحث عن ابن الشعب البار
الذي سيكون مع شعبه المكافح (القبردي)
وستوسل إليه أن يقودنا إلى النصر والحرية
ويغيب النجم الكبير من سماء قباردينا في أواخر عام ١٩٤١ / حيث يستشهد
الشاعر العظيم علي أسعد شوجن وهو يؤدي رسالته حاملاً قلمه بيد والبندقية بيد
مصدقاً ما عاهد عليه الوطن الذي منحه العقل والقلب والجسد بعد أن أرسى بنيان
الأدب القومي القبرديني الكلاسيكي الملتزم بقضايا شعبه الصغير العادلة في كفاحه
من أجل الحرية والكرامة .

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

□□□

من ديوان " ضوء القمر "

للشاعر قجر بيتر

نالتشك ١٩٨٤

■ ترجمة ، نظير شق ■

الدنيا تتسع...
مزيداً من البشر...
البعض ينن من أيامه..
والبعض يغني طرباً لها..
للمغني من أعماقه...
يُعرف من جلاوة كلماته.
تتناغم عذوبة الكلمات
وتعاهدني دوماً...
في السير معاً على درب الحياة...
ليفتني كنت صاحب الكلمات...
دون أن يُعرف صاحبها.
الأنشودة الحلوة لك....
لا أطمع بها أبداً..
جلّ ما أبتغيه .. بقاء الكلمات
لأجلك يا أنشودتي أعيش
أنشودة الحياة الصادقة.

إنني أسمع..
الأمطار تهطل
بل.. تنهمر بغزارة...
إنني أسمع..
القللارات تروح وتجي..
والأرض تموج بالحركة..
الكل في عجل
تندفع كسهب منطلقة
لست أدري ، إلى أين؟!
لم لا تهدأ هذه الأشياء؟
أرجو ألا يكون ..
شيب شاربي المبكر
سبب ذلك...!

أنشودتي

الله يخلق.....
كثيراً من البشر....

□□□

الشيخوخة
شعر باشأة بكمرة
الأعمال الكاملة - نالتشك ١٩٦٣

■ ترجمة أحمد كاتو ■

لا تبك على مافات
واعمل ليومك
وإن فاتك العمر
لم يفت حظك
وإن تكلم الناي بأجمل الأكلان
لن يحس به من مات
هكذا هي الحياة
الكبار يخلفون صغاراً
لاتأس وإن شأبت الحياة
اعمل للأجيال القادمة
اعمل للغد الآتي
وكن بين صفوف الشباب
وإن كان ذلك صعباً
ادع إلى الخير معهم
شجعهم على العمل
لأن ذلك فضل لك
• • •
اعلم أنه لفخر كبير
إن لم يكن

في قرينتك فقير
الجدول المتدفق
إلى الوراء لا يعود
مجدوا الشيخوخة
بغطاء جديد
وإن طال عمرنا
وأخذنا حظنا
ورغم ذلك
أتوق إلى النور القادم
• • •

(٢٧)

إن ساد الذي لا يستحق السيادة
فأيامه معدودة

وإن لم يسد المستحق السيادة
فإنه يصافح باحترام

(٢٨)

المديح كالندى
يعفن الرطب

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

ويرطب اليابس

(٣١)

الظالم يخاف من خياله
والجبان يتلفت خلفه دائماً
- إذا ضحك الكسول
ظن أنه قد أنجز عملاً
- إن كنت تهوى الإهانة
فأطلق لسانك
فتكثر عيوبك
وتموت رخيصاً

□□□

إلى ذكرى الشهيد العميد

ممدوح أباطة.

شعر، تحزيب حسن - نالتشك آاز ١٩٩٦

■ ترجمة ، ممدوح قوموق ■

أنت القلب وأنت الروح
سورية يا وطني الغالي .
من أجلك تتفتح أزهار الحب.
ولك توهب أفراح الروح.

في مهدك أمضيت عذوبة الطفولة
وعلى رباك قضيت أيام الشباب
أنت من سدد خطاي، على الدرب
ولم أنقطع يوماً عن لامتناهي كرمك.

وحين دعا الواجب لم أتردد
ولم أتوان عن سماع النداء لحظة واحدة.
يا وطناً يُفدى بالروح، إذا كان نجمي قد هوى،
فلن روحي مازالت تحوم في سمائك.
يا هضاب الجولان عبثاً تبحثين عني.
عبثاً تلويبين عني يا ربي قريتي "موقسياتي الجميلة".
لن تجدينني في مكان محدّد فأنا ،
قد نذرت نفسي لكل الوطن.

سورية يا توأم الروح

ياحبي الذي لا يموت
من أجلك مازالت تتفتح أزهار قلبي
ولك وحدك كل أفراح الروح.

طائر الفينيق

هيا ، تعال ، أقبل إليّ يا طائر الفينيق
فأنا أتوق للطيران معك عبر العالم.
تدور الكرة الأرضية تحت سماء سوداء.
كحجر رحيّ في طاحونة قديمة. إن كلمات اللغة لا تكفي .
حتى أحكي لك كل ما أودّ قوله.
وكل الكلمات التي أعرفها
لا تكفي لواحدة من أغنياتك:
" ناموا أيها الناس، ناموا نوماً عميقاً!
سأريك شفتي الحب الناعمين.
قبلة الشباب الدافئة،
عبر أدخنة الحرب التي تتلاعب بها الريح.

سأريك يا طائر الفينيق رجال الحرب
وهم يُحذقون من وراء الصخور وعبر الغابات.
متربّصين كنمور جائعة"
على وشك الانقضاض لالتهام فرائسها البشرية .
وعندما يصوب السفاحون أسلحتهم ،
لقتل الأبرياء وإشعال الحرائق في أي مكان.
غنّ لهم يا طائر الفينيق والغنم:
" ناموا أيها الجنود، بأيديكم الملوثة بالدماء.
ناموا بلا يقظة ، أيها المتعطشون للدماء

ناموا أيها الجنود ، عليك اللعنة ،
ناموا بلا يقظة...
إنني أصبُ لعناتي عليكم
وأنا أغني لكم أغنية الموت..

إلى رجلي توما

تتلاطم أمواج البحر وتتدفع ،
بأقصى قواها نحو كتف الجبل.
ويخترق صوت مرتجف أوصالي ، غير صوت التسبيح
الذي يرنده عجوز شركسي فوق كتف الجبل.

يبحث الجد بعينيه عبر الأمواج ،
وهو يحرك شفثيه بالأدعية والتسبيح ،
ويعييه البحث وترتد عيناها حسيرتين
دون أن يجد مصدر الصوت

فتأتي الريح متعبة عبر البحر
ثم ترتاح على كتف الجبل
وهي تغني أغنية حزينة
تروي حكاية الدرب الطويل الذي قطعه
على طريق التهجير .

يضع العجوز سبحة في حجره ،
ويصمت وهو يصغي إلى أغنية الريح .
وكلما ازدادت أغنية الريح حزناً
تشاقلت أنفاس العجوز .

تردّد الريح أنين الفرقى في قاع البحر
وتتمرّد الأمواج متلاطمة من جديد.
فيخنق الماء أصوات النشيج مرة أخرى .

وفي أعماق العجوز يستفيق صوت التسبيح من جديد.

وطيئة أب

لست أدري
إن كان أبي
قد تحوّل إلى تراب
لكن الأعشاب
نبّئت على قبره
منذ أزمنة طويلة .
لو كنت تستطيع يا أبي
أن تسمع كلامي
لفرحت فرحة الأطفال
كنت سأمدّ يدي
إليك اليوم
بقدح من أشعة الشمس
كنت قدّمت إليك اليوم
قدحاً من نسيم
ولكن ما الفائدة ؟
فالشواهد تتصبّ وحيدة
صامتة وكأنها
جمدت في برك من رصاص
تقف كأنها تنتظر قدومي
وأنت تقف اليوم وحيداً
بين أولئك الذين لم يعودوا ينتظرون أحداً.

لا أدري يا أبي
إن كنت قد تحوّلت إلى حديد
وإن كنت كذلك فلاشك
أنك قد غدوت سيفاً
فالأرض غاضبة
والجراح لم تلتئم بعد
وأحسن هدية تقدمها سلاحاً
لابنك هو قلبك الذي
كأن مليئاً بالحماس



مختارات من الأصوات النسائية الشعرية الشابة

شعر قانوناً زاريناً

■ ترجمة سهام شوكان ■

غروب

تسجد الشمس عند حافة السماء
لتصلي،

ويلا من صوت الأذان أعماق المساء .
ويمسني أنا أيضاً ، ويتركني الصوت
في حيرة ،

ولا أجرؤ على الوقوف فوق سجادة
الصلاة ،

عندما تتوضأ قريتي بأشعة الشمس
الغاربة ،

تتراكم كلمات العربية التي لا أعرفها
على شفتي ،

كنت بأسئجديها شيئاً ، ولكنني أجد
حرجاً ،

فأنا لا أجرؤ بعد على الوقوف فوق
سجادة الصلاة .

هاهي الجدة تتحنني و تسجد وقد
اعتادت ذلك ..

وبإمكانك أن تلتقط ما تفهمه من كلمات
العربية التي تهمس بها ،

مع أن من يود الصلاة الآن يصلي
علناً ،

فأنا لا أجرؤ بعد على الوقوف فوق
سجادة الصلاة .

لست ملحدة ، أؤمن بوجوده ..
وهاهي الشمس تحرق جنبات المساء ،
فتلتهمج النجوم .

كل شيء أراه مرسوماً على صفحة
الفهر ..

صورتك وماضي مجرد هراء
عند نقطة العيوز السهلة

التي وجدتها تنكئ روحي وترتاح
لأن الأغاني الجديدة بحاجة إلى هواء

نقي ،
أعيد تشكيل عالمي من الداخل ،

وقد أسرتني لحظة الحقيقة ..
التي ولدتها كذبة مكشوفة ،

سنلحق بي مهما حاولت الإفلات منها
ماقلته لي وما لم يحصل أبداً سيان ..

فأنا لم أعد أخاف الماء كما كنت أفعل
من قبل ..

ولم أعد أخفي حقيقتي عنه أبداً ،
ها أنا ألتغير ، ويتفجر الفرح من داخلي

وتتملأ روحي وتبكي في الخفاء

سراً أكتب أشعاري باللغة الشركسية

شعر باللغة لوبيا

ترجمة سهام شوكان

بالرغم من كل الأقاويل عن حلول
نهايتي ،

وعن استهلاكي لنفسي وضياح هويتي ،
فأنا أكتب أشعاري سراً باللغة
الشركسية ،

أخلقها ، وأهددها في أرجوحة
الروح الشركسية ..

بالرغم من كل الأقاويل عن فنائي ،
وعن أنني بعيت روحي وكل ما يمكن
بيعه ،

فأنا أكتب أشعاري سراً باللغة
الشركسية ،

أخلقها ، وأهددها في مهد الروح
الشركسية

بالرغم من أنهم أهملوني وألقوا بي
في وديان النسيان ،

وأقاموا نصباً على قبري قبل وفاتي ،
فأنا أكتب أشعاري سراً باللغة
الشركسية

أخلقها وأهددها في أرجوحة الروح
الشركسية .

وترتفع أصدااء الأغنية التي عدت بها
من النهر حيث تركت آثار أقدامي
...

أيتها القرية الشركسية ، أيها الحي
الشركسي ،

كلما تدفق نبع ، امتدت جذورك بعيداً
في الأرض

أشجار الحور العتيقة التي جفاها النوم
في جنباتك ،

مازلت أنظارها مصوبة نحو شاطئ
البحر البعيد ..

ها أنت تنظرين إلى الواقع المرأسى
ما أقل عدد الذين بقوا في جنباتك ،

وهل العائدون أغراب
تنتهد السماء وهي تخفي نجومها ..

شواهد القبور المخلوعة لم يبق فيها
أثر للحياة ..

تتقارب الأرواح في بحثها سعياً عن
مكان ظليل ،

وتلتصق بسماء الليل وكأنها قطع من
الأرض العذراء ..

وتروي بعض أحلامها سراً فتتهاوى ،
تحت أشجار الحور العتيقة التي لا

تتام ،
وترفض الجدة أن تشرب شيئاً ،

حتى ترسب الأحزان في قاع البئر ..
ويستيقظ الجد قبل طلوع الفجر .

أيتها القرية الشركسية ، احذري
النضياح

مالا أستطيع تحمله شيء واحد ،
فأنت أيضاً تحلم بي في الليالي ،
ولا تنق أيضاً بأحد مثلي
بالرغم من أن ضوء النهار يطلع دوم
على حلمك الوحيد
لكنك لم تعد تقصد أبداً
المكان الذي كنا نلتقي فيه دوماً ، و أنا
أيضاً
لم أستطع الوصول إليه ، مع أنني
نويت الذهاب ..
ويطلع النهار على حلمي المستعجل ..
...

التهجير

شجر أبوقية بيلا
توجه سهام شوكان
على طرق التهجير كان يكتب
المراثي ،
بالأمس البعيد شعبي البريء
وكانت المراثي تقطع الدروب إلى
استامبول ،
بالأمس البعيد وكنت نائمة .
والكائنات اليائسة كانت تقطع دروباً ،
مشدودة كالحبال عبر القفار .
وقد هد الحيف قواها وتجمدت
من الظلم أهداب روح القوم
هل تبللت عيناوي وامتلاّت دمعا لأنني ،

سراً أكتب أشعاري باللغة الشركسية
أخلقها و أهدها في أرجوحة الروح
الشركسية

...

لم يطلع النهار على حلمي ،
ولم أستطع أن أفعل شيئاً ، أي شيء ،
في تلك الليلة الوحيدة .. وقد انقضت
حتى آخرها ،
لم نستطع أن نلتقي أنا و أنت .

ما كنت قد اخترت أحداً غيرك ،
سراً كان حبي ، لم أستطع البوح به ،
هاقد أضاع أحداً الآخر ، إن الحياة
قصيرة
فلماذا بقينا فرادى في بيداء القلب .

هاقد طلع النهار على حلمي ،
ولأني كنت قد تهت في ضياء الليلة
المقمرة
فإنك لم تستطع أن تلاقيني ، حتى
انقضى الليل .
ألم يصلك صوتي عبر النجوم !

كنت أسعى جاهدة حتى أصبح أسيرتك
وكنت سأسلمك طائعة يد الحب
لكن الكلمات لم تخرج من فمي
ولم يستطع قلبك سماع صوت الروح

لأن أخي البعيد يعيش في الغربة
من دنياي تنطلق موجات الألمان ،
وروحى مترعة بألحان موسيقى
الشعب
سأطلق أَلحاني بعيداً ، ولا بد أن تصل
إليه
فأنا أحمي مشاعر الأخوة في سويداء
القلب
من دنياي تتلشى رائحة الذمرة ،
والقلب يتألم لمشاعر الأخ البعيد .
إنيته جاء يوماً ولو كما يأتي الغريب
حتى أتخلص من مشاعر التقصير تجاه
الأخوة

رأيت صور تلك الدروب في أحلامي
أم نددت مني صيحة دون أن أدري
ياترى
لأن قطرة من دماء الضحايا عبرت
عروقي

مأساة التهجير مازالت حية في
حاضري
ودروب التهجير مازالت ماثلة للعيان ،
ومازالت أطيافهم إلى اليوم حائرة
مترعة الروح ، مترعة القلب بالغربة

من دنياي تنوح الأرزهار
فأنا أعيش في حضن وطن الأجداد
لكن أهذاب الأمل تكاد تحف من
روحي

□□□

مختارات من كتاب ، الأقوال الشركسية المأثورة
تأليف غوكموخ أبو بكر ، قاردن غوش زراموك

■ ترجمة ، نذير شق ■

- مُت شجاعاً ، فالمرء لا يموت مرتين .
- حتى العصفور .. سيّد عشه .
- تجول حول العالم .. ولكن عذ إلى وطنك .
- مهما أطمعت الذئب .. فعيناه نحو الغابة .
- لا تخف ممن يهرول إليك وقد استلّ سيفه ، واحذر ممن يتخفى في الزاوية .
- من يرعب جيش العدو فهو جيش بذاته .
- سيف في المعركة لا يستعار .
- لا اعتبار لجيش قائده جبان ،
- إن سلّمت عدوك حياتك فلا تطلعه على أسراراك ،
- موت في وطني خير من سعادة في الغربة .
- لاتكن البادي بالضرب ، ولا ترحم من ضربك .
- كثير الأفعال لا كثير الأقوال .
- الصغير يكبر ، الكبير لا يصغر .
- لا تصارع الدب معتمداً على رفيقك .
- سكوت الديك لا يمنع طلوع الفجر .
- مالك العقل مالك كل شيء .
- الشوكة تزال بالشوكة .
- الطائر يسمو بجناحيه ، والإنسان يسمو بعقله .
- من له مهد ، له لحد .
- من يملك أكداًس الحديد قد يحتاج لإبرة من حديد ..

شعر : ورزائي أفليك

من ديوان / رقصة الغجر / نالتشك ١٩٨٥

■ ترجمة ، مودوح قوموق ■

* في القرن التاسع عشر لغيت جموع ضخمة من المهجرين الشراكسة حتفها
غرقاً في البحر الأسود وهي في طريق التهجير إلى تركيا

دون أن ينسأهم الزمان أبداً؟
أوقدي النار بعزم
في مدفأة البيت
ياجدتي
أترين حبات الماء التي تطرق النافذة ؟
والتي استمعت إلى صدى طرقاتها
وقفا طوال الليل
دون أن يطاوعني قلبي على النوم
إنها رسل ياجدتي
تحمل إلينا خبر الفاجعة
قدمت إلينا من أقاصي البحر الأسود
بعد أن قطعت المسافات
وقم الجبال
وانتظرت ضوء النهار كل يوم
على الطريق سنوات طويلة
إنها تقول أنها تعرفنا
و أنها في يوم من الأيام

المطر يطرق زجاج النافذة
ياجدتي
وتترك حبة المطر خطأ متطاولاً
وهي تتداعى إلى الأسفل
فأوقدي النار
في مدفأة البيت ، ياجدتي
فأنا أرتعد من البرد
النار تتأجج في المدفأة ،
وفي الخارج تنفث الريح التي هبطت من
الجبال
وأنا أرتعد برداً تارة
وتارة أخرى
أتوهج كجمرة متقدة.
مانتقل وطأة هذه الليلة
ياجدتي
فالريح تنفث في أعماق البحر
أُعرفين أولئك الذين يرقدون هناك

باردة قمة " أواسحة مأكوة "
وفي بامطن الجبل المقدس يغلي البركان
والأيدي ممدودة نحو البرودة
ونحو الدفء
ونداء القلب الأبدى
هو وطن الأجداد
جدتي
أرجوك ، أوقدي النار في المدفأة
الغرفة الباردة ساكنة
والطفل نائم
وقد خرجت الجدة من البيت
وهاهي تضع دلواً بالقرب من النافذة .

كانت بشراً مثلنا
همها العيش
و أنها كانت هنا
تحرث الأرض و تزرع
أتعرفين ما يقولونه
يا جدتي
إن مياه البحر صارت مالحة
بعد أن جبلت ببحر دموعهم
جدتي
أتعرفين كيف يفكر
اولئك الذين فقدوا الوطن في تلك
الأيام؟



الأغاني الشركسية القديمة

شعر ورزائي أفيك

من ديوان " رقطة الفجر " - نالتشك ١٩٨٥

■ ترجمة ، ممدوح قوموق ■

وفي أرض الدار
تحاصر أصوات نباح الكلاب
همهمة خيولهم المطهمة
- أنتسمعون نباح الكلاب ؟
لاداعي للعجلة ، ارتاحوا ،
فأنتم في بيتي على الرحب والسعة
- طبعاً فسمعها
إن خيولنا الأصيلة والشاغدي
تصدر همهماتهما ، تعلمنا بوجودها
وقد ملت الانتظار

يفادر الفرسان غرقتي
وينغرز الفرسان أغنية شركسية
في غياهب الأزمنة السحيقة ..
وفي فسحة دارنا الكبيرة
يتراكم الكلب وهو ينبج مذعوراً
وكان مجهولين قد أزعجه

امتد اللحن كوتر مشدود ،
و أراح عن كاهله غبار السنين
ارتفع اللحن وهو يقطع نياط القلب ،
وانفجرت الأغنية ،
تروي آلام جرح مفتوح أبداً
تذوب فيه قطعة ملح ..
هاهم يدلفون عبر الباب
ويدخلون من النافذة ،
وتعجُ غرقتي بفرسان ،
مثنئين جراحاً تنزُ دماؤهم
معفرين بالغبار
ويخيلُ إلي أنهم يبحثون عني
يجلسون صامتين يمسحون أسلحتهم
يجلون سيوفهم
وتختلط رائحة البارود برائحة "
الباسقة".

□□□

الهاوية

شعر ورزائي أفليك

من ديوان "وجه" - (نالتشك) ١٩٨٥

■ ترجمة ممدوح قوميوق ■

عندما وصلت روحي إلى حافة الهاوية
هبت الريح من فم الوادي
ومن القمة البيضاء التي عصرها المساء،
تساقطت قبضات مشدودة ..

التصق ظهري بالقمة
وعبثت الريح بصدري
وأخذت أيام حياتي التي عشتها
تلتصق أمامي كأوراق الشجر

الغيوم تلتصق أضلاع القمة
والقمر بلسانه الخشن يسحب الغيوم
والشلال الجبلي يصفر بكبرياء
متباهياً بقدرته على القفز

و أنا لا أستطيع حراكاً ..
فالنهر الجبلي التهم الجسر الوحيد
والتصق ظهري بالقمة العارية
وها أنا أصارع للبقاء ، بقلب متعب
القمة المنكبرة لا تسمع صوت قلبي

والممر الذي أقف عليه لا يتسع سوى لقدمي
و أنظر إلى الأسفل فأرى الهواية المرعبة
وأنا حرٌّ في أن أبقى منتصباً فقط

قلت لك ياروحي ، دعينا نعود أدرجنا
عندما أتيت بي مساءً إلى الجبال
هيا - انطفئي - الآن و أريحي
جسدي هذا ، المنكمش من الذعر

قلت لك ياروحي ، دعينا ننام
أو نخفف خطانا ، إذا جفانا النوم
وها أنت الآن ، تقفين متقطعة الأنفاس
ككلب مذعور ، وأنت تتظرين إلى الهواية

الأعالي جميلة - لكنها سحيقة
عميقة مشاعر القلق التي تسببها
هيا تكلمي الآن بلطف إذا شئت أو أطلقني خواراً
فلا أحد يدري من تكونين أو ما تكونين
رحبة - هي السماء ذات النظرات الخشنة
مؤقتة - هي حياة الإنسان التي تمضي سريعاً
كنت ستصرخين صرخة جمل هذه العطش
لأنك منتصبه في الأعالي

جميلة - هي الأعالي ، والقمة مرتفعة
والله وحده هو الذي يعرف لغة القمم
وها أنت منتصبه بكبرياء رغم قربك أيتها القمة ،
وقد فلكُ الحزن عقدة لسانك

هاهي النجوم تقترب أيها الوادي
وعند الضرورة يمكن الاستضاءة بأنوارها

وارتجت شجيرة انتصبت كشعر رأس وقف ذعراً ،
وهاهي تخر النسيم بأشواكها

وكلما استضاء المكان بالأنوار الطليقة ،
يغدو العالم أكثر وضوحاً
ومادمت تعيش على هذه الكرة الأرضية
فستزداد الأنوار المحبوسة في أعماقك اضطراباً

فيك شيء من طباع هذا النور
وربما كان النور أهلك الذين ولدوك
وإلا لماذا تتبعث فيك الرغبة في البكاء
كلما ازدادت غزارة الضوء

الأعالي جميلة والممر بعرض شير
ورغم ضيق الوادي فإن تلك السماء طليقة
وعند جدار القمة تقمصرين ياروحي ،
وأنت تدغدغين الأماني في القلب

ألم أقل لك ياروحي ، دعينا نعود أدراجنا
فلا داعي للتوجه إلى الجبال في وقت متأخر
انظري الآن إلى الأعلى ، إلى الأسفل
صححي الوضع ، ولا تحمليني أخطاءك

على الممر الوحيد أمامك كان هنالك جسر
فالتهمته التيارات الجبلية
لا تأملي في العودة القهقري
إذا لم تستطعي مواصلة السير قدماً

على جدار القمة يضيع الطريق
ويختفي في حناياه الممر الذي تسيرين عليه

وتردّد الجبال صدى همومك
وهي تعرض أمام ناظريك السماء الفارغة

على جدار القمة الباردة تقف منتصباً بعزم
خطوة أخرى - وتهوي في أعماق الهاوية -
ويقف القمر وسمان فوق رأسك
وهو يغمرك برفق بنوره الشاحب

ماهي الإساءة التي بدرت مني تجاه القمر في حياتي ؟
وبماذا أسأت لهذه السماء العارية ؟
لماذا إذن جعلنا مئات الأسئلة الفلقة
تتراقص على ظهري الذي التصق بجدار القمة البارد !

أيام عمرك كلها كانت حافلة بالشجاعة
ومع ذلك فإن الشجاعة بحاجة إلى موطئ قدم
أما الطريق الذي سلكته في المساء
فما أوصلك إلا إلى هاوية فاغرة الفاهة
<http://ArabicArchive.com>

رغم ضيق الوادي فالسما رحبة
اشحذ قواك التي كانت طوع إرادتك يوماً
فأنا أتأملك منتظراً
أن تستعيد القدرة على النظر نحوها ثانية

هل ستسقط من أعلى القمة كصخرة ؟
أم ستبقى واقفاً على الممر جامداً كتتمثال خشبي ؟
أنت إنسان ومادمت حياً
دع السماء ترى ما الذي يستطيع الإنسان أن يفعله
هاهو الدفء يعود إلى نخاع عظمة ساقي
ويلمس الدفء بأصابعه عظمة لوح الكتف
وها أنت تنهضين مصممة على شيء

مذكّرة إياي بأيام الشباب

إذا كان الوادي ضيقاً ، هل السماء عمياء ؟
فبأيّ ذنب وصلت أنتِ إلى الهواية ؟
أية روح لا تسرح بالأمانني
طالما كانت قادرة على ذلك !

كنت تستهين القمر ، وكانت السماء طليقة ،
والقمة نظيفة ، وكنت تتوقين إليها
وهأنت تغفين الآن عند حافة الهواية
تستجمعين القوى وأنت وحيدة
هل كنت قوة ما ؟

أم كان الصراع يمزّك ؟
من الذي عاش على هذه الأرض ،
ولم يمت في طريقه إلى ما كان يصارع من أجله ؟
هذه الأرض تدور منذ الأزل
وحيدة ، دون أن تنتظر إلى الخلف
وما تراه أمامك هو إحدى غاباتها ،
غابات أرضنا التي تمزّقها الآلام

هين أمر الهواية التي تغفين عندها ،
ومع ذلك ، فأنت روح
تسهل الغابة أمامك وتلمس القمة الباردة
كتفك بأصابع من حجارة

الهواية سحيقة ، والقمة طليقة
هاقد وصلت - وازدادت البرودة
تقفين وظهرك إلى جدار القمة البيضاء
وليس لك من ترسٍ تحتمين به سوى ذلك القمر المضيء

الريح تعبث بذلك الترس
وتجرّح الأمواك إهاب ذلك الترس
ومع ذلك ترتفع أمانيك ابتهالات للآله
مع كل نفس من أنفاسك

الوادي جميل والغابة كثيفة
وشلايلات الجبل تنوح في أسفل الوادي
وتصفر داخل الكهوف المملأ بالأنين ،
وكانها تتعلم كيف تكون متوحشة

كنت قد قلت لك دعينا ياروحي نعود أدرأجنا
ولاحاجة بنا للسفر في الأماسي
فأعيدي الآن ترتيب الأشياء
وشدي الحزام وكفي عن النحيب

ويعيد غضبك القوة إلى جسدي
فينتفض الوريد في عنقي
هل نفذ صبرك - هيا انتحري إذن
ولاحاجة للتلاشي وأنت تنظرين إلى الورا

سهلة روحه من صراطه مستقيم
ومن لا يملك القوة - فليس لديه إلا القليل
رغم أنك وحيد ، فأنت انسان
فلا داعي للتطلع إلى غضب مستعار ، كإهاب النمر

دقق النظر ، فالجدار الجبلي يتحرك
ويبدو أن به حياة ، وأنه بدأ يفهم
فإن لم يفسح لك الممر - اقتل الجبل
وإن أخذ يتراخى فلا داعي لإلحاق الأذى به

من غضبك يتطاير الشرر و الجمر
فتتساقط أمام عيني في حضن الجبل
فينظر قمرك نحوك ، وتنظر نجومك إليك
ساخرة من الجبل الذي بدأ يشعر بالخوف

أيتها الروح ، ياروحي ، هيا لملمي قواك
لملمي القوى بدءا من أصابع القدم ،
اجمعي واستفري كل مالدريك من قوة
وادفعي القمة التي بدأت تتمايل

لقد تأثرت القمة - وازدادت القوة إمعاناً
وها أنا قد بدأت أتوهج ، وأخذ القمر
ينظر بقلق إلى القمة التي بدأت ترتجف
و أخذت النجوم تهرب لا تلوذ على شيء

عندما اشتعلت وتعالى الهيبي
تساقطت بقاياي وهي تلتئم ، على القمة المتصدعة
وماعانيته من وميض البرق الذي انطلق مني
تصاعد إلى الفضاء مع البريق

□□□

بيت في الهواء

للكاتب الشركسي أتسقان روسلان

■ ترجمة ، عدنان قالمق ■

يحتفل الفنان بعيد ميلاده بتواضع ، ونحن المدعوون أصدقائه نشاركه المناسبة ، كلمات المديح والإطراء تتساب بدون حساب من خلال الأنخاب كنت جالسا أقرأ وجوه الحضور ، أميز مدى عمق صداقتهم للفنان ، أنخابهم كانت مرآة صادقة تعكس مافي قلوبهم ، وكنت أرى ذلك في أعينهم أو في إيماءاتهم العفوية .. وتتعلق عيناى بوجه تلك المرأة اللطيفة القسمات ، ويملكني انطباع بأنني أعرفها : لوحة معبرة لكبرياء طلعتها ، الرأس المرفوع المتوج بالشعر الفضي ، لا تبدر منه إنحناء حتى عندما ترفع اللقمة إلى فمها ، يداها لطيفتان كجناحي لقلق يسبح في الهواء ، والجيد أهيف طويل كالمرمر ، مرغم خيالها على ذكر الخالق مصورها : " سبحان الله " على هذا التناغم العجيب في قسماتها ، وأما بصمات الحياة التي تركها العمر على تقاسيم وجهها فمافي إلا محاولات لطيفة لرسم خطى السنين الثقيلة على محياها بخط جميل ، وللفتاتها مقاييسها الموزونة ، ولكلماتها النادرة آثارها المطبوعة في النفس ، ونست أفرى كيف ولماذا تعلقت صورتها في خيالي على هيئة الطيور السابحة في السماء ، ويلاحظ صديقي الذي يجلس بجانبى تعلق نظراتى بها ويقول : ليست هنالك امرأة شركسية قاست من العذاب والآلام ما قاسته .. هذه الصديقة ومع ذلك تراها قد حافظت على عزتها - النبالة تجري في عروقها ، وهذا ما أنقذها من كل المحن ، للأصالة قواعدها المثينة يا أخي ..

وامتدت أحاديث صديقي عن الأصالة طوال السهرة .. وانتظرت النهاية ليتسنى لي الإستفسار عن قصتها المثيرة ، وفرحت عندما حان دور مضيفا لرفع النخب لأن هذا يعني نهاية الحفلة وموعد الإنصراف ، لكنه خيب أمني ، فقد قام ليحضر السمك المجفف الذي وعدنا به ، وكانت هذه حجة لإطالة بقاء المدعوين عنده لا أكثر : " عندي سمك مجفف لذيق لذيق " ويضع على الطاولة سمكة كبيرة ، و تمتد بعض الأيدي بشراسة وكأنما كانوا صياما ، و لاحظت تصلب شففى المرأة ، وصفرة خريفية تلو وجهها ، مالذي حز في نفسها وجعلها تتغير هكذا فجأة ؟ تعتذر وتهض ترجو السماح لها بالإنصراف ، ولكونها امرأة لم يشددوا إلحاحهم عليها لمتابعة السهرة ، ويخرج معها صديقي لكي يوصلها إلى منزلها ، ويضيع أمني في التعرف على حكاية هذه المرأة الجذابة .

في اليوم التالي التقيت بصديقي الذي حدثني عن تلك المرأة وكنت تواقاً

لمعرفة التفاصيل : " لوحدثتك هي بنفسها لكان ذلك رائعاً ، لكنها لا تتحدث عن نفسها ، وإذا حدث ذلك - ونادراً ما يحدث - فإن إحساساً بالضعة و الهوان يتملكها .. القليل الذي أعرفه عنها سوف أقوله لك ، وما أعرفه عنها هو ما استطعت استخلاصه من " كواشنا " نفسها على مدى سنين طويلة وذلك بحكم القرابة أيضاً "

... الأرض الصحراوية قليلة الخضرة تحت الشمس ، حارة ومضجرة ورائحة العرق خانقة ، والبحر قريب ، ومحاولة الإقتراب من البحر ولو بضع خطوات قد تكلفك حياتك ، وتُمن حياة السجين عند الحرس طلقة واحدة لا غير ..

كواشفه في ذلك القطار الخشبي الطويل الذي حولوه إلى سجن ، وهي تحتل الطابق الثاني من الأسرة المتراسة فوق بعضها البعض ، تلك الفتاة ذات العشرين ربيعاً والبالغة الحسن ، تجتذب عيون النساء المعتقلات اللاتي يعانين من الجوع القاتل ، وتذكرهن بالجمال ، تكتب بيديها الرقيقتين في الهواء بدون توقف ، وفي الهواء أنين ونواح ، وهي صماء لا تسمع كل ذلك ، وفي عينيها بريق وبشفتيها تتحدث بدون صوت . الشيء الوحيد الذي كان يزعج الفتاة ويخرجها عن طورها هو القمل .. القمل الذي صار معروفاً لكل الأيدي - أحمر كبير . أشيب أو أسود وقد يكون أبيض .. ومن أين كل هذا ؟

يرتش جسد الفتاة عندما تحس وطناً أقدام القمل الثقيلة فوق جلدتها الناعم وتحس بالأسر ، وأنها سوف تنقبأ مغرغة كل مافي معدتها ، وتحس بالدوار ، فتتناول آخر سمكة بقيت في حوزتها وتتدلى من سريرها إلى سرير جاريتها لكي تعطيها السمكة ، المرأة التي حظيت بالسمكة ، تبدأ بالتقاط حشرات القمل من شعرها الذهبي واحدة بعد أخرى ، وبغناية تقتلها ، تعفسها بأناملها وأظفارها ، الجوع كافر ..

السمك المجفف الذي يرمى للسجناء طعاماً لا تتناوله " كواشنا " بل تعطيها لجارتها أجرة تنظيف شعرها من القمل الذي يدب فيه ، فإذا أكلته سوف تعطش ، ومقدار الماء اليومي المخصص لكل سجين معدود بالجرعات - فلماذا تجلب الضرر لنفسها ، الجوع أفضل من العطش ، سكان القطار الخشبي الطويل كلهم يتهاقون على السمك المجفف المالح ويتناولونه أثناء الموت جوعاً ، فهم لا يعرفون مدى قدرة الإنسان على البقاء بدون طعام .

كواشنا ، تتسلق سريرها ، وتتوقع على نفسها غارقة في كآبة مظلمة مدة طويلة : إنها تحس بالندامة والخجل من فعلتها - إذلال إنسان من أجل لقمة ، ولكن ، هل تترك القمل يعيش في جسدها ؟ ولكي تتعق من الخجل الدبق الغليظ ، تبدأ بالرسم في الهواء بيديها ، منذ أشهر عديدة بدأت مشروع بناء بيت في الهواء ،

ولم تصل إلى السقف حتى الآن .. يجب أن يكون البناء متيناً وجميلاً ، نوافذ غرفة نومها يجب أن تكون شرقية ، لكي تستقبل أكبر كمية من أشعة الشمس ، النهوض من النوم عندما تدغدغ أشعة الشمس وجهها ، هو حلمها منذ زمن بعيد رسمت النوافذ بمقاييس كبيرة ، طولا وعرضا وارتفاعا - ليس هنالك أعلى من النور لديها ، وبنت الجدار عاليا فهي تكره السقف الواطئ ، يراودها إحساس بأنها ستندس تحتها ، أجمل البيوت هو البيت الذي ولدت فيه ، لكنها لا تريد أن تبني مايشبهه ثانية ، فقد رأت فيه أحزانا كثيرة وكرهته : القتيد والدها من البيت ولم يرجع ، بعده ماتت أمها حزنا ..

... كواشنا تبني بيتاً ، بيتاً يطفح سعادة ، بيتاً يلعب فيه أطفال كثيرون .. كل ما يحيط بها مشبع بالآئين ، بالنواح ، بالكباء ، والفقدون الأمل بالحياة حولها بالملئات ، وينتظرون الموت بكل هدوء وسكينة . كواشنا تبني بيتاً ، ويجب أن تنتهي من بنائه .

الليل أثقل من كل شيء .. رائحة العرق البشري ، تشخير ، تهديدات و أشياء أخرى مخجلة ، طاقة احتمال الإنسان بلا ندم محدودة ، ولذلك كانت كواشنا تسترق الغفوات عنوة ، فزعيق الحرس الأمرين بالخروج من جوف الموت الجاثم في الصحراء سوف يوقظهم من نومهم .. من موتهم بعد زمن أقرب من القريب ، ما ينتظر كواشنا عندها حساب أرقبا طويلا - ينقيا القطار مائي جوفه من أجساد بشرية متورمة منزلة على السلم الخشبي الذي يوصلهم إلى الأرض ، و البعض يطأها زاحفا ، وجهة الجميع ، ذلك الهيكل الخشبي الجاثم في الساحة والذي سوف يستوعبهم ليتركوا كل فضلاتهم في جوفه ، هذا مرحاض ، كل المعتقلين يساقون إليه صفا طويلا يدخلونه الواحد تلو الآخر ، تنفيذ هذه العملية على مرأى من الأعين البشرية شيء مؤرق فعلا ، ولكن ما العمل ؟

... ويساق للسجناء من المراض إلى جوف القططار البارد ثانية ليتناولوا السمك المالح المجفف إقطارا ، كواشنا تأخذ السمكة وتضعها تحت وسادتها ثم تعود من جديد لإتمام عملية بناء البيت . وهكذا تمر الساعات والأيام والأشهر ثقيلة مريرة .

...وفي أحد الأيام يساق السجناء باتجاه البحر - الهياكل العظمية بخطواتها المنفرجة تتمايل في مشيتها ، ومن يقع منهم أرضا يبقى في مكانه متوتلا برصاس الحرس . أو ترى اثنين يجران وراءهما جسدا يترك آثار الدم وراءه ، الباخرة الجائمة عند ساحل البحر على بعد خطوات منهم ، لكنها بعيدة جدا ، وكواشنا بينهم تجر نفسها ، وتوازن بين مابقي لديها من قوة وعدد الخطوات الباقية إلى الباخرة

فإذا توقفت قتلت في الحال .. هذه خطوة .. اثنتان ، ثلاثة .. يجب أن تنتهي بناء البيت ، وتدق آخر مسمار .. لا بد من سور للبيت ، وتسوره بيديها .. و أين الورود ؟

لا بد من حديقة للزهور .. ووجدت موقعاً مناسباً في باحة الدار ... غداً سوف تفتح براعمها الرطبة وتتشرب في الهواء روائحها وتجذب أسراب النحل لتمتص رحيقها .. الرحيق ، كواشنا على ظهر الباخرة الآن، وتنتظر ما تخبئ الأقدار لها من مجهول .

الباخرة تعج بسكاتها كذاية نحل .. ويصمت محدثي ..

ثم ماذا ؟ أسأله وقد نفذ صبري ، وتابع .. وبعد ذلك أودعهم في سجن آخر في قلب مدينة - نسيت اسمها .

وبعد مدة غير طويلة أطلقوا سراحها بحكم البراءة وذلك بمجهود أحد محبي الخير ، لكنها لم تنعم بالحرية طويلاً ، فبعد بضعة سنوات اتهمت ثانية وأودعت السجن ، كانت صادقة صريحة وجريئة في مواقفها أمام المحاكم وهذا ما جلب لها الانتعاسة ، يضاف إلى ذلك سوء بعض الناس الممتمنين حقداً وقذارة ..

كان معتقلها هذه المرة في الشمال البعيد من سيبيريا وظلت هناك تعمل في قطع أشجار الغابات طيلة ثماني سنوات من يعرف مآلخبته الأقدار له يا صديقي ، انه وحده يعرف ذلك ، أن يحافظ الإنسان على فطرته الإنسانية وعلى حبه للحياة والناس مثل كواشنا بعد كل هذا العذاب والآلام والمعاملات الوحشية فإن ذلك يحتاج إلى شجاعة ما بعدها شجاعة .

محدثي يد يده ويصافحني وينصرف معتذراً لتأخره عن موعد - هل أنهيت بناء البيت ؟ سألته بعد أن أدار ظهره وابتعد ، لكنه وقف واستدار نحوي وأجابني : " عبد كواشنا ببغاء جميل يتكلم الشركسية ! " كان جواباً لم أتوقعه أبداً ..

من كتاب الأشعار والنصوص

نالتشك ١٩٩٣

